أصل التفاوت بين الناس

تأليف: جان جاك روسّو

ترجمة: عادل زعيتر

دار العالم العربي

٢ شارع امتداد رمسيس (١) ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ ـ ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م/ صفر ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢١٨٥٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: ٠ ـ ٠٤٩ ـ ٤٩٥ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

منتدى سور الأزبكية
www.BooksHall.net

اللَّجْنَةُ الدَّوْلِيَّةُ لِتَرْجَمَةِ الرَّوَائِعِ الإِنْسَانِيَّةِ
(الأونسكو)

جان جاك روسو

أصل التفاوت بين الناس

تَرْجَمَة

عَادِل زُعَيْتِر

بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

روسو، جان جاك، ١٧١٢ - ١٧٧٨.

أصل التفاوت بين الناس /

جان جاك روسو؛ ترجمة عادل زعيتر . -

القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١١.

١٤٤ ص؛ ٢٤ سم . -

تدمك: ٠ - ٠٤٩ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ . الفلسفة الحديثة

أ. زعيتر، عادل (مترجم)

ب. العنوان

ديوى ١٩٠

(١)

مقدِّمَة المترجمِ

كان جان جاك رُوسُّو فى رسالته عن تأثير الفنون والعلوم فى الأخلاق قد أقام الدليل على أنهما أفسدا الأخلاق، وأوجبا شقاءَ الإنسانِ مُدَّعيًا أن الترفَ والحضارةَ من نتائجهما، قائلًا بالرجوع إلى حال الطبيعة، ومما ذهب إليه فى هذه الرسالةِ كَوْنُ الثَّقافةِ أقربَ إلى الشَّرِّ منها إلى الخير، وكَوْنُ التفكيرِ مناقضًا لطبيعة الإنسان، وكونُ الفضيلةِ والأمانةِ والصدقِ لا أثَرَ لها فى غير الحال الطبيعيةِ حيث لا علومَ ولا فنونَ.

وكَتَبَ رُوسُّو رسالتَه تلك بقلمٍ حارٍّ وعاطفةٍ جارفة، فجاءت مبتكرةً فى مجتمعٍ بلغ الغايةَ من المدنية مخالفًا لِمَا عليه الجُمهور، ويُعَدُّ رُوسُّو فى رسالته تلك كالمحامى الذى يلتزم طرفًا واحدًا فى المرافعات، فيَصْعُبُ تصديقُ جِدِّيَّته فى تمثيل دوره، ولذلك لا تتجلّى أهميةُ رسالته تلك فى اشتمالِها على مذهب إيجابىٍّ، بل فى كونها مفتاحًا لنشوء رُوسُّو الذهنىِّ، وفى كونها مرحلةً مؤديةً إلى «أصل التفاوت»، فإلى «العقد الاجتماعىّ».

و«أصلُ التفاوت» هو ما نقدم تَرْجَمَتَه الآن بعد أن قَدّمنا تَرْجَمة «العقد الاجتماعى».

نَشَرَ رُوسُّو كتابَ «أصل التفاوت» فى سنة ١٧٥٥ مُقَدَّمًا إلى جُمهورية جنيف، وتَدُلُّ كلمة «الطبيعة» هنا على تطورٍ كبير، فلا يعَارض رُوسُّو بها شرور المجتمع معارضةً فارغةً، بل تنطوى على أمورٍ إيجابية، فنَرَى نصفَ «أصل التفاوت» يشتملُ على وصفٍ خياليٍّ لحال الطبيعة التى يكون الإنسانُ فيها محصورًا ضِمْنَ أضيقِ مجالٍ مع قليلِ احتياجٍ إلى أمثاله، وقليلِ اكتراثٍ لِمَا وراء احتياجاتِ الساعةِ الحاضرةِ.

وفى هذا الكتاب صَرَّحَ روسُّو بأنه لا يفترض وجودَ الحال الطبيعية فعلًا، وإنما يستحسن حالًا من الهمجية متوسطةً بين الحال الطبيعية، والحال الاجتماعية يحافِظُ الناسُ بها على البساطةِ ومنافعِ الطبيعة، ويَظْهَر من تعليقات رُوسُّو على مَتْن الكتاب أنه لا يريد رجوعَ المجتمعِ الفاسد الحاضرِ إلى حال الطبيعة، وإنما يَعُدُّ المجتمعَ أمرًا لا مَفَرَّ منه مع فساده، وهو يُعَلِّلُ هذا الفسادَ بالتفاوت بين أفراد المجتمع فى المعاملات والحقوق، فيَتَغَنَّى بالإنسان الطبيعىِّ الطاهر، ويقول بتلك الحال المتوسطة حيث تسودُ المساواة.

وقد وُجِدَ من يؤاخذ رُوسُو على سلوكه منهاجَ التاريخ فى «أصل التفاوت»، مع أنه لم يَحْرِصْ على إلباس هذا الكتابِ ثوبًا تاريخيًّا، وانتحالُ المناحى التاريخيةِ الزائفة من خصائص القرن السابعَ عشرَ، والقرنِ الثامنَ عشرَ، ورُوسُو لم يبالِ بهذه المناحى.

ويُعَدُّ كتابُ «أصل التفاوت» هذا مَدْخلًا لكتاب «العقد الاجتماعيّ»، الذى ظَهَر سنة ١٧٦٢م، لابدّ منه للوقوفِ على ما اشتملَ عليه «العقدُ الاجتماعيُّ» من أصولٍ ومبادئَ، وقد نقلنا إلى العربيةِ كتابَ «العقد الاجتماعىّ»، العظيمَ الشأنِ وتَمَّ نشرُه مستقلًّا، وفى «العقد الاجتماعى» حَمَل رُوسُو على الرِّقِّ وعدم المساواةِ، وناضل عن حقوق الإنسان وأقامها على طبيعة الأمور، وقال إن هَدَفَ كلِّ نظامٍ اجتماعىٍّ وسياسىٍّ هو حفظُ حقوقِ كلِّ فرد، وإن الشعبَ وحدَه هو صاحبُ السيادة، وكان رُوسُو يَهْدِفُ فى «العقد الاجتماعى» إلى النظام الجمهورىّ، فَتَحَقق هذا النظامُ بالثورة الفرنسيةِ بعد ثلاثين سنة حين اتُّخِذَ «العقدُ الاجتماعيُّ» إنجيلَ هذه الثورة.

ولم يَقِلْ رُوسُو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعةِ، ويقومُ مذهبه على كونِ الإنسانِ صالحًا بطبيعته، محبًّا للعدل والنظام، فأفسده المجتمعُ وجعله بائسًا، والمجتمعُ سَيِّئٌ لأنه لا يساوى بين الناسِ والمنافعِ، والتملكُ جائزٌ لأنه مُقْتَطَعٌ من المُلْكِ الشائعِ الذى يجبُ أن يكون خاصًّا بالإنسانيةِ وحدَها، فيجبُ أن يُقْضَى على المجتمع إذَنْ، وأن يُرْجَعَ إلى الطبيعةِ، وهنالك يتفقُ الناسُ بعقدٍ اجتماعىٍّ على إقامة مجتمعٍ يَرْضى به الجميع، فيُقِيمُون بذلك هيئةً تَمْنَحُ الجميعَ ذاتَ الحقوقِ، وتقوم سيادةُ الشعبِ مقامَ سيادةِ الملكِ، ويتساوى فيها الناسُ، وتُنَظَّمُ فيها الثروةُ والتربيةُ والديانةُ.

ويُعَدُّ رُوسُو من أعظمِ من أنجبتهم فرنسةُ من الكُتَّاب، غير أن آراءه تُقْبَلُ أو تُرْفَضُ على حسبِ الأمزجةِ، وهو يُحَبُّ أو يُكْرَه ككاتبٍ أوحى بالثورةِ الفرنسيةِ قبل كلِّ شىء.

ويُوجدُ لكتبِ رُوسُو مَعْنَيَان، فبهما يُنْفَذُ إلى الذهنيةِ التى كانت سائدةً للقرن الثامنَ عَشَرَ، وهى ذاتُ أثرٍ بالغٍ فى حوادث أوربةَ التى وقعت فيما بعد، وبهذه الكتبِ يُمَثِّل روسُو فى عالم

الفكرِ السياسيِّ مرحلةَ الانتقالِ من النظريةِ التقليديةِ للدولة فى القرون الوسطى إلى الفلسفةِ الحديثةِ حَوْلَ الدولة.

ولم يعالجْ رُوسُّو نُظُمَ الدول الموجودة، خلافًا لِما صَنَع مُونْتِسْكيو وفُولْتير؛ فبينما كان مُونْتِسْكيو وفُولتير، اللذان هما من أبناء الطبقةِ العليا، يقتصران على المطالبةِ بالإصلاحِ السياسيِّ والدينيِّ، وتَلْمِ شوكةِ الاستبدادِ، كان ابنُ الشعبِ رُوسُّو، الذى قضى شبابًا قاسيًا، ينتهى بآلامه إلى ضرورةِ تجديدِ الدولةِ والمجتمعِ تجديدًا كليًّا، ومن قولِ رُوسُّو: «لم يَهْدِفْ مونْتِسْكيو إلى معالجةِ مبادئِ الحقِّ السياسىّ، وإنما كان يكتفى بمعالجةِ الحقِّ الوضعىِّ (القانون) للحكومةِ القائمة، فلا يُمْكِن أن يَبْدُوَ اختلافٌ بين دراستين أكثرَ من هذا»، ومن ثَمَّ يكونُ رُوسُّو قد تَمَثَّل موضُوعَه مختلفًا عن موضوعِ «روح الشرائع» كلَّ الاختلاف.

ولا نرى أن نَدْرُسَ حياةَ رُوسُّو فى هذه المقدمةِ، فقد فعلنا ذلك فى مقدمتنا لترجَمة «العقد الاجتماعىِّ» التى اقتطفنا ما تقدم منها، والتى تُعَدُّ مقدمةً لهذا الكتابِ أيضًا، فعلى هذا القصدِ نُمْسِكُ القلمَ عن بيانِ سيرةِ رُوسُّو هنا، مكتفين بما تقدم، مُحِيلِينَ القارئَ على تلك المقدمةِ.

«نابلس»

محمد عادل زعيتر

(٢)

التَّرْجَمَة

رِسَالَة

فى هذا السؤال الذى اقترحته أكاديميةُ دِيجُون:

ما أصلُ التفاوتِ بين الناسِ.. وهل أجازه القانونُ الطبيعىُّ؟

«يجبُ علينا أن نَعُدَّ طبيعيًّا ما نُظِّم وَفْقَ الطبيعةِ من أمورٍ، لا ما فَسَدَ منها».

(أرسطو، السياسة، الباب الأول، الفصل الثانى)

إلى جُمْهُورِيَة جنِيفَ

أيها السادةُ المُبَجَّلُونَ الأجِلَّاءُ الكرام!

بما أننى اعتقدتُ أنه لا يستطيع غيرُ المواطن الصالح أن يُقَدِّم إلى وطنه من التكريم ما يُمْكِنه قبولُـه؛ فإننـى عَمِلْتُ ثلاثين سـنةً لأكونَ أهلًا لأن أقـدِّم إليكم تحيةً عامة، فتَقُـومُ هذه الفرصةُ السـعيدةُ مـن بعض الوجوهِ مقامَ ما قـد تنطوى عليه جهودى من نَقْصٍ، وحَسِـبْتُ أنه يُبَاح لى التأمـلُ فى الغَـيْرةِ التـى تُغْرِينى أكثرَ مما فى الحـقِّ الذى يجبُ أن يُمَهِّد لى السـبيل، وبما أنه كان لى شرفُ الوِلَادةِ بينكم؛ فكيف يُمْكِننى أن أُنْعِمَ النظرَ فى المساواة التى وَضَعَتْها الطبيعة بين الناسِ، وفى التفاوتِ الذى أقاموه؛ من غير أن أفكِّرَ فى الحكمةِ البالغةِ التى مُزِجَتْ بها تلك وهذا مَزْجًا مُوَفَّقًا فى هذه الدولة، فيسـعيان من أقرب الطرقِ إلى القانونِ الطبيعىّ، ومن أكثرِها ملاءمةً إلى المجتمـعِ، حفظًا للنظامِ العامِّ وسـعادةِ الأفـراد؟! وإنى، حين بحثتُ عن أصلـحِ القواعدِ التى يُمْكِن العقل الرشيد أن يُمْلِيهَا حَوْل نظامِ حكومةٍ، بلغتُ من بَهْرِ النظرِ باكتشافى وجودَها كلَّها جاريـةً فى حكومتكـم ما كنتُ أرى معه عدمَ اسـتطاعتى إعفاءَ نفسـى من تقديـمِ هذه الصورةِ عن المجتمعِ البشرىِّ إلى هذا الشـعبِ الذى يَلُوح أنه أكثرُ الشـعوبِ أخذًا بمحاسِـنِها واجتنابًا لمساوئها، ولو لم أكنْ قد وُلِدْتُّ داخلَ أسوارِكم.

ولـو كان لى اختيـارُ محـلِّ وِلادتـى لاخـتَرْتُ مجتمعًـا بالغًا من الاتسـاعِ ما يُحَدُّ معـه بمَدَى الخصائص البشرية، أى بإمكان حُسْـنِ الحكومة، حيث كلُّ واحدٍ مسـاوٍ لعمله، فلا يُلْزَم أحدٌ بـأن يُفَـوِّض إلى آخرين بوظائفَ كان قد عُهِد إليه فيهـا، وإنَّ دولةً يتعارفُ جميعُ الناسِ فيها لا يُمْكِـنُ مكايـد الرذيلةِ الخفيةَ، ولا اتِّضَاع الفضيلةِ، أن يغيبا عـن أنظار الجُمهورِ وحُكْمِه فيها، فتَجْعَـلُ هـذه العادةُ اللطيفةُ فى الالتقاءِ والتعارفِ حُبَّ الوطـنِ حُبًّا للمواطنين أكثرَ من جعله حبًّا للأرض.

وكنتُ أودُّ أن أُولدَ فى بلدٍ لا يُمْكِنُ أن يكونَ للسيدِ والشعبِ فيه غيرُ مصلحةٍ واحدةٍ بذاتها، وذلك لكى تميلَ جميعُ حركاتِ الآلةِ إلى السعادةِ العامة، وبما أن هذا لا يُمْكِنُ أن يكون ما لم يكن الشعبُ والسيدُ شخصًا واحدًا، فإننى أودُّ لو وُلِدْتُ فى كَنَفِ حكومةٍ ديموقراطيةٍ معتدلةٍ بحكمة.

وكنت أودُّ أن أحيا وأموتَ حُرًّا؛ أى أنْ أَبْلُغَ من الخضوعِ للقوانين ما لا أستطيعُ معه، ولا يستطيع أحدٌ معه، إلقاءَ النِّيرِ المُكَرَّمِ عن الكاهلِ، هذا النير الشافى الهيِّن الذى تَحْمِله أكثر الرؤوس تَكَبُّرًا بِدَعَةٍ كما لو كانت قد خُلِقَت لكيلا تَحْمِل غيرَه.

وكنت أودُّ، إذَنْ، ألَّا يكونَ فى الدولة مَنْ يَقْدِر أن يقول إنه فوق القوانين، وألَّا يكونَ فى الخارج مَنْ يَقْدِر أن يُمْلِيَ ما تُحْمَلُ به الدولة على الاعترافِ بسلطانه؛ وذلك لأنه إذا ما وُجِدَ فى الحكومةِ، مهما أَمْكَن أن يكون نظامُها، رجلٌ غيرُ خاضعٍ للقوانين كان الباقون تابعين لهواه «١» [*]؛ وذلك لأنه، إذا ما وُجِدَ رئيسٌ قوميٌّ، وآخرُ أجنبيٌّ فإنه، مهما كان اقتسامُ السلطةِ الذى يُمْكِنُهما أن يأتياه، يتعذر أن يُطاعَ كلٌّ منهما كما يجب، وأن تُحْسَنَ إدارةُ الدولة.

وما كنتُ لأختارَ العيشَ فى جُمهوريةٍ ذات نظامٍ جديد، مهما أَمْكَن أن تكون قوانينُها صالحةً؛ وذلك خشيةَ أن تكون الحكومةُ قد كُوِّنت على غيرِ مقتضياتِ الوقتِ، فتختلفُ هى والمواطنون الجُدُدُ، أو يختلفُ المواطنون والحكومةُ الجديدة، وتكون الدولةُ عُرضةً للارتجاج والانهيار منذ ولادتها تقريبًا، وذلك لأن الحرية هى كتلك الأغذيةِ الجامدةِ والعُصَارِيَّةِ، أو تلك الخمورِ السَّخِيَّة الصالحةِ لتغذيةِ وتقويةِ البِنْيَاتِ القوية المتعوِّدَة إياها، ولكن مع إرهاقها وتقويضها وإسكارِها الضعفاءَ والنِّحَافَ الذين لم يُخْلَقُوا لها قَطُّ، وإذا ما تَعَوَّدت الشعوبُ سادةً ذاتَ مرةٍ عادت لا تستغنى عنهم، وإذا ما حاولت الشعوبُ إلقاءَ النِّير ابتعدت عن الحرية بالمقدار الذى تُحَوِّلُها به إلى تَحَلُّلٍ جامحٍ معاكسٍ لها، وتُسْلِمُها ثَوْراتُها دائمًا تقريبًا إلى غُوَاةٍ لا يفعلون غيرَ إثقالِ قيودِها، ولم يكن الشعبُ الرومانىُّ نفسُه قَطُّ، هذا الشعبُ الذى هو مثالٌ لجميع الشعوبِ الحرةِ،

(*) تجد مدلول هذا الرقم وما يليه من الأرقام التى هى بين هذه الأقواس فى قسم التعليقات الواقعة فى آخر هذا الكتاب. (المترجم)

قادرًا على الحكم فى نفسه عندما تفلَّت من ظُلْم آل تارْكِن، فهو، إذ أُذِلَّ بالعبودية والأعمال الشائنة التى فَرَضوها عليه لم يَعْدُ فى البُداءة غيرَ كونه رُعَاعًا أغبياءَ تجبُ مداراتُهم والحكمُ فيهم بأعظم حكمة، وذلك لكى تنالَ بالتدريج هذه النفوسُ الواهنةُ، وإن شئت فقل المتوحشة فى عهدِ الطغيانِ، بتَعَوُّدِها استنشاقَ هواءِ الحرية الصحىِّ مقدارًا فمقدارًا، تلك المتانَة الخُلُقية وتلك العِزَّة الباسلة اللتان جعلتاها أكثرَ الشعوب أهلًا للاحترام، وكان علىَّ أن أبحث لوطنى، إذَنْ عن جُمهوريةٍ سعيدةٍ هادئةٍ ضاعَ قِدَمُها فى ليلِ الزمنِ من بعض الوجوه، فلم تُخْتَبَرْ بغير صَدَماتٍ صالحةٍ لإظهارها وتمكينها خُلُقَ الشجاعةِ وحبَّ الوطنِ، وحيث يكون المواطنون المتعوِّدون استقلالًا حكيمًا زمنًا طويلًا جديرين بأن يكونوا أحرارًا، لا أحرارًا فقط.

وكنتُ أودُّ أن أختار لنفسى وطنًا مصروفًا عنه لعجزِ مَجْدُودٍ[1]، وعن حبٍّ ضارٍّ للفُتُوح، مضمونًا بموقعٍ أكثرَ حظًّا أيضًا، وذلك عن خَوْف غُدُوِّه فتحًا لدولةٍ أخرى، وذلك كمدينةٍ حُرَّةٍ واقعةٍ بين شعوبٍ كثيرة ليس لأىِّ واحدٍ منها مصلحةٌ فى الاستيلاءِ عليها، ويكون لكلِّ واحدٍ منها مصلحةٌ فى منع الأخرى من الاستيلاء عليها، أى أن أختارَ جُمهوريةً لا تُثِيرُ طموحَ جاراتها مطلقًا، ويُمْكِن أن تعتمد على مساعدةِ هذه الجاراتِ اعتمادًا مناسبًا عند الضرورة، ومن ثَمَّ لا يُمْكِنُ الدولة الجُمهورية ذات الحظِّ فى موقعها بهذا المقدارِ أن تَخْشَى غيرَ نفسها، فإذا كان مواطنوها يمارسون استعمالَ الأسلحةِ، فذلك ليُبْقُوا فى بلدهم تلك الحميةَ الحربيةَ وتلك العِزَّةَ الباسلةَ الملائمتين للأحرار، واللتين تُغَذِّيان ذوقَهم أكثرَ من ضرورةِ تَوَلِّيهم أمرَ دفاعهم الخاصِّ.

وكان علىَّ أن أبحثَ عن بلدٍ يكون حَقُّ الاشتراعِ فيه مشتركًا بين جميع المواطنين، فمن ذا الذى يستطيعُ أن يَعْلَم أحسنَ من هؤلاءِ شروطَ العيش معًا فى المجتمع عينه؟! ولكننى ما كنتُ لأستحسنَ استفتاءاتٍ مماثلةً لِمَا قام به الرومانُ حيث كان رؤساءُ الدولة ومَنْ هم أحرصُ الناس على بقائها ممنوعين من المباحثات التى تتوقفُ عليها سلامتُها فى الغالبِ، وحيث كان الحكامُ محرومين، عن تناقضٍ محالٍ، ما يتمتعُ به أحقرُ المواطنين من حقوقٍ.

(١) المجدود: ذو الحظ.

وكنتُ، على العكسِ، أرغبُ لوقفِ المشاريعِ المُغْرِضةِ السيِّئةِ المفهومِ، والبِدَعِ الخَطِرة التى قَضَتْ على الأثينيين فى نهاية الأمر ألَّا يكونَ لكلِّ واحدٍ سلطةُ اقتراحِ قوانينَ جديدةٍ وَفْقَ هواه، أن يكونَ هذا الحقُّ خاصًّا بالحكامِ وحدَهم، وأن يقوم هؤلاء بذلك مع حَذَرٍ كثير، وأن يُمَكَّنَ الشعبُ من الاحتفاظ بحقه فى الموافقة على هذه القوانين، وأن يكون نشرُها من التعذر بغير احتفالٍ كبيرٍ ما يكون معه قبل قَلْبِ النظامِ من الوقت الكافى ما يُقْنَع فيه بكون قِدَم القوانين البالغِ على الخصوصِ هو الذى يجعلها مقدسةً محترمة، وأن يَزْدَرِىَ الشعبُ من فَوْره ما يرى تبديلَه كلَّ يومٍ من القوانين، وأن يُعْلَم أنه بتَعَوُّدِ إهمال العاداتِ القديمةِ بحجةِ الإصلاحِ تُتَّخَذُ فى الغالب شرورٌ كبيرة إصلاحًا لِمَا هو دونها.

وكنتُ أجتنبُ على الخصوصِ، كسيئةِ الإدارةِ بحكمِ الضرورةِ، جُمهوريةً يَعْتَقِدُ الشعبُ فيها إمكانَ استغنائه عن حكامه، أو عدمَ تركه لهم غيرَ سلطةٍ وقتيةٍ فيحتفظ عن عدمِ تَرَوٍّ بإدارةِ الأمورِ المدنيةِ، وتنفيذِ قوانينه الخاصةِ، فهذا ما وَجَبَ أن كان عليه نظامُ الحكوماتِ الأولى الغليظُ فَوْرَ خروجِها من الحال الطبيعيةِ، وهذا ما كانت عليه إحدى النقائصِ التى قضت على جُمهورية أثينة.

ولكننى كنتُ أختارُ مجتمعًا يكتفى الأفرادُ فيه بتأييد القوانين، وبتقريرهم أهمَّ الشؤونِ العامة ضمنَ هيئةٍ، وبناءً على طلب الرؤساء، فيُنْشِئون محاكمَ محترمةً، ويَميزُون بين مختلفِ الدوائرِ بعنايةٍ، ويتنخبون بين عامٍ وعامٍ أقدرَ مواطنيهم وأنزهَهم لإدارة العدلِ والحكم فى الدولة، كنت أختار مجتمعًا تكون فضيلةُ الحكامِ فيه شاهدةً على حكمة الشعبِ فيوجبُ كلٌّ من الفريقين شرفَ الآخر مقابلةً، فإذا ما ظَهَر فى مثل هذه الحال من سوء التفاهم المشؤومِ ما يُكَدِّر الوِفَاقَ العامَّ، فإن أدوارَ العمايةِ والضلالِ نفسَها تُوسَمُ بدلائلِ الاعتدالِ والتقديرِ المتبادَلِ، وباحترامٍ شاملٍ للقوانين، أى بعلاماتٍ وضاماناتٍ لوفاقٍ صادقٍ دائم.

فتلك هى، أيها السادةُ المُبَجَّلُون الأجِلَّاءُ الكرامُ، ما كنت أبحثُ عنه من المنافعِ فى الوطن الذى كنت أختاره لنفسى، ولو أن العنايةَ الإلهيةَ أضافت إلى ذلك موقعًا رائعًا وإقليمًا معتدلًا وبلدًا خصيبًا وأرغدَ ما يكون تحت السماء، ما كنت أرغَبُ لكمال سعادتى فى غير التمتع بجميع

هـذه الأطايـب فى صميـمِ هذا البلدِ السـعيدِ عائشًـا هادئًا فى مجتمـعٍ ناعمٍ مع مواطنـىَّ مباشرًا الإنسـانيةَ والمحبةَ وجميعَ الفضائلِ نحوَهم وعلى مثالهم، تـاركًا ورائى ما لرجلِ الخيرِ والوطنىِّ الشريفِ من الذكرى المكرَّمة.

ولو كنتُ أقلَّ سـعادةً وأكثرَ حكمةً، فوجدتُنى مُلْزَمًا بأن أختم حياةً عاجزةً ذاويةً فى أقاليمَ أخرى، آسـفًا بلا طائلٍ على الراحةِ والسَّكينةِ اللتين كانت تَحْرِمنى إياهما شُبُوبِيَّةٌ غافلةٌ، لغَذَّيتُ نفسى بتلك المشاعرِ التى لم أكن لأقْدِرَ على اتخاذها فى بلدى، ولو كنت مُفْعَمًا بمودَّةٍ رقيقةٍ نزيهةٍ تجاه مواطنىَّ البُعَداءِ، لَوَجَّهتُ إليهم الكلمةَ الآتيةَ تقريبًا:

«مواطنـىَّ الأعـزاءَ، بل إخوانى، بـما أن روابطَ الدمِ والقوانينَ تُوَحِّد بيننـا جميعًا تقريبًا، فإنه يَخْلُو لى ألَّا أستطيعَ التفكيرَ فيكم من غيرِ أن أُفكر فى الوقتِ نفسِه فى جميعِ الأطايبِ التى تتمتعون بها، والتى لا يوجَدُ بينكم على ما يحتمل مَنْ يَشْعُر بقيمتها أحسنَ منى، أنا الذى أضاعها، وكلما أنْعَمْتُ النظر فى وضعِكم السياسىّ والمدنىّ قَلَّ إمكانُ تصورى استطاعةَ أمورِ البشرِ أن تحتمل مـا هـو أطيبُ منها، وعندما يُبْحَثُ فى جميع الحكومـاتِ الأخرى عن ضمانِ أعظمِ خيرٍ للدولة، يَقْتَصرُ كلُّ شـىءٍ على خِططٍ فى الأفكارِ دائمًا، وعلى الممكناتِ البسـيطةِ جُهْدَ الاسـتطاعةِ، وأما أنتم فإن سعادَتكم قد كَمَلَتْ، وليس عليكم غيرُ التمتعِ بها، وليس عليكم لتكونوا سعداءَ تمامًا غيرُ معرفتِكم كيف تَقْنَعُون بأن تكونوا هكذا، وأخيرًا غَدَت سـيادتُكم ـ المكتسـبةُ أو المسـتردَّةُ بحدِّ السـيف، والتى حُفِظَت مدةَ قرنين عن قيمةٍ وحكمةٍ ـ معترَفًا بها اعترافًا تامًّا عامًّا، وتُعَيِّنُ حدودَكـم وتؤيدُ حقوقَكم وَتُوكِّد راحَتَكـم معاهداتٌ مُكرَّمةٌ، ونظامُكم رائعٌ، فقد أملاهُ عقلٌ عـالٍ، وضَمِنَتْـه دولٌ صديقةٌ ومحترمةٌ، ودولتُكـم مطمئنةٌ، فليس عليكم أن تَخْشَـوْا حروبًا ولا فاتحين، وليـس عندكم سـادةٌ غيرُ ما وضعتمـوه من القوانـين الحكيمة، ويَعْمَلُ بهـذه القوانين حـكامٌ صالحون من اختياركم، ولسـتم مـن الغِنَى ما تَتخنثون معه عن نعيـمٍ وما تَخْسَرُون معه ذوق السـعادةِ الحقيقيةِ والفضائل المتينة فى الأطايب الفارغة، ولستم من الفقر ما تحتاجون معه إلى المسـاعداتِ الأجنبيةِ التى لا تُنْعِم صِناعتُكم بها عليكم، ولا يُكَلِّفُكم شيئًا تقريبًا حفظُ هذه الحريةِ الثمينة التى لا تُصَانُ لدى الأممِ العظيمةِ بغير الضرائبِ المُفْرِطة.

وهل تستطيعُ أن تدومَ إلى الأبد، وفى سبيل مواطنيها، ولتكونَ مثالًا للشعوبِ، جُمهوريةٌ تُدَارُ بحكمةٍ بالغةٍ وتوفيقٍ كبير؟! هذا هو الأملُ الوحيدُ الذى يبقى لكم أن تصنعوه، والحَذرُ الوحيد الذى يبقى لكم أن تتخذوه، وعليكم وحدَكم يتوقفُ فى المستقبل أن تَجْعَلُوا تلك السعادةَ دائمةً بحكمةِ حُسْنِ استعمالها، لا أن تَصْنَعوا سعادَتكم، فقد كفاكم أجدادُكم مَؤُونةَ ذلك، ويتوقف بقاؤكم على اتحادكم الدائم، وعلى إطاعتكم القوانينَ، وعلى احترامكم من يَقُومُون بها، وإذا ما بَقِىَ بينكم أقلُّ أثرِ مرارةٍ، أو تَرَيُّبٍ فسارعوا إلى تبديده كخميرةِ شؤمٍ ينشأ عنها شقاؤكم وخرابُ الدولة عاجلًا أو آجلًا، أستحلفكم جميعًا أن تَعُودوا إلى فؤادِكم، وأن تستمعوا إلى صوتِ ضميركم الخفىِّ، وهل يوجد بينكم من يعْرِفُ فى العالم كيانًا أكثرَ صلاحًا ونورًا واحترامًا من حاكميتِكم؟! ألَا يُعْطيكم جميعُ أعضائِها مثالَ الاعتدالِ وبساطةَ الطِّباع واحترامَ القوانين وأصدقَ وفاقٍ؟! ضَعُوا بلا تَحَفُّظٍ، إذَنْ، فى رؤساءَ بالغى الحكمةِ تلك الثقةَ النافعةَ التى يكون العقلُ مدينًا بها للفضيلةِ، وفكِّروا فى كونهم ممن اخْتَرْتم، وفى كونهم يُزَكُّون هذا الاختيار، وفى كون ضروبِ الشرف التى تَحُفُّ من رفعتموهم تَعُود إليكم بحكم الضرورة، ولا يُرَى بينكم أحدٌ من قلةِ المعرفة ما يَجْهَل معه كونَ ضَيَاعِ قوةِ القوانين وسلطانِ حُمَاتها يؤدى إلى عدم استطاعةِ أحدٍ أن يتمتع بالسلامة والحرية، ولِمَ تَتَرَدَّدُون، إذَنْ، أن تصْنَعوا عن طِيبةِ قلبٍ وطُمَأْنينة نفسٍ ما أنتم مُلْزَمون بصنعه عن مصلحةٍ حقيقيةٍ وعن واجبٍ وعقل؟!

ولا تَدَعُوا أثيمًا ولا خَلِيًّا مشؤومًا، قائمًا على حفظ النظامِ، يغريكم عند الضرورة بإهمالِ ما لأكثركم نُورًا وغيرةً من آرَاءٍ حكيمة، ولكن لِيَدُم الإنصافُ والاعتدالُ والرزانةُ البالغةُ الحُرمةِ أمورًا ناظمةً لجميع خُطُواتكم، دالَّةً جميعَ العالَمِ فيكم على مثالِ شعبٍ فخورٍ متواضعٍ محبٍّ لمجده حُبَّه لحريته، واحذروا خاصةً، وهذه آخرُ نصيحةٍ منى، أن تُصْغُوا إلى التفاسير الضارَّة والأحاديثِ السَّامَّة التى تكون عواملُها الخفيةُ أشدَّ خطرًا من الأفعالِ التى هى موضوعها، أجَلْ، إن المنزل بأسْرِه يستيقظ ويتنبه إلى أولِ صُرَاخٍ من كلب الحِراسةِ الصالحِ المخلصِ الذى لا يَعْوِى إلا عند اقترابِ اللصوصِ، غير أننا نَمْقُتُ إزعاجَ تلك الكلاب الصَّخَّابة التى تُقْلِقُ

الراحةَ العامّة بلا انقطاعٍ فلا تؤدى تحذيراتُها المستمرةُ التى هى فى غير محلّها إلى الإصغاءِ وقتما تكون ضرورية».

وأنتم أيها السادةُ المُبَجَّلُون الأجلاء، وأنتم أيها الحكامُ الأفاضلُ المحترمون، اسمحوا لى بأن أقدم إليكم تحياتى وواجباتى على الخصوص، فإذا وُجِد فى العالَم مقامٌ صالحٌ لتكريم من يَشْغَلُونه فذلك المقام هو الذى تُنْعِمُ به المواهبُ والفضيلة، فذلك هو المقامُ الذى جَعلتم به أنفسَكم أكفياء، فذلك هو المقام الذى رَفَعكم إليه مواطنوكم، وتُضِيف مزيتهم الخاصة إلى مزيتكم بهاءً جديدًا، وبما أنه وقع اختياركم من قِبَلِ أناسٍ قادرين على الحكمِ فى أُناسٍ آخرين، وذلك للحُكْم فيهم، فإننى أجِدُكم أعلى من جميع الحكام الآخرين، وذلك بالمقدارِ الذى يكونُ به شعبٌ حُرٌّ، ولا سيما الشعبُ الذى لكم شرفُ قيادته، فوق عامَّةِ الدولِ الأخرى ببصائرِه وعقلِه.

وليُسْمَحْ لى بأن أذْكُر مثالًا يجب أن يبقى منه أحسنُ الآثار، وأن يظلَّ ماثلًا لقلبى على الدوام، ولا أذكر من غير أحلى حَنَانٍ ذكرى ذلك المواطن الفاضل الذى أرانى مَدِينًا له بوجودى، والذى عَلَّمَنى فى صباى غالبًا أن أقوم بالاحترامِ الواجبِ نحوكم، ولا أزال أراه يعيشُ من عملِ يديه، ويُغَذِّى روحَه بأعلى الحقائقِ، وأُبصرُ تاسِيتَ وبُلوتَارْك وغرُوسْيُوس مختلطين أمامه بين آلات حِرْفته، وأُبْصِر بجانبه ابنًا عزيزًا يتناولُ مع قليلِ ثمرةٍ أرقَّ ما يَصْدُر عن أصلحِ الآباءِ من تعاليم، ولكن إذا كانت عَمَايَاتُ شبابٍ طائشٍ جعلتنى أنسى دروسًا بالغةً تلك الحكمةَ ذات حينٍ؛ فإن لى فى نهاية الأمرِ سعادةَ الإحساس بأنه ليس من السهلِ على تربيةٍ مازجت القلبَ أن تَضِيعَ إلى الأبدِ مهما كان من مَيْلٍ إلى المُنْكَرِ.

أولئك، أيها السادةُ المُبَجَّلُون الأجلاءُ، مَنْ وُلِدُوا فى الدولة التى تَحْكُمُون فيها من المواطنين، ومن عامة السكان أيضًا، وأولئك هم الرجالُ الأذكياءُ المُعَلَّمون الذين تدور حولهم ـ لدى الأمم الأخرى، وذلك باسم العمالِ والشعبِ ـ أفكارٌ بالغةُ الخِسَّة والإفكِ، ولم يكن والدى ممتازًا بين مواطنيه مطلقًا، وهذا ما أعترفُ به مسرورًا، وهو لم يكن على غير ما كانَ عليه الآخرون، وهو،

مع ما كان عليه، لا نَجِدُ بلدًا لم يُبْحَثْ فيه عن مجتمعه، ولم يُتَعَهَّدْ فيه مجتمعَهُ، حتى بمنفعةٍ، من قِبَل أكثرِ الناسِ صلاحًا، وليس من شأنى والحمدُ لله، وليس من الضرورىّ، أن أُحدِّثكم عن الإكرامِ الذى يُمْكِن أن ينتظرَه منكم أناسٌ من هذه الجِبِلَّةِ، أناسٌ يساوونكم بالتربيةِ وبحقوقِ الطبيعةِ والولادة، أناسٌ يُعَدُّون دونَكم بإراداتهم، وبما هم مَدِينُون به لفضلكم من أرجحية يَمْنَحُونه إياها، فتكونون من أجْلها مَدِينين لهم بضَرْبٍ من الشُّكْران بدَوْركم، وأعْلَمُ مع السرور الحارِّ مقدارَ اللطفِ والعطفِ اللذين تُعدِّلون بهما معهم اتزانَ حَفَظة القانون، ومقدارَ ما تَرُدُّونه من الاعتبار والعناية إلى من هم مُلْزَمون بالإجلالِ والطاعة نحوكم، وهذا السلوكُ زاخرٌ بالعدلِ والحكمة، وهو يَصْلُح لأن يُبْعِد بالتدريج ذكرى ما يجب نسيانُه من الحوادث السيئة لكيلا يُرَى ثانيةً، وهذا السلوكُ هو من الحَصَافة ما يَجِدُ معه هذا الشعبُ المنصفُ الكريمُ لذةً فى القيام بواجبه، وما يُحِبُّ معه أن يُمَجِّدَكم عن طبيعة، وما يكون معه أشدُّ الناسِ حماسةً لتأييد حقوقهم أكثرَهم استعدادًا لاحترامِ حقوقكم.

ولا ينْبَغِى أن يُحَارَ من حُبِّ رؤساءِ المجتمع المدنىّ لمجده وسعادته، ولكن من الشاقِّ على قرار الناس أن يُبْدِىَ مَنْ يَعُدُّون أنفسَهم حُكَّامًا، وإن شئت فَقُلْ سادةً، لوطنٍ أكثرَ قدسيةً وسُمُوًّا، حُبًّا لوطنٍ دنيوىٍّ يُغَذِّيهم، ويا لَما أجِدُ من حلاوةٍ فى إمكان قيامى باستثناءٍ بالغِ النُّدْرةِ نفعًا لنا، فأضعُ فى صَفِّ أصلحِ مواطنينا حَفَظَةَ العقائدِ المقدسةِ الغُيُرَ المُجَازَ لهم بالقوانين، رُعَاةَ النفوسِ الأجِلَّاءَ الذين تَحْمِلُ فصاحتُهم الحَيَّةُ العَذْبةُ إلى الأفئدةِ ما يأخذون فى ممارسته بأنفسِهم دائمًا من مبادئِ الإنجيل! يَعْلَمُ جميعُ العالَمِ مقدارَ ما يُزَاوَلُ به من نجاحٍ فَنُّ الوعظِ فى جِنِيف، غير أن من الناس مَنْ بَلَغُوا من عادة سماعهم القَوْلَ حَوْلَ أمرٍ وملاحظتِهم العملَ بأمرٍ آخرَ، ما نَجِدُ معه أناسًا قليلين يَعْلَمُون مقدارَ استيلاءِ روح النصرانية، وقُدْسيةِ الطِّباع والقسوةِ على النفس والرأفةِ بالآخرين، على هيئة واعظينا، ومن المحتمل أن كانت مدينة جِنِيف وحدَها هى التى تُقَدِّم مثالًا ممتعًا عن اتحادٍ كاملٍ بين مجتمعٍ من علماء اللاهوت ورجالِ الأدب، فترانى أُقيم أملى فى اطمئنانها الأبدىّ على حكمتهم واعتدالهم المعروفِ أمرُهما، وعلى غَيْرَتهم حَوْل

سعادة الدولة، لَمَدًى واسعٍ، وأُلاحظُ فى الوقت نفسِه، ومع غِبطةٍ ممزوجةٍ بعَجَبٍ واحترامٍ، مقدارَ ما يساورهم من مقتٍ لِمَا يَحْمِل من مبادئَ كريهةٍ هؤلاء الناسُ المقدَّسون البرابرةُ الذين يُقَدِّم تاريخُهم غيرَ مثالٍ، فتراهم أقلَّ ضِنًّا بالدم البشرىِّ لتأييد حقوق الرَّبِّ المزعومة، أى لتأييد حقوقِهم الخاصة، وذلك بنسبة ما يُعَلِّلُون به أنفسهم من احترام دمِهم على الدوام.

وهل أستطيعُ أن أنسى ذلك النصفَ من الجُمهورية الغالىَ الذى يُوجِب سعادةَ النصف الآخرِ، فما يَنْطَوِى عليه من حِلْمٍ وحكمةٍ يؤدى إلى حفظ السلامِ وحُسْن الطِّباعِ فيه؟ فيا أيتها المواطناتُ المحبوباتُ الفاضلاتُ «بنات جِنيف»، إن من نصيب جنسكنَّ أن تَحْكُم فى جنسنا دائمًا، ويا للسعادةِ عندما يُشْعِر سلطانُكن الطاهرُ، المزاوَلُ فى القِرانِ الزَّواجىِّ وحدَه، بنفسه فى سبيل مجد الدولةِ والنعيمِ العامِّ فقط! هكذا كان النساء يَقُدْنَ فى إسبارطة، وهكذا يستأهِلْن القيادةَ فى جِنيف، وأىُّ رجلٍ من البرابرة يَقْدِر أن يقاومَ صوتَ الشرفِ والعقلِ من فَمِ زوجةٍ حَنُون؟! ومن ذا الذى لا يزدرى ترفًا باطلًا عندما يَرَى حِلْيَتَكن البسيطةَ المتواضعة التى تَلُوح، بما تقتبسه من بهائِكن، أنها أكثرُ ما يلائم الجمال؟! وعليكن أن تَصُنَّ بسلطانِكن البريء المُحَبَّبِ، وروحكن الفَتَّانة، حبَّ القوانين فى الدولة والوِفاق بين المواطنين، وأن تُجْمِعْن بين الأُسَر المُفَرَّقة بزواجاتٍ مُوفَّقة، وأن تُصْلِحْن، على الخصوص، بدروسكن ذاتِ الوَدَاعةِ المُقْنِعة، وبحديثكن ذى الألطافِ المعتدلة، ما يكتسبه شبابُنا من سوء سلوكِ البلدانِ الأخرى التى لا يَجْلِبُون منها، مع لهجةٍ صبيانيةٍ وأوضاعٍ مضحكةٍ مقتبسةٍ من نساءٍ فاجرات، وبدلًا من أمورٍ مفيدةٍ كثيرةٍ يمكنهم أن يستفيدوها منها، غيرَ إعجابٍ بما لا أدرى ما يكون من عظمةٍ مزعومةٍ وتعويضاتٍ حقيرةٍ عن عبوديةٍ لا تساوى الحريةَ المُبَجَّلةَ، فكُنَّ دائمًا، إذَنْ، أَنْتُنَّ حارساتِ الأخلاقِ الطاهراتِ، وروابطَ السلامِ العَذْبات، وداوِمْنَ على استغلالِ حقوقِ القلب والطبيعةِ نفعًا للواجب والفضيلة.

وأتملَّق نفسى إذْ لم يُكَذِّبْنى الحادثُ بإقامتى على مثل هذه الأُسسِ أملَ السعادةِ العامة للمواطنين والمجد للجُمهورية، وأعترفُ، مع جميع هذه المنافع، بأنها لا تَسْطَع بذلك الضياء الذى يُعْشِى معظمَ العيونِ، والذى يُعَدُّ ذوقُه الصبيانىُّ المشؤوم عدوَّ السعادةِ والحرية الأزرقَ.

ولْيَذْهَبْ شبابٌ منحلٌّ للبحث فى مكانٍ آخرَ عن مَلَاذٍ سهلةٍ وثَوْباتٍ طويلة، ولْيُعْجَبْ ذوو الـذوقِ المزعوم، فى أماكنَ أخرى، بعظمة القصورِ وجمـالِ الأجهزة، وبالأمتعةِ الرائعة والمناظر البهيـة، وبجميـع دقائقِ الـتَّرَف والتخنُّثِ، فـلا يوجد فى جِنيـفَ غيرُ رجالٍ، غـير أن لمثل هذا المَحْضَر ثمنَه مع ذلك، ومن يَبْحَثُون عنه يساوون المُعْجَبين بالباقى.

فتفضلوا، أيها الســادةُ المُبَجَّلون الأجلَّاءُ الكرام، أن تَقْبَلُوا، جميعًا، بذات الحِلْم، هذا الدليلَ البالغَ الاحترامِ على اهتمامى بإقبالكم الشـامل، فإذا كنتُ من الشـقاء ما أُعَدُّ معه مُذْنِبًا بهيجانِ مِذْيـاعٍ فى قلبـى النارىِّ المفتوحِ فإننى ألتمـس العفوَ عنه لِمَا ينطوى عليه مـن وُدٍّ وطنىٍّ صادقٍ، وللغَيْرَةِ الحارَّة الشرعية فى رجلٍ لا يَرَى لنفسه سعادةً غيرَ رؤيته إياكم سعداءَ جميعًا.

ويا أيها الســادةُ المُبَجَّلُون الأجلاءُ الكرامُ أَجِدُنى، مع الاحترامِ البالغِ، خادمَكم ومواطنكم الكثيرَ الخضوعِ والطاعة.

جان جاك روسو

شانبرى، فى ١٢ من يونيه سنة ١٧٥٤

المقدّمة

يَبْدُو لى أن معرفة الإنسان «٢» هى أنفعُ جميع المعارف البشرية وأقلُّها تقدُّمًا، وأجْرُؤ على القول بأن الكتابةَ الوحيدة على معبد دِلْف كانت تشتمل على حُكْمٍ أهمَّ وأصعبَ من جميع كتب علماء الأخلاق الضخمة، وكذلك فإننى أَعُدُّ موضوعَ هذه الرسالة من أكثر المسائل، التى تستطيع الفلسفةُ أن تَعْرِضها، إمتاعًا، ومن أكثر المسائل، التى يستطيعُ الفلاسفةُ أن يَحُلُّوها، صعوبةً ويا للأسف، وذلك لأنه كيف يُعْرَف مصدرُ التفاوت بين الناس إذا لم يُبْدَأْ بمعرفتهم؟ وكيف يأمل الإنسان أن يَرَى نفسَه كما صنعته الطبيعةُ من خِلَال جميع التغيرات التى وَجَب أن يكون تعاقبُ الأزمانِ والأشياءِ قد أحدثها فى نظامه الأصلىّ؟! وكيف يُمْكِنه أن يَميزَ ما هو أساسىٌّ فى طبيعته من التغيرات أو الإضافات التى اتفقت لحاله الابتدائية ناشئةً عن الأحوال والتَّرَقِّيات؟! وتُشابه النفسُ البشريةُ تمثالَ غُلوكُوس الذى بَلَغ من التشويه بفعل الزمن والبحار والعواصف ما صار معه يماثل حيوانًا ضاريًا أكثرَ من أن يماثلَ إلهًا، فغُيِّرت تلك النفسُ فى المجتمع بألفِ علةٍ مُتَجَدِّدة بلا انقطاع وباكتساب طائفةٍ من المعارف والأضاليل، وبتحولاتِ طَرَأت على نظام الأبدان، وبتصادم الأهواء على الدوام، غُيِّرَت فى المَظْهَر ما نُكِّرَت معه تقريبًا، فعاد لا يُرَى فيها غيرُ تناقضٍ مُشَوَّهٍ للهَوَى الذى يَرَى أنه يتعقل، وللإدراك الذى يَغْدُو هَذَيانًا، وذلك بدلًا من كائنٍ يسيرُ دائمًا وَفْقَ مبادئَ ثابتةٍ لا تتحولُ، وبدلًا من تلك البساطةِ العُلْوِية الجليلة التى طبعها بها خالقُها.

ومن أشدِّ الأمور قَسْوةً أيضًا هو أن جميع تَرَقِّياتِ النوع البشرىّ كلما أبعدته من حاله الابتدائية بلا انقطاعٍ جَمَعْنا معارفَ جديدةً، ونَزَعْنا من أنفسنا وسائلَ اكتسابِ ما هو أهمُّ من جميعها، وتلك من بعض الوجوهِ قوةُ دراسةِ الإنسانِ الذى جَعَلْنا معرفته خارجَ طاقتنا.

ومن السهل أن يُدْرَك وجوبُ البحث فى التحولات المتعاقبة التى اعتورت النظامَ البشريَّ، عن الأصل الأول للفروق التى تَميزُ بين الناس المتساوين فيما بينهم بحكم الطبيعةِ كما كانت حيواناتُ كلِّ نوعٍ قَبْلَ أن تُدْخِلَ عللٌ فِزْيَوِيَّةٌ كثيرة إلى بعضها من الاختلافات ما نلاحظه فيها.

والواقعُ أن مما لا يُتَصَوَّر أن يكون جميعُ هذه التحولات الأولى، مهما كانت الوسيلةُ التى وقعت بها، قد غَيَّرت، دفعةً واحدة وعلى نَمَطٍ واحد، جميعَ أفراد النوع، ولكن بما أن بعضهم قد كَمَلَ أو فَسَد، وبما أن بعضهم قد اكتسب صفاتٍ مختلفةً حسنةً أو سيئة، لم تكن ملازمةً لطبيعتهم قَطُّ، فإن الآخرين قد ظلُّوا على حالهم الأصلية زمنًا أكثرَ طولًا، وقد كان هذا مصدرَ التفاوتِ الأولَ بين الناس، هذا التفاوت الذى يَسْهُلُ إثباتُه على العموم هكذا أكثرَ من تعيين علله الحقيقية بالضبط.

ولا يَتَصَوَّرْ قُرَّائى، إذَنْ، أننى أزعم رؤيتى ما تَظْهَر لى رؤيتُه صعبةً جدًّا، فقد بدأتُ ببعض البَرْهَنَات، وقد أتيتُ مُخَاطِرًا ببعض الفَرَضيات، فكنت أقلَّ أملًا فى حَلِّ المُعْضِلةِ من قصدى أن أُلْقِىَ نورًا عليها وأرُدَّها إلى حالها الحقيقية، ويستطيع آخرون أن يسيروا إلى ما هو أبعدُ من هذا فى ذات الطريق، وذلك من غير أن يَسْهُل على أحدٍ وصولُه إلى الحدِّ، وذلك لأنه ليس من الجهود الخفيفة أن يُفَرَّق فى طبيعة الإنسان الحاضرة بين ما هو أصلىٌّ وما هو مصنوع، وأن تُعْرَف جيدًا حالٌ عادت غيرَ موجودة، حالٌ لم توجَدْ قَطُّ على ما يحتمل، حالٌ لن تكون مطلقًا على الراجح، مع أن من الضرورىِّ أن تُكَوَّنَ عنها معارفُ سديدةٌ وصولًا لحُسْنِ الحُكْم فى حالنا الحاضرة، حتى إنه لا بُدَّ من فلسفةٍ أكثرَ مما يَلُوح لذلك الذى يُحاوِلُ أن يُعَيِّن بالضبط ما يجب اتخاذُه من احترازاتٍ للقيام بملاحظاتٍ متينةٍ حَوْلَ هذا الموضوع، ولا يَظْهَرُ لى حَلُّ المُعْضِلة الآتية حَلًّا حسنًا غيرَ جديرٍ بما فى عصرنا من أرسطو وبِلِينى، والمُعْضِلةُ هى: ما التجارب الضرورية للوصول إلى معرفة الرجل الطبيعِىّ، وما وسائلُ القيام بهذه التجارِبِ فى صميم المجتمع؟

وإنى مع بُعْدِى من محاولة حَلِّ هذه المُعْضِلة أرانى قد بلغتُ من التفكير فى الموضوع ما أجْرُؤ معه على الجواب مقدَّمًا بأن أعظم الفلاسفةِ لا يكونون كثيرى الصلاح لتوجيه هذه التجارِب، ولا يكون أقوى الملوك كثيرى الصلاح للقيام بها، أى أن يأتوا بمسابقةٍ ليس من الصواب تَوَقُّعها، لِما تقتضيه من الثبات على الخصوص، وإن شئت فقُلْ من تعاقب الذكاء والوِئام الذى لابُدَّ من تَوَفُّره فى كلا الفريقين لبلوغ النجاح.

وهـذه المباحـثُ التى يَصْعُب القيام بها كثـيرًا، والتى فُكِّر فيها قليلًا جـدًّا حتى الآن، هى، وحدَهـا مـع ذلك، كلُّ مـا بَقِىَ لنا من الوسـائل لإزالة طائفـة من المصاعب التـى تَحْجُبُ عنا معرفةَ الأُسُـسِ الحقيقية للمجتمع البشرىِّ، وهذا الجَهْل لطبيعة الإنسـان هو الذى يُلْقِى كثيرَ ارتيـابٍ وغموضٍ على تعريف الحقـوق الطبيعية الصحيح، وذلك لأن فكـرة الحقوق، وأكثرُ منها فكرةُ الحقوق الطبيعية، هما، كما قال مسـيو بُورْلَامَاكى، فكرتان خاصتان بطبيعة الإنسان كـما هو ظاهر، فمن طبيعة الإنسـان ونظامه وحاله يجب، إِذَنْ، اسـتنباطُ مبـادئِ هذا العلم كما قال ذلك مداومًا.

وليـس مـن غير حـيرةٍ ونُفُورٍ أن نلاحـظ ما بين المؤلفـين الذين عالجوا هـذا الموضوع المهمَّ مـن اتفاق قليل، ولا تـكاد نَجِدُ بين أكثر الكتاب اثنين يكونان عـلى رأيٍ واحدٍ حَوْل هذه النقطـة، وإنى، من غير قَوْلٍ عن قدماء الفلاسـفة الذين لم يألُوا جُهْدًا فى مناقضة بعضهم بعضًا عن عَمْد فى أكثرِ المبادئ جَوْهرًا كما يلوح، أجِدُ فُقَهاء الرومان قد أخضعوا الإنسان والحيواناتِ الأخـرى، بلا تمييـزٍ، لذات القانـون الطبيعىِّ، وذلك لأنهم يَرَوْن تحت هذا الاسـم مـا تَفْرِضه الطبيعـة على نفسـها مـن قانونٍ أكثرَ مـن رؤيتهم القانونَ الـذى تَفْرِضه عـلى الآخرين، أو على الأصـح للاصطلاح الخاصِّ الذى يُـدْرِكُ به هؤلاء الفقهاءُ كلمةَ «القانـون»، هذه الكلمةَ التى يَلُـوح أنهـم لم يتخذوها فى هذه الفرصة إلا للتعبير عن الصلات العامة التى أقامتها الطبيعة بين جميع ذوات الحياة من أجْل بقائها، وبما أن المعاصرين لا يَعْرفون تحت اسـم القانون غيرَ قاعدةٍ مفروضـة عـلى موجودٍ أدبـىٍّ، أى موجودٍ عاقل حُرٍّ مـن حيث صِلَاتُه بالموجـودات الأخرى، فإنهـم يَقْـصِرون اختصاصَ القانـون الطبيعىِّ، من حيـث النتيجةِ، على الحيـوان الوحيد المُزَيَّن بالعقل، أى الإنسان، ومع أن كلَّ واحد منهم يُعَرِّف هذا القانون على شاكلته فإنهم يقيمونه على مبادئَ بالغةٍ من اللاهوتية ما نَجِدُ معه بيننا أناسًا قليلين قادرين على فَهم هذه المبادئ بعيدين من إمكان اكتشـافها بأنفسـهم، وذلك من حيثُ كونُ جَميعِ تعاريفِ هؤلاء العلماء، المتناقضين فيما بينهـم تناقضًا أزليًّا، تَتَّفِق، فقط، على كونه يتعذر على المرء فهمُ قانون الطبيعة، ومن ثَمَّ إطاعتُه،

من غير أن يكون مِحْجَاجًا كبيرًا ولاهوتيًّا عميقًا، ومعنى هذا هو أن الناس قد اضطُرُّوا لإقامة المجتمع إلى بصائرَ لا تَنْشأُ إلَّا بمشقةٍ عظيمة، ولأناسٍ قليلين فى صميم المجتمع نفسه.

وإذا ما عُرِفَت الطبيعة قليلا، وإذا ما كان الاتفاقُ حَوْل معنى كلمة «القانون» سيئًا، فإن من الصعب أن يُجْمَعَ على تعريفٍ حسنٍ للقانون الطبيعىِّ، وإذا عَدَوْتَ ما تنطوى عليه جميعُ التعاريف التى تُوجَد فى الكتب من نقصٍ فى الانسجام وجدتَها تشتمل على خطإٍ آخرَ ناشئ عن اشتقاقها من أنواعٍ للمعرفة مختلفةٍ ليست لدى الناس بحكم الضرورة، ومن فوائد لا يمكنهم تَمَثُّلُ فكرتها إلا بعد خروجهم من حال الطبيعة، وقد بُدِئ بالبحث عن أى القواعد يلائمُ اتفاقَ الناس عليها فى سبيل المصلحة المشتركة، فأُطْلِق اسم القانون الطبيعىِّ على مجموعة من تلك القواعد من دون دليلٍ آخرَ غيرِ النفع الذى ينشأ عن تطبيقها العامِّ، وهذه هى طريقةٌ ملائمةٌ جدًّا لوضع التعاريفِ وإيضاحِ طبيعة الأمورِ بمطابقاتٍ مُرَادِيَّة.

بَيْدَ أننا ما دُمْنا لا نَعْرِف الإنسانَ الطبيعىَّ، كان من العَبَثِ أن نحاول تعيينَ القانون الذى فُرِض عليه أو القانونِ الذى هو أحسن ملاءمةً لنظامه، وكلُّ ما نستطيع أن نُبْصِرَه بوضوحٍ بالغٍ حَوْل موضوع هذا القانون هو ضرورةُ حديثه بصوت الطبيعة من فَوْره ليكون طبيعيًّا، وضرورةُ خضوع مَنْ يُلْزِمه له مع علمه بهذا ليكون قانونًا أيضًا.

ولْنَدَعْ، إذَنْ، جميعَ الكتبِ العلميةِ التى لا تُعَلِّمنا غيرَ رؤية الناس كما صَنَعُوا أنفسَهم، ولْنُنْعِم النظر فى أول أعمال الروح البشرية وأكثرها بساطةً، فأرى أنه يمكننى أن أُبْصِرَ فيها مبدأين سابقين للعقل، فيَخُصُّ أحدُهما بحرارةٍ رفاهيتَنا وبقاءَنا، ويُوحِى الآخرُ إلينا بنفورٍ طبيعىٍّ من مشاهدةِ هلاكِ، أو تَوَجُّعِ، كلِّ كائنٍ حَسَّاس ولا سيما أمثالُنا، فمن الاتفاق والتركيب اللذيْن تَصْنَعُهما نفسُنا من هذين المبدأين، ومن غير أن تكون هنالك ضرورةٌ لإدخال مبدأ الأُنس، يَلُوحُ لى اشتقاقُ جميع قواعد الحقوق الطبيعية، هذه القواعد التى يُضْطَرُّ العقلُ بعدئذٍ إلى إقامتها ثانيةً على أُسُسٍ أخرى عندما ينتهى إلى كَبْت الطبيعة بنُشُوئه المتعاقب.

وهكذا فإننا لسنا مُلْزَمين بأن نجعل من الإنسان فيلسوفًا قبل أن نجعل منه إنسانًا، ولم تُرْسَمْ واجباتُه نحو الآخرين بدروسٍ متأخرة من الحكمة فقط، وهو ما دام لا يقاوم دافعَ الرأفة الباطنيَّ مطلقًا لا يؤذى إنسانًا آخرَ، ولا أيَّ كائنٍ ذى إحساسٍ، أبدًا، وذلك خلا الحالَ الشرعية التى يكون بقاؤه موضعَ عنايةٍ فيها فيكون مضطرًّا إلى تفضيل نفسه، وبهذه الوسيلة تُحْتَم المجادلاتُ القديمة، أيضًا، حَوْل اشتراك الحيوانات فى القانون الطبيعىّ، وذلك لأن من الواضح أنها لا تستطيع معرفةَ هذا القانون لخُلُوّها من الذكاء والحرية، ولكن بما أنها تَمُتُّ إلى طبيعتنا بصلة الإحساس المتصفة به من بعض الوجوه فإنه يُحْكَم بضرورة اشتراكها فى الحقوق الطبيعية أيضًا فيكون الإنسان خاضعًا بنوعٍ من الواجبات نحوها، ويلُوح أن الواقع يقضى بأننى إذا كنتُ مُلْزَمًا بألَّا أصنع أىَّ سوءٍ لمثيلى فذلك لأنه كائنٌ ذو إحساسٍ أكثَرَ من أن يكون ذا عقل، وبما أن صفةَ الإحساس مشتركةٌ بين الحيوان والإنسانِ، فإن من الواجب أن تَمْنَحَ أحدَهما، على الأقلّ، حَقَّ عدم معاملته بسوءٍ من قِبَل الآخر على غير جَدْوَى.

ودراسةُ الإنسان الأصلىّ هذه مع احتياجاته الحقيقية ومبادئِ واجباته الأساسية هى الوسيلةُ الصالحةُ أيضًا التى يُمْكِن استعمالُها لإزالة تلك المشاكل التى تَبْدُو حَوْلَ أصل التفاوت الأدبىّ، وحَوْلَ الأُسُسِ الحقيقية للهيئة السياسية، وحَوْلَ حقوق أعضائها المتبادلة، وحَوْلَ ألفِ مسألةٍ مماثلةٍ أُخرى غامضةٍ بمقدار أهميتها.

وإذا نُظِر إلى المجتمع البشرىّ بعينٍ هادئةٍ خاليةٍ من الغَرَض ظَهَر أنه لا يَدُلُّ فى البُداءة على غير عنف الأقوياء من الناس واضطهاد الضعفاء، وتَنُور النفس على قسوة فريقٍ أو تُحْمَل على الرِّثاء لَعَمى الآخر، وبما أنه لا يوجد بين الناس ما هو أقلُّ ثباتًا من هذه الصلات الخارجية التى تؤدى إليها المصادفةُ أكثرَ مما تؤدى إليها الحكمةُ فى الغالب، والتى تُسَمَّى ضعفًا أو قوةً وغِنًى أو فقرًا، فإن النُّظُمَ البشرية تَلُوح أولَ وهلةٍ قائمةً على كُثْبانٍ من الرمل المتحرك، وليس بغَيْرِ البحث فيها عن كَثَبٍ، وليس بغَيْرِ إبعاد الغُبار والرمل المحيطيْن بالبناء، ما تُرَى القاعدةُ الثابتةُ القائمُ عليها وما يُعْلَم احترامُ أُسُسِه، والواقعُ أنه إذا لم يُبْحَث فى الإنسان وفى خصائصه

الطبيعية ونشوئها المتعاقب بحثًا جِدِّيًا لم يُمكِن إتيانُ هذه التفصيلات، أو أن يُباحَ فى نظام الأمور الحاضر ما صدر عن الإرادة الإلهية مما زَعَم الفنُّ الإنسانىُّ صنعَه، فالمباحثُ السياسية والخُلُقية التى تُوجِبُها المسألة المهمة التى أبحثُ فيها هى مفيدةٌ من جميع الوجوه إذنْ، ويكون تاريخُ الحكوماتِ الافتراضىُّ درسًا ممتعًا للإنسان من جميع النواحى.

وإذا نظرنا إلى ما نصيرُ إليه، عندما نُتْرَك لأنفسنا، وَجَب علينا أن نُعْلَم حَمْدَ ذلك الذى أصلح بيده الكريمة نُظُمَنا، ومَنَّ عليها بقاعدةٍ ثابتة، فتدارك ما كان يَنْشَأ عنها من فوضى وأدَّى إلى سعادتنا بوسائلَ كانت تَغمُر بؤسَنا كما يَلُوح.

«تَعَلَّمْ مَا أَمَرَكَ اللهُ أَنْ تَكُونَ.. وتَعَلَّمْ النَّاحِيَةَ الإِنْسَانِيَّةَ الَّتِى أَنْتَ فِيهَا».

(برسيوس، الأهاجى ٣، ٥، ٧١)

كَلِمَةٌ
حَوْلَ أَصْلِ التَّفَاوُتِ وَأَسَاسِهِ بَيْنَ النَّاسِ

أتكلَّم عن الإنسانِ، وأعْلَمُ من المسألة التى أبحث فيها أننى أُكَلِّمُ الناس، وذلك لأن المسائلَ التى هى من هذا النوع لم يُسْأَل عنها من قِبَل من يخافون تكريمَ الحقيقةِ؛ ولِذَا فإننى أدافع مطمئنًّا عن قضية الإنسانيةِ أمام حكماءَ يَدْعُوننى لأصنعَ هذا، ولا أكونُ غير راضٍ عن نفسى إذا ما جعلتُ نفسى أهلًا لموضوعى، خليقًا بقضاتى.

وأتصوَّرُ وجودَ نوعيْن للتفاوت فى الجنس البشرىّ، فالنوعُ الأول هو ما أدعوه الطبيعىَّ أو الفِزْيوىَّ لأنه من وَضْع الطبيعة، ويقوم على اختلاف الأعمار والصحة وقُوَى البدن وصفات النَّفس أو الروح، والنوعُ الثانى هو ما يُمْكِنُ أن أدعوه التفاوتَ الأدبىَّ أو السياسىّ لتوقفه على ضَرْبٍ من العهد ولقيامه، أو للإذْن فيه على الأقلّ، بتراضى الناس، ويتألف هذا النوع من مختلف الامتيازات التى يتمتع بها بعضُهم إجحافًا بالآخرين كأن يكون أكثرَ من هؤلاء ثَرَاءً أو إكرامًا أو قوةً، أو أن يكون فى وَضعٍ ينتزعُ فيه الطاعة.

ومن العبثِ أن يُسْأَلَ عن مصدر التفاوت الطبيعىّ لوجود الجواب فى تعريف الكلمة البسيط، وأقلُّ من ذلك إمكانُ البحث عن وجود ارتباطٍ جوهرىّ بين التفاوتين، وذلك لأن هذا يَعْنِى، فقط، أن يُسْأَلَ بكلماتٍ أخرى عن كون القابضين على زمام القيادة أفضلَ ممن يُطِيعون بحكم الضرورة، وعن وجود قوة البدن أو الروح، وعن وجود الحكمة أو الفضيلة، فى الأفراد أنفسِهم دائمًا، وعلى نسبة قُوَّتهم أو ثَرائهم، وقد يكون من الخير إثارةُ هذا السؤال بين العبيد على مَسْمعٍ من سادتهم، ولكن مع عدم ملاءمته لأناسٍ من العقلاء والأحرار الذين يبحثون عن الحقيقة.

وما يكون موضوعُ هذه الرسالة بالضبط إذَن؟ يقوم موضوعها على ملاحظتنا فى نشوء الأشياء ذلك الوقتَ الذى يَعْقُب الحقُّ فيه العنفَ وتَخْضَع الطبيعةُ فيه للقانون، وعلى إيضاحنا سياقَ الخوارق الذى أزمع به القويُّ أن يَخْدُم الضعيفَ وأن يشترىَ الشعبُ راحةً خيالية بسعادة حقيقية.

وقد شَعَرَ الفلاسفةُ الذين بَحَثُوا فى أُسُسِ المجتمع بضرورة العَوْد إلى حال الطبيعة، ولكن أحدًا منهم لم يَنْتَه إليها، ولم يتردَّد بعضهم فى عَزْوِهم إلى الإنسان فى هذه الحال فكرةَ العادل وغيرِ العادل من غير أن يكترثوا لإثباتِ كَوْنه قد أُخِذَ بهذه الفكرة، وكونِها نافعةً له أيضًا، وقد تكلَّم آخرون عن الحقوق الطبيعية فيما لكلِّ واحدٍ أن يَحْفَظ ما يَخُصُّه من غير أن يوضحوا ما يَقْصِدون بكلمة «يَخُصُّه»، وأعْطَى آخرون فى البُداءة سلطانًا للأكثرِ قوةً على الأكثر ضعفًا فأوجبوا ولادةَ الحكومة حالًا من غير أن يُفَكِّروا فى الوقت الذى وَجَب انقضاؤه قَبْلَ إمكان وجود معنى كلمتى السلطان والحكومة بين الناس، وأخيرًا تكلَّم الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج والطمع والضغط والرغبة والزهو فنقلوا إلى حال الطبيعة أفكارًا اكتسبوها فى المجتمع، فحدَّثوا عن الإنسان الوحشىّ، ووصفوا الإنسان المدنىّ، حتى إنه لم يَرد خاطر مُعْظَم كتابنا أن يَظُنُّوا وجودَ حال الطبيعة لِمَا يظهر من مطالعة الكتب المقدسة كونُ الإنسان الأول أخذَ عن الله معارفَ وتعاليمَ من فَوْره فلم يكن فى هذه الحال قَطُّ، وأنه إذا ما اعْتُمد على أسفار موسى التى يُعَدُّ كلُّ فيلسوفٍ نصرانىّ مَدينًا لها وجَبَ إنكارُ وجود الناس فى الحال الطبيعية المَحْض حتى قبل الطوفان ما لم يكونوا قد وَقَعوا فيها ثانيةً بفعل بعض الحوادث العجيبة، فهذا الرأىُ الغريب مما يُورِث الدفاعُ عنه ارتباكًا ويتعذر إثباتُه تمامًا.

ولنبدأ بطَرْح جميع الوقائع جانبًا لعدم تناولها المسألة مطلقًا، ولا ينبغى عَدُّ المباحث التى تُتَّخَذ فى معالجة هذا الموضوع من الحقائق التاريخية، بل من البراهين الافتراضية الشَّرْطية الصالحةِ لإلقاء نورٍ على طبيعة الأمور أكثرَ من صلاحها لإثبات أصلها الحقيقىّ والمشابهةِ للبراهين التى يأتيها كلَّ يومٍ طبيعيُّونا حَوْل تكوين العالَم، ويأمرنا الدين بأن نعتقد أن الله ذاتَه إذ أخرج الناس من حال الطبيعة فَوْرَ الخِلْقة فإنهم يكونون متفاوتين لأنه أراد أن يكونوا هكذا،

غير أن الدين لا يمنعنا من وَضْع افتراضاتٍ مستنبطة من طبيعة الإنسان والموجودات المحيطة به فقط، وذلك حَوْل ما كان يُمْكِن أن يَكُونَه الجنسُ البشريُّ لو بَقِيَ متروكًا لنفسه، وهذه هى المسألةُ المعروضةُ علىَّ، وهذا ما أرى درسَه فى هذه الرسالة، وبما أن موضوعى يُهِمُّ الإنسان على العموم فإننى سأحاول انتحال لهجةٍ تلائم جميع الأمم، وإن شئت فَقُلْ بما أننى أَنْسَى الأزمنةَ والأمكنة لكيلا أُفَكِّر فى غير الناس الذين أخاطبهم فإننى أفترض نفسى فى مدرسة أثينة مُكَرِّرًا دروسَ أساتذتى متخذًا أمثالَ أفلاطون وإكْزِينوقراط قضاةً، والنوعَ البشريَّ مستمعًا.

فيا أيها الإنسان، كُنْ من أىِّ بلدٍ شئتَ، ولتكن آراؤك كما أردتَ، واسْتَمِعْ، فهذا هو تاريخك كما أرى قراءَتَه، لا فى كُتُب أمثالك الذين هم كاذبون، بل فى الطبيعة التى لا تَكْذِب مطلقًا، وكلُّ ما يأتى من الطبيعة يكون صادقًا، ولن تَجِدَ ما هو كاذبٌ غيرَ ما أَضَعُه من عندى بلا قَصْد، والأزمنةُ التى أتكلم عنها بعيدةٌ إلى الغاية، وما أكثرَ ما غَيَّرْتَ ما كنتَ عليه! ولذلك فإن حياة نوعك هى التى أَصِفُها لك وَفْقَ الصفات التى نِلْتَها والتى استطاعت تربيتُك وعاداتُك إفسادَها، ولكن من غيرِ أن تَقْدِرَ على محوها، ويوجد، كما أُحِسُّ، جِيلٌ يَرْغبُ الفردُ أن يَقِف عنده، وأنت تَبْحَث عن الجيل الذى تَوَدُّ وقوفَ نوعك عنده، وبما أنك ساخطٌ على حالك الحاضرة لأسبابٍ تُنْذِر عَقِبَك التَّعِسَ بأعظم كَدَرٍ فإنك تريد القدرةَ على العود إلى الوراءِ على ما يحتمل، فيجب أن يكون هذا الشعورُ ثناءً على أجدادك الأولين وانتقادًا لمعاصريك وهَوْلًا لَمَنْ يُكْتَب لهم شقاءُ الحياة بعدك.

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

لا أَتَتَبَّع نظامَ حالِ الإنسان الطبيعية من خِلَال نشوئها المتعاقب مهما كان من المهمِّ أن يُنْظَر إليها منذ أصلها، أى فى الجَنِينِ الأول للنوع، وذلك للحُكْم جَيِّدًا فى تلك الحال، ولا أَقِف عند حَدِّ البحث فى النظام الحيوانىِّ عما يُمْكن أن يَكُونَه هذا النظامُ فى البُداءة ليُصْبِحَ ما هو عليه فى آخر الأمر، فلا أسأل، كما يَرَى أرسطو، هل كانت أظافرُه الطويلة مخالبَ عُقْفًا فى أول الأمر، وهل كان أَشْعَرَ كالدُّبِّ، أوْ كان، وهو يَمْشى على أربعِ أرجلٍ «٣»، لا يلاحظ بأنظاره المتجهةِ نحو الأرض، والمقصورةِ على أُفُقِ بِضْعِ خُطُواتٍ، طبيعةَ أفكاره وحدودَها معًا، ولا أستطيع أن أُكَوِّن حَوْلَ هذا الموضوع غيرَ افتراضاتٍ مبهمةٍ، خيالية تقريبًا، ولم يتفق لعلم التشريح المقارَن غيرُ تقدمٍ قليل، ولا تزال ملاحظاتُ الطبيعيين غيرَ ثابتة، فلا يُمْكِن أن تُقَام على مِثْل هذه الأُسس قاعدةُ استدلالٍ متين، وهكذا، ومن غير رجوعٍ إلى المعارف الخارقة للطبيعة التى هى لدينا حَوْل هذه النقطة، ومن غير نظرٍ إلى التحولات التى لا بُدَّ من حدوثها فى تكوين الإنسان داخلًا وخارجًا ما طَبَّق أعضاءَه على منافعَ جديدةٍ، وتَغَذَّى بأطعمة جديدة، أفترض هذا التكوينَ فى كلِّ زمنٍ كما هو عليه اليوم، وذلك أنه سار فى كلِّ وقت على رجلين، واستعمل يديه كما نَصْنَع بأرجلنا وأيدينا، وأنه وَجَّه أنظاره إلى جميع الطبيعة وقاسَ السماءَ الواسعة بعينيه.

وإذا ما جُرِّد هذا الكائنُ الذى كُوِّن هكذا من جميع المواهب الخارقة للعادة التى استطاع نَيْلَها، ومن جميع الخصائص المصنوعة التى لم يَقْدِر على اكتسابها إلَّا بنشوءٍ طويل، والخلاصةُ أنه إذا ما نُظِرَ إليه كما وَجَب أن يكُون حين خروجه من أيدى الطبيعة، رأيتُ حيوانًا أقلَّ قوةٍ من بعضهم وأقلَّ نشاطًا من الآخرين، ولكن مع كونه أحسنَ من الجميع نظامًا إذا ما نُظِرَ إليه من كلِّ وجهٍ، فأراه يَشْبَع تحت بَلُّوطةٍ، ويَرْتَوِى من أولِ جدولٍ، ويَجِدُ فراشه تحت ذات الشجرة التى أَمَدَّته بطعامه، وهكذا تكون حاجاتُه قد قُضِيَتْ.

وفى كلِّ خُطوةٍ تُقَدِّم الأرضُ المتروكةُ لِخِصْبِها الطبيعىِّ «٤»، والمستورةُ بغاباتٍ واسعةٍ لم تَقْطَعها القَدُوم قَطُّ، مستودعاتٍ وملاجئَ للحيوانات من كلِّ نوعٍ، ويلاحِظ الناس المُفَرَّقون بينها صُنْعَها، ويقتبسونه، ويَبْلُغون حتى غريزةِ الحيوانات، وذلك مع النفع القائل بأنه إذْ لم يكن لكلِّ نوع غيرُ غريزته الخاصة، وبأنه إذْ لم يَكُنْ للإنسان غريزةٌ خاصةٌ على ما يحتمل، فإن

الإنسان يَخْتصُّ بالغرائز كلِّها، فيغتذى على السواء بمُعْظَم الأغذية «٥» التى تقتسمها الحيواناتُ الأخرى، ويَجِدُ قُوتَه بأسهلَ مما يستطيعه أىُّ واحدٍ منها.

وإذ تَعَوَّدَ الناسُ منذ صِبَاهم عدمَ اعتدال الفصول وشِدَّتَها، وإذْ تَمَرَّنُوا على التعب واضْطُروا إلى الدفاع عن حياتهم وصَيْدِهم عُرَاةً عُزْلًا، وذلك ضِدَّ الضوارى والكَوَاسِر، أو فِرارًا من غاراتها، فإنهم يكتسبون جِبِلَّةً قوية، ثابتةً تقريبًا، فيَجْلِبُ الأولادُ إلى العالَمِ بُنْيةَ آبائهم الرائعةَ ويُقَوونها بذات التمرينات التى أدت إليها، وهكذا ينالون كلَّ ما يستطيعه النوعُ البشرىُّ من متانة، وهكذا تعاملهم الطبيعةُ كما كان قانون إسبارطة يعامل أولادَ المواطنين، فتَجْعَل من هم حَسَنُو البُنْيَةِ أقوياءَ أشداء، وتُهْلِك جميعَ الآخرين، وهى فى ذلك على خِلاف مجتمعاتنا التى تَجْعَل الدولةُ فيها الأولادَ عبئًا على الآباء فتقتلهم قبل وِلادتهم بلا تمييز.

وبما أن بَدَنَ الإنسان الوحشىِّ هو الآلةُ الوحيدة التى يَعْرِفها فإنه يستعمله لأغراضٍ مختلفة تَعْجِزُ عنها أغراضُنا لعدم الممارسة، وصِناعتُنا هى التى تُحْرِمُنا البأسَ والنشاطَ اللذين تُكْرِه الضرورةُ الإنسانَ على اكتسابهما، ولو كانت لديه فأسٌ فهل كان زَنْدُه يقطع غُصُونًا قويةً جِدًّا؟ ولو كان لديه مِقْلَاعٌ فهل كان يَرْمِى بيده حجرًا بشِدَّةٍ بالغة؟ ولو كانت عنده سُلَّمٌ فهل كان يَنْمُل[1] فى شجرةٍ بمثل تلك الخفة؟ ولو كان عنده حِصانٌ فهل كان يركض بمثل تلك السرعة؟ دَعُوا للإنسان المتمدن من الوقت ما يَجْمَعُ فيه جميعَ هذه الآلاتِ حَوْلَه فإنه يَقْهَر الرجل الوحشىَّ بسهولةٍ لا رَيْب، ولكنكم إذا ما أردتم أن تَرَوْا بِرَازًا، أكثرَ تفاوتًا فاجعلوهما يتقابلان عاريين أعْزلين، فهنالك لا تَلْبَثُون أن تَعْرِفوا فائدةَ تَصَرُّفِ الإنسان فى جميع قُوَاه بلا انقطاع، وفائدةَ استعدادِه لكل حادث على الدوام، أى كافيًا نفسَه نحوَ واحدٍ فى كلِّ حين «٦».

ويَزْعُم هُوبْزُ أن الإنسان جسورٌ بحكم الطبيعة، وهو لا يحاول غيرَ الهجوم والقتال، والعكسُ ما يراه فيلسوفٌ مشهورٌ آخر، وذلك يُؤَكِّدُ كُونْبِرْلَانْد وُبوفِنْدُرْف كونَه لا شىءَ أخوفُ من الإنسان فى الحال الطبيعية، فهو يرتجف ويستعدُّ للفرار دائمًا عند أقلِّ صوتٍ يَقْرَعه

(١) نمل فى الشجر: صعد.

وأقلِّ حركة يِشْعُر بها، وقد يكون هذا تِجاه الأشياء التى لا يَعْرِفها، ولا أشكُّ مطلقًا فى خوفه من جميع المناظر الجديدة التى تَعْرِض له فى كلِّ مرة لا يستطيع أن يُفَرِّق فيها بين الخير والشَّرِّ الطبيعيين اللذين يجب أن ينتظرهما منها، ولا أن يقابل بين قُوَاه والأخطار التى تُلَاقيه، وهذه الأحوالُ نادرة فى الحال الطبيعية، حيث يسير كلُّ شىء بالغَ النمطية، وحيث لا يكون وجهُ الأرض خاضعًا مطلقًا لتلك التحولات المفاجئة الدائمة التى توجبها هنالك أهواءُ الشعوب المتحدة وتقلبُها، ولكن بما أن الإنسان الوحشىَّ يعيش متفرقًا بين الحيوانات ويَجِدُ نفسه باكرًا فى حالٍ يَقِيسُ نفسَه بها فإنه لا يُعَنِّم أن يقوم بهذه المقايسة، وهو إذْ يُحِسُّ أنه يَفُوقها حيلةً أكثرَ من فَوْقها إياه قوةً فإنه يتعلم ألَّا يخشاها بَعْدُ، وضَعُوا دُبًّا أو ذِئْبًا أمام وحشىٍّ قوىٍّ نشيط جسور، كما عليه الجميع، مسلَّحٍ بحجارة وهِرَاوةٍ جيدة، تَرَوْا كونَ الخطر متقابلًا على الأقلّ، وكونَ الحيواناتِ المفترسة التى لا تُحِبُّ مهاجمةَ بعضها بعضًا مطلقًا، قليلةَ الرغبة فى مهاجمة الإنسان الذى تَجِدُه مفترسًا مثلَها، وأما من حيث الحيواناتُ التى لها من القوة فى الحقيقة ما هو أكثر من حيلة الإنسان فإن الإنسان يكون تِجاهها فى ذات الوضع الذى تكون عليه الأنواعُ الأخرى الأضعفُ منها والقادرةُ على البقاء مع ذلك، وذلك مع قدرة الإنسان على اتخاذ ملجأٍ وتركه عند المقابلة، ومع خياره فى الفِرار أو القتال عند المقابلة فى كل مكان، فضلًا عن استعداده للركض مثلها وعثورِه على ملجأٍ أمين فى الشجرة تقريبًا، وإلى هذا أضِفْ كونَه لا يُوجَد، كما يَظْهَر، حيوانٌ يَشْهَر الحرب على الإنسان عن طبيعةٍ، خَلَا الحالَ التى يكون فيها مدافعًا عن نفسه أو التى يكون فيها جائعًا إلى الغاية، وكونَه لا يُبْدِى له تلك الكَرَاهية التى تُنْذِر، كما يَلُوح، بأن أحد الأنواع مُعَدٌّ ليكون، عن طبيعةٍ، طعامًا لنوع آخر.

وهذه، لا رَيْبَ، هى الأسبابُ فى كَوْنِ الزنوجِ والهَمَج لا يخافون الحيواناتِ المفترسةَ التى يُمْكِن أن يلاقُوها فى الغاب، ويعيش كَرَايِبُ فنيزُويلَّا بين أخرى من هذه الناحية فى أمانٍ مطلق ومن غير أدنى محذور، وهم، وإن كانوا عُرَاةً جميعًا تقريبًا، على رواية فَرنْسوَا كُورِّيَال، يَعْرِضُون أنفسَهم فى الغاب من غير احترازٍ مسلَّحين بقوس وسَهْم، بَيْدَ أنه لم يُسْمَعْ قَطُّ افتراسُ الضوارى لأحدٍ منهم.

وهنالك أعداءٌ آخرون أشدُّ هَوْلًا، فليس لدى الإنسان ذاتُ الوسائل للدفاع تجاههم، وهؤلاء الأعداء هم: الأسقامُ الطبيعية للطفولةِ والهَرَمُ والأمراضُ من كلِّ نوع، أى هذه العلاماتُ الكئيبة لضعفنا والتى تُعَدُّ الأُولَيَان منها مشتركتين بين جميع الحيوانات والتى تُعَدُّ الأخيرة منها خاصةً بالإنسان الذى يعيش فى المجتمع، حتى إننى ألاحظ، فى موضوع الطفولة، أن للأُم، إذ تَحْمِل ولدَها معها حيثما كانت، من سهولةِ تغذيته ما ليس لإناثِ كثيرٍ من الحيوانات التى تُضْطَرُّ إلى الذهاب والإياب بلا انقطاع مع كثيرٍ من التعب بحثًا عن غذائها من ناحيةٍ وإرضاعًا أو إطعامًا لصغارها من ناحية أُخرى، أَجَلْ، إن من الحقيقة أن المرأة إذا هَلَكت حاق بالولد خَطَرُ الهلاك معها كثيرًا، غير أن هذا الخَطَر مشتركٌ بين مائة من الأنواع الأخرى التى لا يكون صغارها من الحال ما تَبْحَث معه عن غذائها بنفسها، وإذا كان دَوْرُ الطفولة أكثرَ طولًا بيننا، كانت الحياةُ أكثرَ طولًا أيضًا، وتَسَاوَى كلُّ شىء من هذه الناحية تقريبًا «٧»، وإن وُجِدَت حَوْلَ مدة الدَّوْر الأول وحَوْل عدد الصِّغار «٨» قواعدُ أُخرى ليست من موضوعى، ويكون الناس فى المَشِيب أقلَّ حركة وعَرَقًا فَتَقِلُّ الحاجة إلى الطعام مع القدرة على تداركه، وكما أن الحياة الوحشية تُبْعِدُ النُّفْرِس والرَّثْيَةَ منهم، وكما أن المَشِيبَ هو من جميع الأمراض ذلك الذى يكون أقلَّ ما يُمْكن العَوْن الإنسانَ أن يُخَفِّفَه، تراهم يَزُولون فى آخر الأمر من غير أن يَشْعُرَ الآخرون بذلك، ومن غير أن يَشْعُروا هم أَنفسُهم بذلك.

وأما من حيث الأمراضُ فإننى لا أُكَرِّرُ مطلقًا ما يقوم به مُعْظَم الأصحَّاء من تصريحاتٍ فارغةٍ باطلة ضِدَّ الطبِّ، ولكننى أسأل: هل تُوجَدُ مشاهداتٌ متينة يُمْكِن أن يُسْتَنْبَط منها كونُ الحياة المتوسطة فى البلدان التى يكون فيها فنُّ الطبِّ أكثرَ الأمور إهمالًا أقصرَ مما فى أكثر البلدان عنايةً به؟ وكيف يُمْكن هذا أن يكون إذا كنا نَجْلِبُ لأنفسنا من الأمراض ما لا يستطيع الطبُّ أن يُجهِّزنا بأدويته؟!

إن التفاوت المتناهى فى طراز الحياة، وفرطَ البِطالة فى أُناسٍ، وفرطَ العمل فى الآخرين، وسهولةَ تهييج شَهَوَاتنا وملاذِّنا، والأطعمةَ المُبْتَغاةَ كثيرًا من قِبَل الأغنياء فتغذيهم بالعُصَارات المسببة للحرارة وتُرْهقُهم بسوءِ الهضم، وأغذيةَ الفقراء السيئةَ التى تُعْوِزهم فى الغالب أيضًا

والتى يَحْمِلُهم عدمُها إلى إثقال مِعْدَتِهم بشَرَهٍ عندما تَلُوح الفُرْصة، والسَّهَرَاتِ، وأنواعَ الدَّعارات، وعدمَ الاعتدال فى تبادل ضروب الأهواء، ومتاعبَ النفس وضَنَاها، وما لا يُحْصَى له عَدٌّ من الكُرُوب والرَّزايا التى يُشْعَرُ بها فى جميع الأحوال، والتى تَضْعفُ بها النفوس ضَعْفًا مستمرًّا، دلائلُ مشؤومةٌ على كَوْنِ مُعْظَم أمراضنا من صنعنا الخاصّ، فكان يُمْكِننا اجتنابُ جميعها تقريبًا بمحافظتنا على طِراز العيشِ البسيطِ النَّمَطِيِّ الانفرادىِّ الذى كانت الطبيعة قد فرضته علينا، وإذا كانت الطبيعة قد أَعَدَّتنا لنكون أصحاءَ فإننى أَجْرُؤ على القول بأن حال التفكير مناقضةٌ للطبيعة، وأن الإنسان الذى يُفَكِّر حيوانٌ فاسد، وإذا ما نُظِرَ فى نظام الهَمَج الصالح، نظامِ هؤلاء الذين لم نُضَيِّعهم بمشروباتنا الروحية، وإذا ما عُلِمَ أنهم لا يَعْرِفون من الأمراض غيرَ الجروحِ والمَشيبِ تقريبًا، حُمِلَ على الاعتقاد بأن من السهل وَضْعَ تاريخٍ للأمراض البشرية بتتبع تاريخِ المجتمعات المدنية، وهذا هو، على الأقلّ، رأىُ أفلاطونَ الذى استنتج من أدويةٍ اسْتُعْملت أو اسْتُحْسِنت من قِبَل بُودَالِيرْيوس ومَكَاوُن فى أثناء حصار تِرْوَادة كونَ كثيرٍ من الأمراض التى أثارتها هذه الأدوية لم تكن معروفةً بين الناسِ، ويروى سِلْسُوسُ كونَ الحِمْية الضرورية جِدًّا فى الوقت الحاضر قد اخْتُرِعت من قِبَلِ بقراط.

وبما أن الإنسان خاضعٌ لقليلٍ من عِلَلِ الأمراض فى حال الطبيعة فإنه لا يكون محتاجًا إلى عِلاجاتٍ إذَنْ، وأقلُّ من ذلك احتياجُه إلى أطباءَ، ولا يكون النوعُ البشرىُّ أسوأ من جميع الحيوانات الأخرى فى هذه الناحية، ومن السهل أن يُعْرَف من الصائدين عن مصادفتهم حيواناتٍ عليلةً كثيرةً فى أثناء صَيْدهم أولا، وكثيرٌ من الصائدين مَنْ يَجِدون بين طرائدهم حيواناتٍ أُصيبت بجروحٍ بليغة فانْدَملت جيدًا، وحيواناتٍ كُسِرَت فيها عظامٌ، أو قُطِعَتْ فيها أعضاءٌ، فعادت إلى حالها من غير أن يكون لها جِرَاحىٌّ سوى الزمن، ومن غير أن تتخذ من النظام سوى حياتها العادية فَشُفيتْ تمامًا من دون أن تُؤلَم بِبَضْعٍ، أو أن تُسَمَّ بعَقَاقيرَ، أو أن تُنْحَل بصيام، ثم مهما يُمْكِن أن يكون للطبِّ الحَسَنِ العِلاجِ بيننا من فائدةٍ فإن من الثابت دائمًا أنه ليس لدى الهمجىّ المريض المتروكِ لنفسه ما يأمُلُهُ من غير الطبيعة، وأنه ليس لديه ما يخشاه مقابلةً من غير مرضه، وهذا يَجْعَله فى وضعٍ أفضلَ من وَضْعنا غالبًا.

ولنحترزْ، إذَنْ، من خَلْط الإنسان الوحشىِّ بمَنْ نراهم تحت عيوننا من الناس، فالطبيعةُ تعامل جميع الحيوانات المتروكةِ لعنايتها باستحبابٍ يَدُلُّ، كما يَلُوح، على درجة اغتباطها بهذا الحق، فللفَرَس والهِرِّ والثَّوْر، وللحمار أيضًا، فى الغالب، قَوامٌ أكثرُ علوًّا، وبُنْيةٌ أشدُّ قوةً ومتانةً وجَلَدًا وبأسًا فى الغابات مما فى بيوتنا، وذلك أنها تفْقِد نصفَ هذه المزايا عندما تُصْبح أهليةً، فيُمْكن أن يقال إن كلَّ اعتناءٍ فى حسن معاملة هذه الحيوانات وتغذيتها لا يؤدى إلى غير إفسادها، وقُلْ مثلَ هذا عن الإنسان، وذلك أنه عندما يصبح أنيسًا وعبدًا يَصير ضعيفًا جبانًا ذليلًا، ومن شأن طِراز عيشه الرَّغِيد المُخَنَّث أن يُوهِن قُوَّتَهُ وشجاعته، ولْنُضِفْ إلى هذا وجودَ فرقٍ بين الرجل الوحشىِّ والرجل المتمدن أكثرَ مما بين الحيوان الوحشىِّ والحيوان الأهلىِّ، وذلك بما أن الطبيعة تعامل الإنسانَ والحيوانَ على السَّواء فإن ما يَمْنحه الإنسانُ نفسَه من رغَدٍ أكثرَ مما يَمنَحُه الحيواناتِ التى يؤَنِّسُها يُعَدُّ أسبابًا خاصةً فى انحطاطه أكثرَ من انحطاطها.

إذَن، ليس من شقاء هؤلاء الناسِ الأولين البالغِ، وليس من العوائق العظيمة فى بقائهم على الخصوص، أن يكونوا عُراةً، عاطلين من المأوى، محرومين جميعِ تلك الزوائد التى نعتقد أنها ضروريةٌ جدًّا، وإذا لم يكونوا ذوى جُلُودِ شُعْرٍ فلعدم احتياجهم إليها فى البلاد الحارة، وهم لا يَلبَثُون أن يَعرِفوا فى البلاد الباردة اتخاذَ جلود الحيوانات التى غَلَبُوها، وإذا لم يكن لهم غيرُ رِجلين للركض، فإن لهم ذراعين للدفاع عن أنفسهم وتدارك احتياجاتهم، ومن المحتمل أن يتأخر مشىُ أولادهم، وأن يتعلموا المشىَ بمشقة، غير أن أُمهاتهم يَحْمِلْنَهم بسهولة، أى يَقُمْنَ بهذه المزية التى تُعْوِز الأنواعَ الأخرى؛ حيث تُضْطَرُّ الأمُّ عندما تُتَبِع أن تَتْرُك صغارَها أو أن تسير على خُطُواتها، ثم إن من الواضح فى كلِّ حالٍ أن الأول الذى يصنع لنفسه ثيابًا أو أقام مسكنًا يكون قد اتخذ لنفسه أشياءَ ضروريةً قليلًا، ما دام قد استغنى عنها حتى ذلك الحين ولم يُبْصَر السببُ الذى لم يستطع به كإنسانٍ كاملٍ أن يحتمل حياةً صَبَر عليها منذ طفولته، وذلك ما لم يَتَحَمَّل تسابقَ الأحوالِ الغريبَ العَرَضىَّ الذى سأتكلم عنه فيما بعد، والذى يُمْكِن أنه لم يَحْدُثْ قَطُّ.

وعلى الإنسان الوحشيِّ المنفرد البَطَّالِ والقريب من الخَطَر دائمًا أن يُحِبَّ النوم، وأن يكون نومُه خفيفًا، كالحيوانات القليلة التفكير فتنام كلَّ الوقت الذى لا تُفَكِّر فيه مطلقًا، وبما أن بقاءَه الخاصَّ هو مدارُ عنايته الوحيدة فإنه يجب أن يكون أكثرُ خصائصه عَمَلًا ما كان الدفاع والهجوم غَرَضَه الرئيس، وذلك قَهْرًا لقنيصته، أو ضمانًا لعدم كونه قنيصةَ حيوانٍ آخرَ، وعلى العكس يجب أن تبقى الأعضاء التى لا تتكامل إلا بالنعومة والحِسِّيَّة فى حالٍ من الغِلْظة ما يُبْعِد كلَّ نوع من الدقة فيه، وبما أن حواسَّه تكون مُقَسَّمَةً من هذه الناحية فإن اللمس والذوق يكونان غايةً فى الغِلْظة، ويكون نظرُه وسمعُه وشَمُّه غايةً فى الدقة، وهذه هى حال الحيوان على العموم، وهذه هى، أيضًا، حالُ الشعوب الوحشية كما يَرْوِى السُّيَّاح، وهكذا لا ينبغى أن يُعْجَب من كون هُو تِنتُو رأسِ الرجاء الصالح يكتشفون بالنظر المُجَرَّد سُفُنًا فى البحر من بُعْدٍ لا يراها الهولنديون فيه إلَّا بنظَّارات، ولا من وحوش أمريكة الذين يَشُمُّون الإنسانَ من أثر القَدَم كما يستطيع صنعَه أحسنُ الكلاب، ولا من احتمال أمم البرابرة عُرْيَهم من غير مشقة، ومن شَحْذِ ذوقهم بقوة الفلفل الأحمر، ومن شربهم المسكراتِ الأوربيةَ كالماء.

ولم أَنْظُر إلى غير الإنسان الطبيعىِّ حتى الآن، فلنُحَاوِل أن ننظر إليه الآن من ناحية ما بعد الطبيعة ومن الناحية الأدبية.

ولا أبصر فى كلِّ حيوانٍ غيرَ آلةٍ مُحْكَمة منحتها الطبيعة حواسَّ لتَدُور بنفسها ولتَضْمن نفسها، إلى درجةٍ ما، تجاه كلِّ ما يُمْكِن أن يُقَوِّضها أو يُخِلَّ بها، وأُبْصِر بالضبط ذاتَ الأشياءِ فى الآلة البشرية مع الفرق القائل إن الطبيعةَ وحدَها هى التى تَصْنَع كلَّ شىء فى أفعال الحيوان بدلًا من قيام الإنسان بأفعاله عاملًا حُرًّا، وتختار إحدى الآلتين أو تَطْرَح عن غريزةٍ، وتختارُ الآلة الأخرى أو تَطرَح عن عمل حرٍّ، ومن ثَمَّ لا يستطيع الحيوان أن ينحرف عن القاعدة المفروضة عليه وإن كان له نَفْعٌ فى هذا الانحراف، والإنسانُ يَنْحَرف عن مثل هذه القواعد فى غير مصلحته، وهكذا فإن حمامةً تموت جوعًا بجانب طَبَقٍ مملوءٍ بأطيب اللحوم، ويموت هِرٌّ على كُدْسٍ من الفواكه أو الحبوب، وإن استطاع كلٌّ منهما أن يتغذَّى جيدًا من الطعام الذى يزدريه إذا ما خطر بباله أن يحاول ذلك، وهكذا فإن الناس الفاسقين ينهمكون فى الملاذِّ التى

تُوقِعهم فى الحُمَّى والموت، وذلك لأن النفْس تُفْسِد الحواس ولأن الإرادة تتكلم حينما تَسْكت الطبيعة.

ولكلِّ حيوانٍ أفكارٌ ما دام يُوجَد له حواسٌّ، حتى إنه يَخْلِط بين أفكاره إلى حدٍّ ما، ولا يختلف الإنسان عن الحيوان من هذه الناحية إلَّا إلى حَدٍّ ما، حتى إن بعض الفلاسفة ذهبوا إلى وجود فَرْقٍ بين هذا الإنسان وذاك الإنسان أعظمَ مما بين هذا الإنسان وذاك الحيوان، ولذلك ليس الإدراك هو الذى يَجْعَل الفرقَ النوعىَّ بين الإنسان والحيوان بمقدار العامِل الحُرّ فى الإنسان، والطبيعةُ تَقُود كلَّ حيوان، والحيوانُ يُطِيعها، والإنسانُ يَبْتَلِى ذات العامل، ولكن مع علمه بأنه حُرٌّ فى الإذعان أو المقاومة، وفى شعوره بهذه الحرية تَبْدُو روحيةُ نَفْسِه، وذلك أن الحكمة الطبيعية تُوضِّحُ من بعض الوجوه نظامَ الحواسِّ، وتكوينَ الأفكار، ولكنه لا يوجد فى قوة الإرادة، وإن شئت فَقُلْ فى قدرة الاختيار، ولا يوجد فى الشعور بهذه القدرة، غيرُ أفعالٍ روحية خالصة لا يُمْكِن أن يُفَسَّر منها شىءٌ بقوانين الميكانيك.

ولكنْ إذا كانت المصاعب التى تحيط بجميع هذه المسائل تترك مجالًا للجَدَل حَوْلَ هذا الفرقِ بين الإنسان والحيوان فإنه تُوجَد صفةٌ أخرى بالغةُ النَّوْعية تُفَرِّق بينهما ولا يُمْكِن أن يكون جدالٌ حَوْلَها، وهذه هى خاصِّيَّةُ التكامل، هذه الخاصيةُ التى تُنْمِى جميعَ الخصائص الأخرى تتابعًا بفعل الأحوال، وتَكْمُن فى النوع كما تَكْمُن فى الفرد بيننا، وذلك بدلًا من حال الحيوان الذى يَبْقَى مَدَى حياته ما كان عليه فى نهاية بضعة أشهرٍ من سِنّه، ومن حال جنسه فى نهاية ألف سنةٍ ما كان عليه فى السنة الأولى منها، ولِمَ يكون الإنسان وحدَه هدفًا للسخافة؟ أليس ذلك لأن الإنسان يَعُود إلى حالته الأولى على هذا الوجه، ولأن الإنسانَ الذى يَخْسَرُ عن مَشِيبٍ أو حوادثَ أخرى كلَّ ما ناله باستعداده للكمال يَسْقُط إلى ما هو أحطُّ من الحيوان نفسه مع أن الحيوان الذى لم يكتسب شيئًا ولم يَخْسَرْ شيئًا يبقى محافظًا على قوة غريزته؟ إن من عوامل الغَمِّ فينا أن نُضْطَرَّ إلى الاعتراف بأن هذه الخاصِّيَّةَ الفارقةَ وغيرَ المحدودةِ تقريبًا هى مصدرُ جميع رَزَايا الإنسان، وأنها هى التى تُخْرِجه بفعل الزمن من تلك الحال الأصلية التى يقضى فيها أيامًا هادئةً بريئة، وأنها هى التى تُبْرز مع القرون معارفَه وأضاليلَه وعيوبَه وفضائله فتجعله مع

الزمن طاغيةَ نفسه وطاغية الطبيعة «٩»، ومن الفظاعة أن يُضْطَرَّ المرءُ أن يَمْدَح كمحسنٍ ذلك الـذى كان أولَ من أوحى إلى أهل ضِفَاف الأُورِنُوك باستخدام الألواح على أصداغ أولادهم فتَضْمَنُ لهم قسمًا من سخافتهم وسعادتهم الأصلية على الأقل.

وبالوظائف الحيوانية الصِّرْفة «١٠»، إذَنْ، يَبْدَأ الإنسانُ الهمجيُّ الذى تَكِلُه الطبيعةُ إلى الغريزة وحدَها، أو تُعَوِّضه، على الصحيح، مما يَعْوِزُه على ما يحتمل، بخصائصَ صالحةٍ لتقوم مقامها فى البُداءة، ولتَرْفَعه فوقها كثيرًا فيما بعد، وتَقُوم على المشاهدة والشعور حالُه الأولى التى تكون مشتركةً بينه وبين جميع الحيوانات، وتكون الإرادةُ وعدمُ الإرادة والرغبةُ والرَّهبةُ أُولَى أعمالِ نفسِه، وتكون هذه الأعمال وحدَها تقريبًا، وذلك حتى تؤدِّىَ أحوالٌ أخرى إلى نشوءِ جديد من خصائصه.

ومهما يَقُلْ علماءُ الأخلاق يُعَدُّ الإدراكُ البشرىُّ مَدِينًا كثيرًا للأهواء التى هى مدينةٌ كثيرًا لهذا الإدراك أيضًا، كما يُسَلَّم به على العموم، وذلك أن عقلنا يتكامل بفاعلية الأهواء، وذلك أننا لا نبحث عن المعرفة إلَّا لأننا نرغب فى الاستمتاع، فيتعذر علينا أن نتمثل السبب فى كون الذى لا رغائب ولا مخاوفَ عنده يتكبَّد مشقةَ التعقل، والأهواءُ بِدَوْرِها نَجِدُ أصلها فى احتياجاتنا، ونَجِدُ نشوءَها فى معارفنا، وذلك لأنه لا يُمْكِن أن يُرْغَبَ فى الأشياء أو أن تُخْشَى الأشياء إلَّا للأفكار التى يُمْكِن أن تدور حَوْلَها، أو لاندفاعِ الطبيعة، وإذ إن الإنسان الوحشىَّ محرومٌ كلَّ نوع من الذكاء فإنه لا يَبْتَلِى غيرَ أهواء هذا النوع الأخير، ولا تَعْدُو رغائبُه حدَّ احتياجاته الطبيعية «١١»، وكلُّ ما يَعْرِفه فى الكَوْن هو الغذاءُ والأنثى والنوم، وكلُّ ما يخافه من الشرور هو الألم والجوع، وأقول الألمُ، لا الموت، لأن الحيوان لا يَعْرِف ما الموتُ مطلقًا، فمعرفةُ الموت وأهوالِه هى من أول ما اكتسبه الإنسان بابتعاده عن الحال الحيوانية.

ويَسْهُل علىَّ، عند الاقتضاء، أن أؤيِّد هذا الشعور بالوقائع فأثبتَ أن تقدم النفس لدى جميع أمم العالم يتناسب وما أخذته الشعوبُ عن الطبيعة من الاحتياجات أو التى جعلتها الأحوالُ خاضعةً لها، ومن ثَمَّ يتناسب والأهواء التى حَمَلْتها على قضاء هذه الاحتياجات، وإنى إذ أُبَيِّن أن الفنون تُولَد وتنتشر فى مصرَ مع فيضان النيل أتتبع تقدمَها عند الأغارقة حيث رُئِىَ

نَبْتُها ونموُّها ونهوضها حتى السماواتِ بين رمال الأتيك وصَخْرِه من غير أن تستطيع التأصُّلَ على ضِفَاف الأورُوتاسِ الخصيبةِ، فألاحظ أن شعوبَ الشمال أكثرُ جِدًّا من شعوب الجنوب على العموم، وذلك لأنها أقلُّ استغناءً من أن تكون هكذا، وذلك كما لو كانت الطبيعة تودُّ أن تساوىَ بين الأشياء بأن تَمْنَح النفوس من الخِصْب ما تأباه على الأرض.

ولكن من ذا الذى لا يَرَى، من غير رجوعٍ إلى أدلة التاريخ المتقلبة، أن كلَّ شىءٍ يُبْعِد من الإنسانِ الوحشىِّ كُلًّا من الإغراءِ ووسائلِ تبديل حاله كما يَلوح؟ لا يُصَوِّر خيالُه شيئًا له، ولا يسأله قلبُه شيئًا، وتكون احتياجاتُه الضئيلة من سهولة وجودها قبضةَ يده، ويكون من ابتعاده عن درجة المعارف التى لا بُدَّ منها ليَرْغَبَ فى اكتساب ما هو أعظمُ منها، ما لا يُمْكِن أن يكون له معه حَذَرٌ ولا حُبُّ اطلاع، ويَغْدُو غيرَ مكترثٍ لمنظر الطبيعة لِمَا يصير مألوفًا لديه، وهو يُبْصِر فيه ذاتَ النظام وذاتَ التقلبات دائمًا، وليس عنده روحُ الدَّهَش من أعظم العجائب، وليس عنده ما يجب أن يُبْحَث به عن الفلسفة التى يحتاج الإنسان إليها ليَعْرِف أن يلاحظ مرةً ما رآه فى جميع الأيام، وتُسَلِّم روحُه التى لا يهُزُّها شىءٌ نفسَها إلى إحساس وجوده الحاضر من غير أىِّ فكرٍ عن المستقبل مهما كان قريبًا، ولا تكاد أغراضُه المحدودةُ كأبصاره تمتدُّ إلى نهاية نهاره، ولا تزال هذه درجةُ إدراك الكَرَايبىِّ الذى يَبِيع فراشَه القطنىَّ صباحًا ويبكى مساءً لاشترائه، وذلك عن عدم بَصَرِه بأنه سيحتاج إليه فى الليلة القادمة.

وكلما فُكِّر فى هذا الموضوع عَظُمَت فى نظرنا المسافةُ بين الإحساسات الخالصة وأبسطِ المعارف، ومن المُحَال أن يُتَمَثَّل إمكانُ استطاعة الإنسان بقُوَاه وحدَها، ومن غير استعانةٍ بطريقٍ، ومن غير دافعٍ ضرورةٍ، أن يُجَاوِز مثلَ تلك الفاصلة، وما أكثرَ القرونَ التى مَرَّت على ما يحتمل قبل أن يشاهِد الإنسانُ نارًا غيرَ التى فى السماء! وما أكثر ما وَجَبَ وقوعُه من مصادفاتٍ لتَعَلُّم أكثرِ استعمالٍ لهذا العنصر شيوعًا! وما أكثرَ ما تُرِك يُطْفأُ قبل اكتساب صنعةِ إنتاجه ثانيةً! وما أكثر ما زال، على ما يحتمل، كلُّ واحدٍ من هذه الأسرار بزوال الذى اكتشفها! وما نقول عن الزراعة، عن هذا الفنِّ الذى يتطلب عملًا كثيرًا وحَذَرًا كبيرًا، عن هذا الفنِّ الذى يرتبط فى فنونٍ كثيرة أُخرى، والذى لا تمكن مزاولتُه فى غيرِ مجتمعٍ مبدوءٍ على الأقلِّ كما هو واضحٌ جدًّا،

والـذى لا ينفـع كثيرًا فى إخراج أقْواتٍ مـن الأرض تُمِدُّ بها من غير هـذا إلَّا بِحَمْلِها على إنتاج مـا هـو أكثرُ ملاءمـةً لذوقنا؟ ولكن لنفترض أن النـاس بلغوا من الكَثْرة ما عـادت الإنتاجاتُ الطبيعيـةُ معه غيرَ كافيةٍ لتغذيتهـم هذا الافتراضَ الذى يدلُّ، عند القول العابر، على حياةٍ بالغةِ النفـع للنوع البشرىِّ، ولنفترض أن آلات الفِلَاحة نَزَلت من السـماء وصارت قبضةَ الهَمَج من غير كيرٍ[1] ولا مَعْمَلٍ، وأن هؤلاء الناس قَضَوْا على الحقد القاتل الذى يَحْمِلونه نَحْوَ عملٍ دائم كذلـك، وأنهم تَعَلَّموا البَـصَر فى احتياجاتهم من أمَدٍ بعيد، وأنهم حَـزَروا كيف يجب أن تُحْرَث الأرضُ، وتُبْذَرَ الحبوبُ، وتُغْرَس الأشـجار، وأنهم وَجَدُوا فـنَّ طَحْنِ البُرِّ وتخميرِ العِنَب، أى اتفقـتْ لهم جميـعُ هذه الأمور التى وجب أن تكون الآلهةُ قد عَلَّمتهم إياها ما دام لم يُتَمَثَّل كيف تَعَلَّمُوها بأنفسهم، فمن يكون ذلك الإنسانُ الذى يَبْلُغ من السخافة ما يُزْعج معه نفسَه بزراعة حقـلٍ تُنْزع غَلَّاتُه من قِبَل أولِ آتٍ، إنسـانًا كان أو حيوانًـا، غيرَ مبالٍ بمن يلائمه هذا الحَصَاد؟ وكيـف يُمْكِـن كلَّ واحـدٍ أن يَعْزِم على قضـاء حياته فى عملٍ شـاقٍ يَثِقُ بأنه لا ينـال مقابلَه مع اضطـراره إليـه؟ والخلاصةُ: كيف يُحْمَـلُ الناسُ بهذا الوَضْع على زراعـة الأرض ما دامت غيرَ مُقَسَّمةٍ بينهم، أى ما دامت حالُ الطبيعة غيرَ مُلْغَاةٍ مطلقًا؟

ومتى افترضنا وجودَ إنسـان وحشىٍّ بارعٍ فى فنِّ التفكير كما يجْعلُه لنا فلاسفتُنا، ومتى جعلنا منه فيلسـوفًا على مثالهم، قادرٍ على اكتشـافه وحدَه أعلى الحقائق، واضعٍ بسلاسـلَ من البراهين المجرَّدة جدًّا مبادئَ عدلٍ وعقلٍ مستنبطةٍ من حبِّ النظام على العموم أو مقتبسةٍ من إرادةِ خالقه المعروفة، والخلاصةُ أننا إذا افترضنا له فى النفس من الذكاء والثَّقافة ما يجب أن يَكونَ له، فيُوجَدُ فيه ثِقَلٌ وسُـخْفٌ فعلًا، فأىُّ فائدةٍ يَسْـتخرجُ النوعُ من هذه اللاهوتيات التى لا يُمْكِن أن تُنْقَل مـن واحـدٍ إلى آخرَ، والتى تزول مـع الذى ابتدعها؟ وأىُّ تقـدمٍ يُمْكِن أن يتفـق للنوع البشرىِّ المُفَرَّق فى الغابات بين الحيوانات؟ وما المَدَى الذى يُمْكِن الناسَ أن يتكاملوا فيه ويَتَثَقَّفوا مقابلةً، هـؤلاء الناس الذين كانوا عاطلين من المأوى الثابت، غيرَ محتاجٍ بعضُهم إلى بعض، فلا يكادون يتلاقَوْن مرتين فى حياتهم على ما يحتمل، وذلك مع عدم تعارفٍ وتحادثٍ؟

---

(١) الكير: زِقٌّ ينفخ فيه الحداد.

وليُنْعَم النظرُ فى مقدار الأفكار التى نُعَدُّ مَدِينين بها لاستعمال الكلام، وفى مقدار ما تُدَرِّبُ بالنحو أعمالُ النفس وتُسَهِّل به، وليُفَكِّر فى المشاقِّ التى لا تُتَصَوَّر وفيما لا حَدَّ له من الزمن ثَمَنًا لاختراعِ اللغاتِ الأولِ، ولتُضَفْ هذه التأملاتُ إلى السابقة، وليُحْكم فى مقدار ما وَجَب من ألوف القرون، ليُنْمَى فى النفس البشرية بالتعاقب ما كانت قادرة عليه من الأفعال.

وليُسْمَحْ لى بالنظر هُنَيْهَةً فى عوائق أصل اللغات، ويُمْكِننى أن أذكر، أو أكرِّر، هنا مباحثَ الشَّمَّاسِ دُوكُونْدِيَّاك التى قام بها حَوْلَ هذا الموضوع فتؤيِّدُ منهاجى تمامًا، ويحتملُ أن كانت أولَ ما أوحى إلىَّ بالفكرة الأولى، ولكنه يتضح من الوجه الذى يَحُلُّ به هذا الفيلسوف ما يُثيره من المشاكل حَوْلَ أصل الحركات الموضوعة أنه افترض ما أسأل عنه، أى ضَرْبًا من المجتمع القائم بين مبتدعى اللغة، فأرى، حين أَرُدُّ إلى تأملاته، أن أُضيف تأملاتى لأَعْرِض عينَ المشاكل على نُورِ ما يناسب موضوعى، وأولُ مشكلةٍ تَظْهَر هو أن يُتَصَوَّرَ كيف أمكن أن تصير اللغاتُ ضروريةً، وذلك بما أنه لم يكن بين الناس أىُّ اتصالٍ ولا أىُّ احتياجٍ إلى هذا الاتصال؛ فإنه لا يُتَصَوَّر لزومُ هذا الاختراع ولا إمكانُه لو كان غيرَ ضرورىّ، وأقول كآخرين كثيرين: إن اللغاتِ وُلِدَت من اختلاط الآباء والأمهات والأولاد اختلاطًا أهليًّا، غير أن هذه الوسيلة لا تَحُلُّ المشاكل مطلقًا، وهى، فضلًا عن ذلك، تنطوى على خطأ مَنْ يُبَرْهنون حَوْل حال الطبيعة فيُدْخلون إلى براهينهم أفكارًا اقتُبِست من المجتمع، فلا يَنْفَكُّون يَرَوْن الأُسرة تعيش تحت سقف واحد، وأن أفرادها يحتفظون فيما بينهم باتحادٍ وثيقٍ دائم كما بيننا، حيث تَجْمَعُ بينهم مصالحُ كثيرةٌ مشتركة، مع أنه لم يكن للناس فى تلك الحالة الابتدائية منزلٌ ولا كوخٌ ولا مُلْكٌ من أىِّ نوعٍ كان، فيعيش كل واحد أينما وُجِد اتفاقًا، ولليلةٍ واحدةٍ فى الغالب، وكان الذكور والإناث يختلطون عَرَضًا وَفْقَ ما يَقَعُ من التقاءٍ وفُرْصَةٍ ومَيْلٍ من غير أن يكون الكلام تُرْجمانًا ضروريًّا كثيرًا للأمور التى كان عليهم أن يُعَبِّروا عنها، وكانوا يفترقون بسهولةٍ «١٢» كالتى يجتمعون بها، وكانت الأم تُرْضع أولادَها فى البُداءة عن احتياجٍ خاصٍّ لها، ثم جعلتهم العادةُ غالين فصارت تُغَذِّيهم عن احتياج فيهم، وكانوا إذا ما أصبحوا من القوة ما يَبْحَثون معه عن قُوتهم لم يُعَتِّموا أن يتركوا الأمَّ نفسَها، وبما أنه لم يكن من وسائل الالتقاء تقريبًا غيرُ عدمِ

الغيـاب عن العين فإنهم كانـوا لا يتعارفون إذا ما تَلَاقَوْا ثانيةً، ولنلاحظْ، أيضًا، اضطرارَ الولد إلى إيضـاح جميع احتياجاته، ومـن ثَمَّ وجودَ أمورٍ كثيرة يقولها الولدُ لأمه أكثرَ من أن تقولها أمه له، فكان عليه أن يقوم بأعظم جهودٍ للإبداع، فوجب أن تكون اللغة التى يستعملها من صنعه الخـاصِّ إلى حَدٍّ بعيد، وهذا ما يَجْعَل اللغاتِ من الكثرة بعدد الأفراد الذين يتكلمون بها، وهذا مع وجوب زيادة تنوعها بما يأتونه من حياة التَّسَكّع والتِّيهان التى لا تترك لأية لغةٍ من الوقت مـا تكتسـب معه ثباتًا، وذلك لأن القـول بأن الأم تُمْلِى على الولد من الكلـمات ما يجب عليه أن يستعمله ليسـألها عن هذا الشـىء أو ذاك يدلُّ جيدًا على الوجه الذى تُعَلَّم بـه اللغات التى تَمَّ تكوينها، غير أن هذا لا يُوضِح كيف تَكَوَّنت.

ولنفترضْ أن هذه الكلمة الأولى مشكلةٌ ذُلِّلَت، ولْنُجَاوِزْ للحظةٍ ما وَجَبَ وجودُه من مسافةٍ واسـعة بين الحـال الطبيعية الخالصة والحاجةِ إلى اللغات، ولنبحـثْ بافتراضها ضروريةً «١٣» عن الوجه الذى اسـتطاعت أن تبدأ به وتسـتقرَّ، وهذه مشـكلةٌ جديدة أسوأُ من السابقة أيضًا، وذلـك لأن النـاس إذا كانوا محتاجين إلى الكلام ليتعلمـوا التفكير فإنهم أكثرُ احتياجًا إلى معرفة التفكـير لإيجاد فَـنِّ الكلام، وإذا ما أُدرك الوجهُ الذى اتُّخِذَت بـه نَبَرَاتُ الصوت لتكون تراجمةً اتفاقيـةً لأفكارنا فإنه يبقى علينا، دائمًا، أن نَعْرِف ما اسـتطاع أن يَكُـون تراجمةَ هذا الاتفاق عن الأفكار التى ليس موضوعُها محسوسًا فتستطيعَ أن تدلَّ على نفسها بالحركة أو بالصوت، وذلك أننـا لا نـكاد نسـتطيع أن نَضَع فَرْضياتٍ محتملةً حَـوْل ظهور هذا الفن فى نقل الإنسـان أفكارَه وإقامـةِ صلـةٍ بين النفـوس، هذا الفن العالى البعيـد جدًّا من أصله، ولكن مع كون الفيلسـوفِ لا يزال يراه على مسـافةٍ لا يُعْرَف مَدَاها بُعْدًا من الكمال، ولكن مع عدم وجود إنسـانٍ بالغٍ من الجُـرْأة مـا يُوَكِّد عدمَ الوصول إليه مطلقًا، ولو وُقِفَتْ نَفْعًـا له ما يُوجِبُه الزمنُ من الانقلابات، ولـو أُقْصيت المُبْتَسَراتُ[1] عن المجامع الأدبية أو صَمَتت أمامها، ولو اسـتطاعت هذه المجامعُ أن تُعْنَى بهذا الموضوع الشائك فى قرونٍ كاملة بلا انقطاع.

---

(١) Prejuges.

وصوتُ الطبيعة هو اللغةُ الأولى للإنسان، وهو أكثرُ اللغات انتشارًا ونشاطًا، وهو الوحيدُ الذى احتاج إليه قبل وجوب إقناعه أُناسًا مجتمعين، وبما أن هذا الصوت لم يُنْتَزَع إلَّا بنوعٍ من الغريزة فى الأحوال المُلِحَّة التماسًا للعَوْن فى الأخطار العظيمة، أو للتخفيفِ فى الأمراض العنيفة، فإنه لم يكن كبيرَ الاستعمال فى أثناء الحياة العادية حيث يسود أكثرُ المشاعر اعتدالًا، ولَـمَّا أخذت أفكار الناس تنتشر وتزيد وقامت بينهم صلةٌ أشدُّ إحكامًا، بَحَثُوا عن حَرَكاتٍ أكثرَ عددًا، وعن لغةٍ أعظمَ اتساعًا؛ فزادوا إمَالاتِ الصوت، وأضافوا إليه من الحركات ما هو أكثرُ تعبيرًا، وما يكون معناه أقلَّ توقفًا على تحديدٍ سابق، وبالحركات يُعَبَّر، إذنْ، عن الأشياء المنظورة والمتحركة، وبالأصوات المماثلة يُعَبَّر عن الأشياءِ التى تَقْرَعُ السَّمْعَ، ولكن بما أن الحركة لا تدل على غير الأشياء الحاضرة أو التى يَسْهُل وصفُها، وعلى الأعمال المنظورة، وبما أنها ليست شاملةَ الاستعمال ما دام ظَلامُ الجسم أو تداخلُه يجعلها غيرَ ذاتِ عمل، وبما أنها تقتضى انتباهًا أكثرَ من إثارته، فإنه رئى فى نهاية الأمر أن تُسْتَبْدَل بها مفاصلُ الصوت التى هى، من غير أن تكون عَيْنَ الصلة ببعض الأفكار، أصلحُ لتمثيلها جميعِها كإشاراتٍ مصطلحٍ عليها، واستبدالٌ كهذا لا يُمْكِن أن يتمَّ إلا باتفاقٍ عامٍّ وعلى وجهٍ يَصْعُب تطبيقه على أناسٍ لم تتعود أعضاؤهم الغليظة ممارستَه بَعْدُ، وأصعبُ من ذلك أيضًا إدراكُه فى ذاته ما وَجَبَ أن يكون ذلك الاتفاقُ الإجماعىُّ مُبَرْهَنًا وما ظَهَر أن الكلام ضرورىٌّ إلى الغاية توطيدًا لعادة الكلام.

ويجب أن يُرَى أن الكلماتِ الأولى التى استعملها الناسُ قد انطوت فى روحها على معنًى أكثرَ اتساعًا بما لم يَكُنْ للكلمات التى تُسْتعمل فى اللغات القائمة، وهى إذ تَجْهَل تقسيمَ الكلام إلى أجزائه المتتابعة فإنها مَنَحَتْ فى البُداءَةِ كل كلمةٍ معنى جملةٍ بأجمعها، وهى إذْ أخذت تَمِيز الفاعل من المفعول والفعلَ من الاسم، وهذا ما لا يَصْدُر عن جُهْدٍ وضيعٍ من العبقرية، فإن الأسماء لم تَكُنْ فى البُداءة غيرَ أسماء خاصة، وإن الحاضرَ هو الزمنُ الوحيدُ للأفعال، وأما النعوتُ فَوَجَب أن تكون قد تَقَدَّمت بصعوبة عظيمة، وذلك لأن كلَّ نعتٍ هو كلمةٌ مجرَّدة، ولأن المجرَّداتِ أعمالٌ شاقةٌ غيرُ طبيعية إلَّا قليلًا.

وقد نال كلُّ شىءٍ اسمًا خاصًّا فى البُداءة، وذلك من غير نظرٍ إلى الأجناس والأنواع التى لم يكن الواضعون الأولون ليَقْدِروا بينها، وقد تَمَثَّل جميعُ الأفراد لنفوسهم على انفرادٍ كما فى رَسْم

الطبيعة، وإذا كانت إحدى البلُّوطات تُدْعى (أ) وكانت الأخرى تُدْعى (ب) فإن الفكرة الأولى التى تُسْتنبط من الأمرين هى أنهما ليسا عينَ الشىء، فوَجَب فى الغالب مرورُ زمن كبير لملاحظة ما هو مشتركٌ بينهما، وذلك أنه كلما كانت المعارف محدودةً اتسع مَدَى المُعْجَم، ولم يكن من السهل أن يُزَالَ عُسْرُ استعمالِ هذا المعجم؛ وذلك لأن صَفَّ الموجودات تحت تسمياتٍ عامَّةٍ وجِنْسِيَّةٍ كان يتطلب معرفةَ الخصائص والفروق، كان يتطلب من الملاحظات والتعريفات، أى من التاريخ الطبيعىّ ومما بعد الطبيعة، ما هو أكثرُ مما يُمْكِن آدمى ذلك الزمن أن يَحُوزُوه بمراحل.

ثم إن الأفكار العامة لا يُمْكِن أن تَدْخُل فى النفس من غير مساعدة الكلمات، ولا يُمْكِن أن ينالها الإدراكُ من غير جُمَل، وهذا هو أحدُ الأسباب فى عجز الحيوانات عن تكوين مِثْل هذه الأفكار واكتساب ما يتوقف عليها من كمال، وإذا ما انتقل قِرْدٌ من جَوْزَةٍ إلى أخرى بلا تردُّدٍ فهل يُرَى أنه كان لديه فكرةٌ عامة عن هذا النوع من الثَّمَر.. وأنه يقابِلُ مثالَه بِتَيْنِكَ الجَوْزتين؟ كلَّا، لا رَيْب، غير أن منظر إحدى الجوْزتين يَرُدُّ إلى ذاكرته من المشاعر ما أخذه عن الأخرى، وتُخْبِر عيناه، اللتان عُدِّلتا على وجهٍ ما، ذوقَه بالتعديل الذى يوشك أن يصيبه، وكلُّ فكرةٍ عامةٍ ذهنيةٌ، ولا تَلْبَث الفكرةُ أن تكون خاصةً إذا مازجها شىءٌ من الخيال، وإذا حاولتم أن تَرْسموا فى ذهنكم صورةَ شجرةٍ على العموم لم تَبْلُغوا غايتكم قَطُّ، فيجب أن تُرَى، على الرغم منكم، صغيرةً أو كبيرةً، عاريةً أو كثيفة، زاهرةً أو قاتمة، وإذا كنتم من الحال ما لا تَرَوْن معه فيها غيرَ ما هو مشتركٌ بين جميع الشجر عادت هذه الصورةُ لا تشابه شجرةً مطلقًا، وتُبْصَرُ الموجودات المجردةُ على ذات الوجه، أو هى لا تُدْرَك بغير الكلام، ومن ذلك أن تعريف المثلث يعطيكم عنه فكرةً حقيقية، فمتى جعلتم له صورةً فى ذهنكم كان مثلثًا خاصًا، لا مثلثًا آخرَ، ولم يُمْكِنكم أن تجتنبوا منحَه خطوطًا محسوسةً أو رسمًا مُلَوَّنًا، ولِذَا يجب استعمال جُمَلٍ، ولذا يجب الكلامُ، لنَيْلِ أفكارٍ عامة، وذلك لأن الخيال إذا ما وَقَف عاد الإدراك لا يسير بغير مساعدة الكلام، ولِذَا إذا كان المُبْدِعون الأولون لم يستطيعوا إطلاقَ أسماءٍ على غير ما كان عندهم من أفكارٍ فإن الأسماء الأولى لم تستطع أن تَكُونَ غير أسماءٍ خاصة.

ولكنْ عندما أخذ نَحوِيُّونا الجُدُدُ يَنْشُرون أفكارَهم ويُعَمِّمون كلماتِهم بوسائلَ لا أتصورها وجب أن يؤدىَ جَهْل المُبْدعين إلى حَصْر هذا النهج ضمنَ حدودٍ ضيقةٍ جدًّا، وبما أنهم كثَّروا أسماء الأفراد فى البُداءة إلى الغاية، عن عدم معرفة الأنواع والأجناس، فإنهم جعلوا أنواعًا وأجناسًا قليلةً إلى الغاية فيما بعد، وذلك عن عدم نظرٍ إلى الموجودات من حيث جميعُ فروقها، وكان لابُدَّ لهم من تجارِبَ ومعارفَ أكثر مما كانوا يستطيعون حيازتَه، وكان لابُدَّ لهم من مباحثَ وجهودٍ أكثرَ مما كانوا يريدون اتخاذَه، حتى يُوَسِّعوا نِطاق التقسيمات إلى مَدًى بعيد بدرجة الكفاية، والواقعُ أنه إذا ما اكْتُشِفَتْ فى كلِّ يومٍ، وفى يومنا أيضًا، أنواعٌ جديدة لم تلاحَظ سابقًا فإن من الرأى أن يُنْعَم النظرُ فى مقدار ما كان قد غاب منها عمن لا يَحْكُمون فى الأمور إلَّا عن أول نظرةٍ، ومن غير الضرورىِّ أن يُضَاف إلى هذا كونُ الأصناف الابتدائية وأكثرِ التصورات عمومًا قد غابت عن ملاحظتهم أيضًا، وكيف كانوا، مثلًا، يتصورون أو يسمعون كلماتِ: المادة والنَّفْس والجوهر والنَّمَط والشكل والحركة، مادام فلاسفتنا الذين يستعملونها منذ زمن طويل جِدًّا يَجِدُون مشقةً فى سماعها بأنفسهم.. وما دامت الأفكار التى تُرْبَط بهذه الكلمات خاصةً بما بعد الطبيعة تمامًا فلا يَجِدُون لها نظيرًا فى الطبيعة.

وأَقِفُ عند هذه الخُطُوات الأولى، وألتمس من قضاتى أن يُمْسِكوا عن قراءتهم لِيَنْظُروا فى اختراع الأسماء المادية، أى فى قسم اللغة الذى هو أسهلُ ما يُوجَد، وذلك أنه لا يزال يوجد طريق كبيرةٌ تُسْلَك قَبْلَ أن يُعَبَّر عن جميع أفكار الناس، وقبل أن تَتَّخذ هذه الأفكارُ شكلًا ثابتًا يُعْرَبُ به عن مقاصد الجُمهور ويؤثَّر فى المجتمع، وألتمس من قضاتى أن يتأملوا فيما يَجِبُ من الوقت والمعارف لإيجاد الأعداد «١٤» والأسماء المجردة والمضارعِ وجميع أزمنة الأفعال والحروف والتراكيب وربطِ الجُمَل ووجوه القياس وتأليف منطق الكلام، وأما أنا، وتُخِيفنى المصاعبُ التى تتكاثر، وأُقْنَع بما هو ثابتٌ تقريبًا من استحالة ظهور اللغات واستقرارها بوسائلَ بشريةٍ صِرْفة، فأَدَعُ لمن يريد القيامَ بذلك أن يناقِش فى هذه المسألة الصعبة التى كانت أكثرَ الأمورِ لزومًا للمجتمع المرتبط فى نظام اللغات، أو للغات المخترَعة المرتبطة فى نظام المجتمع.

ومهما يكن من أمر هذه الأصول (للغات والمجتمع) فإنه يُرَى على الأقل، من قلة عناية الطبيعة بتقريب بعض الناس من بعضٍ باحتياجاتٍ متقابلة وتسهيلِها استعمالَ الكلام، مقدارُ قلةِ إعدادها لأُنْسِهم ومقدارُ قلةِ ما وَضَعَته من ذاتها فى جميع ما صنعوه إيجادًا لِمِثْل روابط الاتحاد هذه، والواقعُ أنه يستحيل تصورُ السبب فى كون الإنسان فى هذه الحال الابتدائية يحتاج إلى إنسان آخرَ أكثرَ من احتياج القرد أو الذئب إلى آخرَ من نوعه، ولا تَصَوُّرُ السببِ فى حمل الآخر على قضاء هذا الاحتياج عند افتراضه، ولا تَصَوُّرُ وجهِ إمكانِ اتفاقهما على الشروط فى هذه الحال الأخيرة، وأعلم أنه يقال لنا مكرَّرًا، وبلا انقطاعٍ، إنه لم يكن مثلَ الإنسان بائسٌ فى هذه الحال، فإذا صَحّ ما أعتقد إثباتى له من أنه لم يساوره مَيْلٌ أو فرصةٌ للخروج منها إلا بعد قرون كثيرة كان هذا قضيةً تُرْفع على الطبيعة، لا على الذى جَبَلَتْه هكذا، وأما كلمة «بائس» فلا أجد لها معنى أو إنها لا تَعْنِى غيرَ حِرْمانٍ أليمٍ أو ألمٍ فى الجسم والروح، ومما أَوَدُّ أن يُوضَّح لى فى الواقع ما يُمْكِن أن يكون نوعُ البؤس فى شخصٍ حُرٍّ يتمتع فؤادُه بالسكون وبدنُه بالصحة، ومما أسأل: أىُّ الأمرين، الحياة المدنية أو الطبيعية، يكون أكثرَ عدمَ احتمالٍ، كما يَغْدُو، لدى من يتمتعون بهما، ولا نكاد نرى حَوْلنا غيرَ أناسٍ يتوجعون من حياتهم، حتى إننا نرى أناسًا كثيرين ينتزعونها ما استطاعوا، ولا تكاد القوانين البشرية والإلهية مجتمعةً تَقِفُ هذا الاختلال، ومما أسأل: هل سُمِعَ، قَطُّ، أن همجيًّا طليقًا دار فى خَلَده أن يشتكىَ من الحياة فَقَتَل نفسَه، ولْيُنْظَرْ، إذَنْ، مع قليلِ زَهْوٍ، فى الناحية التى يأتى البؤسُ الحقيقىُّ منها، وعلى العكس لا شىءَ أشدُّ بؤسًا من الإنسان الوحشىِّ الذى بهرته المعارف وأوجعته الأهواء باحثًا حَوْلَ حياةٍ مختلفة عن حياته، ويظهر أن العناية الرَّبَّانية البالغةَ الحكمة قضت بألا تَنْمُوَ الخصائصُ الحائزُ لها إلا فى فُرَص ممارستها، وذلك لكيلا تكونَ زائدةً ثقيلةً قبل الأوان، أو تكونَ متأخرةً لاغيةً عند الاقتضاء، وقد كان يَكْمُن فى الغريزة وحدَها كلُّ ما يحتاج إليه للعيش فى حال الطبيعة، وليس له فى عقلٍ مثقَّفٍ غيرُ ما يحتاج إليه المجتمع.

ويَظْهَر أول وهلةٍ أنه لم يكن بين الناس فى هذه الحال أىُّ نوع من الصلات الأدبية، ولا واجبات معينة، فيستطيعوا أن يكونوا صالحين أو طالحين، ولم تكن لديهم معايبُ ولا فضائلُ، ما لم تُؤْخَذْ هذه الكلمات ضِمْن معنىً مادىٍّ فُتدْعَى معايبَ فى الفرد الصفاتُ التى يُمْكِن أن

تَضُرَّ بقاءَه الخاصَّ، وتُدْعَى فضائلَ الصفاتُ التى يُمْكِن أن تساعد على بقائه، فيجب فى هذه الحال أن يُدْعى الأكثرُ فضيلةً الأقلُّ مقاومةً لاندفاعاتِ الطبيعة، ولكننا، من غير أن نبتعد عن المعنى العاديِّ، نَجِدُ أن من المناسب أن نَقِفَ الحكمَ الذى نستطيع سَوْقَه حَوْلَ مثل هذا الوضع، وأن نَحْذَر مُبْتَسَراتِنا حتى يُبْحثَ، والميزانُ فى اليد، عن وجود فضائلَ أكثرَ من المعايب بين المتمدنين، أو عن كون فضائلهم أنفعَ من عدم شؤم معايبهم، أو عن كون تقدم معارفهم تعويضًا كافيًا من الشرور التى يأتونها مقابلةً بنسبة الخير الذى يجب أن يصنعوه، أو عن كونهم، إجمالاً، فى وضعٍ لا يَبْدُون فيه أعْظمَ سعادةً فى عدم وجود شَرٍّ يخْشَوْنه، ولا خَيْرٍ يَرْجُونه من أحد، من خضوعهم لطاعةٍ عامَّة ومن إلزامهم بنَيْل كلِّ شىء من أولئك الذين لا يُلْزِمون أنفسهم بإعطائهم شيئًا.

ودَعْنَا لا نستنتج مع هُوبْزَ، على الخصوص، كونَ الإنسان طالحًا بحكم الطبيعة لكيلا تُتَمَثَّل فكرةُ الصلاح، وكونَه فاسدًا لأنه لا يَعْرِف الفضيلة، وكونَه يأبى على أمثاله دائمًا خِدَمًا لا يعتقد حَقَّهم فى طلبها، ولا كونَه يطلب، عن حَقٍّ، كلَّ شىء يحتاج إليه فيتصوَّرُ، عن حماقةٍ، أنه مالكُ جميع العالَم، وقد أصاب هُوبْزُ فى ملاحظته نقصَ جميعِ التعريفات الحديثة للحقوق الطبيعية، غير أن النتائج التى استخرجها من تعريفه تدلُّ على اتخاذه هذا التعريفَ ضِمْنَ معنىً ليس أقلَّ خطأً، وكان على هذا المؤلف، حين يُبَرْهِنُ حَوْل المبادئ التى وضعها، أن يقول: بما أن حال الطبيعة هى الحال التى تكون فيها العناية ببقائنا أقلَّ ضَرًّا ببقاء الآخرين فإن هذه الحال كانت أنسبَ للسِّلْم وأصلحَ للجنس البشرىِّ، والعكسُ هو ما قاله تمامًا نتيجةَ قبوله قبولاً غيرَ مناسبٍ، وكجزءٍ من عناية الإنسان الوحشىِّ ببقائه، قضاء طائفةٍ من الأهواء التى هى من عمل المجتمع والتى جعلت القوانينَ أمرًا ضروريًّا، ومن قوله إن الإنسان الطالح هو ولدٌ قويٌّ، وبَقِىَ أن يُعْرَف هل الإنسانُ الوحشىُّ ولدٌ قويٌّ، وإذا ما أُعْطِىَ هذا فما عليه أن يستنبط؟ وإذا كان هذا الإنسانُ القويُّ تابعًا لآخرين اتِّبَاعَه لهم عند ضعفه لم يُوجَدْ تَطَرُّفٌ لا يكون مذنبًا به، وليَضْرِبْ أمَّه إذا ما تأخرت عن إعطائه ثَدْيَها، وليَخْنُقْ أحدَ إخوته الصغار إذا ما أزعجه، ولْيَعَضَّ ساق أخٍ آخرَ له إذا ما أقلقه، فلا تنطوى هذه الأمورُ على غير افتراضين متناقضين فى

حال الطبيعة التى يكون فيها ذلك الإنسانُ قويًا وتابعًا، ويكون الإنسان ضعيفًا عندما يكون تابعًا، وهو يكون طليقًا قبل أن يكون قويًا، ولم يَرَ هُوبْزُ أن ذاتَ العلةِ التى تَمْنَع الهمجَ من استعمال عقلهم كما يَزْعُم فقهاؤنا تَمْنَعهم فى الوقت نفسه من سوء استعمال خصائصهم كما يَزْعُم هُوبْزُ نفسه، فبذلك يُمْكِن أن يقال إن الهَمَج ليسوا طالحين لأنهم لا يعْلَمون معنى كونهم صالحين، وذلك لأن سكون الأهواء وجهلَ العيب هما اللذان يَحُولان دون صنعهم الشَّرَّ، «فجهلُ العيب أكثرُ فائدةً للواحد من معرفة فضيلة الآخر[1]»، ثم يُوجَد مبدأٌ آخرُ لم يُبْصِره هُوبْز قَطُّ، وذلك: بما أن الإنسان قد أُعْطِىَ ما يُلَطِّفُ به فى بعض الأحوال قسوةَ أنانيته أو رغبتَه فى البقاء قبل أن تُولد هذه الرغبة «١٥» فإنه يُعَدِّل ما فيه من حُمَيَّا البحثِ عن هناءته بنُفُوره الفطرىِّ من مشاهدة نظيره يَأْلَم، ولا أجِدُ ما أخشاه من تناقضٍ بذهابى إلى أن الإنسان حائزٌ للفضيلة الطبيعية الوحيدة التى لا يُمْكِن أن يُنْكِرَها أكثرُ الناس طعنًا فى الفضائل البشرية، وأتكلم عن الرحمة، عن هذا الأمر الملائم للأشخاص البالغين من الضعف والمَعْرُوضين لكثير من الشرور كما نحن عليه، عن هذه الفضيلة البالغةِ من الشمول العظيم والنفع العميم للإنسان ما تَسْبِقُ فيه كلَّ تأمُّل، عن هذه الفضيلةِ البالغةِ من ملاءمة الطبيعة ما تصْدُر معه حتى عن الحيوان أحيانًا دلائلُ محسوسةٌ عليها، وإنى، من غير قولٍ عن حَنَان الأُمَّات على صغارها وعن الأخطار التى تقتحمها لتصونها منها، أقول إنه يُرَى فى كلِّ يومٍ نفورُ الخيلِ من دَوْسِ الأجسام الحية تحت سنابكها، ويُرَى، مع طِيب الخاطر، أن مؤلف قصة النحل المُلْزَمَ بأن يَعْرِف الإنسانَ موجودًا رحيمًا حَسَّاسًا يخْرُج فى المثال الذى أورده عن ذلك من أسلوبه الفاتر الدقيق ليُقدِّم إلينا صورةً مؤثرةً عن إنسانٍ سجين يُبْصِر فى الخارج حيوانًا ضاريًا يَنْزِع من حِضْن أمِّه طفلاً فيَسْحَق بأنيابه الفَتَّاكة أعضاءَه الضعيفة ويُمَزِّق بمخالبه أحشاءَه المختلجة، فيالَهَوْل ما يَشْعُرُ به شاهدُ مثل هذا الحادث الذى لا يُهِمهُّ شخصيًّا! ويا للجَزَع الذى يستحوذ عليه عند هذا المنظر حيث لا يستطيع أن يقوم بأى عَوْنٍ للأمِّ المَغْشِىِّ عليها، وللطفل المُسْلِم روحَه!

---

(١) جوستان: التاريخ، الباب الثانى، الفصل الثانى..

وهـذا هو انفعالُ الطبيعة الخالصُ السـابقُ لكلِّ تأمل، وهذه هي قـوةُ الحَنان الطبيعيِّ الذي لم يَكَدْ أفسـدُ الأخلاق يَقْضِي عليه، وذلك لِمَا يُرَى كلَّ يومٍ في دُورِ تمثيلنا من أناسٍ راحمين باكين تَعَسَ شَقِيٌّ يزيد آلامَ أعدائه لو كان في مكان الطاغية، وذلك كسِيلَّا السَّفَّاح الكثير الشفقة تجاه ما لم يُوجِبْه من البُؤس، أو إسكندرَ الفيرُوسيِّ الذي لم يَجْرُؤ على مشاهدة تمثيل أية مأساةٍ خشيةَ أن يُرَى وهو يَئِنُّ مع أندرومَاك وبريَام، على حين كان يَسْمَع غيرَ راحمٍ صُرَاخَ مواطنين كثيرين يُذْبَحُـون كلَّ يومٍ وَفْقَ أوامـره، «فالطبيعةُ تُصَرِّح بأنها أنعمت على النوع البشريِّ بأرقِّ القلوب عند من يَسْكُب لهم عَبَراتٍ»[1].

أجَلْ، شَـعَرَ مانْدِفِيلُ جيدًا بأن الناس مع جميع أخلاقهم لم يكونوا قَطُّ غيرَ غيلانٍ لو لم تَمُنَّ الطبيعـةُ عليهـم بالرحمة دَعْمًا للعقل، بَيْدَ أنه لم يَرَ صدورَ جميـع الفضائل الاجتماعية التي يُنْكِرُ وجودهـا في النـاس، عن هذه الصفـة الوحيدة، والواقعُ مـا المُرُوءة والرحمة والإنسـانية إن لم تكـن الرحمـةُ مُطَبَّقَةً على الضعفاء أو المذنبين أو النوع البـشريِّ على العموم؟ حتى إن العطف واللطـف، عند حُسْـن الحُكْم، نتيجـةُ رأفةٍ ثابتة، مسـتقِرَّةٍ على موضوعٍ خـاصّ، وذلك: هل تُعَدُّ الرغبةُ في عدم تألُّم الشـخص شـيئًا آخرَ غيرَ الرغبة في كونه سـعيدًا؟ ومتى صَحَّ أن تكون الرأفة غَيرَ شـعورٍ يَضَعُنا في مكان الذي يألم، غيرَ شـعورٍ غامضٍ حادٌّ عند الإنسان الوحشيِّ، نـامٍ مـع ضعفٍ في الإنسـان المتمدن، فما تَجْلِبه هذه الفكرة إلى حقيقة مـا أقول إن لم يَكُنْ تأييدًا له؟ والواقعُ أن الرأفة تشـتدُّ بنسـبة مطابقة الحيوان الناظر للحيوان المتألم مطابقةً وثيقة، ومن الواضـح حَقًّـا وجوبُ كون هـذه المطابقة أكثرَ إحكامًـا، بما لا حَدَّ له، في حـال الطبيعة مما في حـال التعقـل، فالعقلُ هو الذي يُوجِدُ الأنانيـة، والتأملُ هو الذي يقوِّيهـا، والعقلُ هو الذي يَلْوِي الإنسـانَ على نفسـه، ويَفْصِلُه عن كلِّ ما يُمْكِن أن يُزْعِجه أو يُحْزِنه، والفلسفةُ هي التي تَفْرِزه، وبالفلسـفة يقول سِرًّا عند رؤيته إنسـانًا متألِّمًا: «إن شئتَ فاهْلكْ، فأنا في أمان»، ولا يُوجَدُ غيرُ أخطار المجتمع بأسره ما يُقْلِق الفيلسـوفَ في نومه، أو ينتزعُه من فراشـه، ويُمْكِن أن يَذْبَحَ إنسانٌ تحت نافذته إنسانًا آخرَ بلا عقاب، وليس عليه إلَّا أن يَضَع يديه على أُذنيه وأن

(١) جوفينال، أهاجي، ١٥، ١٣١.

يُساجل نفسَه قليلًا ليَمْنَع الطبيعة التى تحَرَّكت فيه من أن تَتَمثل فى الشخص الذى يُذْبَحُ، ولا تجِدُ عند الإنسان الوحشىِّ هذا النبوغَ العجيب، ونَجِدُ الإنسانَ الوحشىَّ يُسْلِمُ نفسه فى كلِّ وقت، وبلا رَويَّة، إلى أول شعورٍ إنسانىّ، وترى الرَّعَاعَ يتجمعون فى الفِتَن والمشاجرات والشوارع، وترى الإنسانَ الفطين يبتعد عنها، والأوباشُ ونساءُ الأسواق هم الذين يَفْصِلون بين المتنازعين ويَحُولون دون تذابح ذوى الصلاح.

ومن الثابت، إذَنْ، كَوْنُ الرأفة شعورًا طبيعيًّا يُعَدِّل فى كلِّ فردٍ نشاطَ حبِّ الذات فيساعد على بقاءِ كلِّ نوع بقاءً متقابلًا، والرأفةُ هى التى تَحْمِلُنا، من غير تأملٍ، على مساعدة مَنْ نراهم يألمون، والرأفةُ هى التى تقوم فى الحال الطبيعية مقامَ القوانين والعادات والفضيلة، وذلك مع مزيتها فى عدم وجود أحدٍ يحاول عصيانَ صوتها العَذْب، والرأفةُ هى التى تَصْرِف كلَّ همجىٍّ قوىٍّ عن اختطافه من ولدٍ ضعيف أو من شائبٍ عاجز قُوتَه الذى ناله بمشقة إذا ما أَمَلَ نَيْلَه فى مكانٍ آخر، والرأفةُ توحِى إلى جميع الناس بمبدأ الصلاح الطبيعىِّ القائل: «اصْنَعْ خيرًا نحو نفسك بأقلِّ شرٍّ ممكنٍ نحو الآخرين»، وذلك بدلًا من المبدأ العالى للعدل العقلىِّ القائل: «عامل الآخرين بما تريد أن يعاملوك به»، والذى هو أقلُّ من الأول فائدةً على ما يحتمل وإن كان أكثرَ منه كمالًا، والخلاصةُ أنه يجب أن يُبْحَث فى هذا الشعور الطبيعىِّ، أكثرَ مما فى البراهين الدقيقة، عن ذلك النفور الذى يُحِسُّه كلُّ إنسانٍ عند صنعه الشَّرَّ، ولو مستقلًّا عن مبادئ التربية، ومع أنه يعود على سُقْراطَ ومن هم على شاكلته أمرُ اكتساب الفضيلة بالعقل فإن الجنس البشرىَّ كان يزول منذ زمنٍ طويل لو تَوَقَّف بقاؤه على تعقلات من يتألف منهم.

ولم يكن الناس، الذين هم هَمَجٌ أكثرَ من أن يكونوا أشرارًا وأكثرَ ميلًا إلى اجتناب الشَّرِّ الذى يُمْكِن أن يصيبهم من محاولتهم إصابةَ الآخرين به، عُرْضةً لمنازعاتٍ بالغةِ الخطر مع أهواءٍ قليلة النشاط وزاجرٍ كثيرِ النفع، وبما أنه لم يكن بينهم أىُّ تعاملٍ فإنهم لم يَعْرِفوا زَهْوًا ولا اعتبارًا ولا احترامًا ولا ازدراءً، ولم يكن عندهم أدنى فكرةٍ عن «مالى» و«مالِك»، ولا أىُّ رأىٍ حقيقىٍّ عن العدل، وإنهم كانوا يَعُدُّون العنف الذى يُمْكِن أن يعانُوه شَرًّا يَسْهُل تلافيه، لا إهانةً يجب العِقاب عليها، وإنهم كانوا لا يفكِّرون حتى فى الانتقام ما لم يكن آليًّا وحالا، وذلك كالكلب

الـذى يَعَضُّ الحجـر الذى يُرْمى إِليه، ولذا كان من النادر حـدوثُ نتائجَ دامية لمنازعاتهم، ما لم تَصْدُر عن أمر القُوت، غير أننى أُبْصِر ما هو أشدُّ خطرًا، فَبقِىَ لى أن أتكلم عنه.

يُوجَـدُ بـين الأهـواء التى تحَـرِّك قلب الإنسـان هَـوًى ملتهبٌ صائـل يَجْعَـل كلَّ واحد من الجنسـين ضروريًـا للآخر، هَوًى هائلٌ يقتحـم جميع الأخطار، ويَقْلِب جميع العوائق رأسًـا على عَقِـب، ويَلُـوح صالحًـا فى صَوْلاته لتقويـض الجنس البشرىِّ المُعَـدِّ لِحِفْظه، ومـا يَحْدُث للناس الذين تَسَـلَّطت عليهم هذه الحُمَيَّا الجامحة الجافيـة الخالعة للعِذَار والعاطلةِ من الاعتدال والتى تُنَازع كلَّ يومٍ معاشقَهم على حساب دَمِهم؟

وأولُ مـا يجـب أن يُعْتَرَف بـه هو أن الأهواء كلـما كانت عنيفةً أصبحـت القوانينُ ضروريةً لزجرهـا، ولكنـك إذا عَدَوْت مـا تُوجبه هذه الأهواء بيننا كلَّ يوم مـن ارتباكٍ وجرائمَ وجدتَها تـدلُّ عـلى عدم كفايـة القوانين من هـذه الناحية، ومن الحَسَـن أيضًـا أن يُبْحَث فى هل نشـأت هذه الارتباكاتُ مع القوانين نفسـها، وذلك لأن القوانين إِذا ما اسـتطاعت أن تَحُول دون هذه الارتباكات حينئذٍ فإن أقلَّ ما يُنْتَظر منها منعَ وقوع شَرٍّ ما كان ليُوجَدَ بغيرها.

ولنبـدأْ بـأن نَمِيزَ بين الأمـور الأدبية والبدنية فى إحسـاس الحبِّ، فالبدنىُّ هـو تلك الرغبةُ العامة التى تَحْمل جنسًـا على الاقتران بجنس آخر، والأدبىُّ هو الذى يُعَيِّن هذه الرغبةَ ويُقِرُّها على أمرٍ واحد حصْرًا، أو هو الذى يَمْنَح هذا الأمرَ المُفَضَّلَ، على الأقلِّ، درجةً بالغةً من النشاط، والواقعُ أن من السـهل أن يُرَى كَوْنُ أدبِ الحبِّ شعورًا مصنوعًا نشأ عن عادة المجتمع، وكونُه رُوِّج من قِبَل النساء مع كثير من البراعة والعناية تأييدًا لسلطانهنّ وجعلًا للجنس المُلْزَم بالطاعة مسـيطرًا، وبما أن هذا الشـعور قائـمٌ على بعض مبادئَ للجمال والمزيـة لا يكون الهمجىُّ معه فى وضعٍ يسـتطيع أن ينالها فيه، وعلى مقاييسـاتٍ لا يكون معها فى وضعٍ يسـتطيع أن يصنعها فيه، فإنـه يجـب أن يكون فى حُكْم العَدَم تقريبًا بالنسـبة إليه، وذلك بما أن نفْسَـه لم تسـتطع أن تُكَوِّن أفكارًا مُجَرَّدةً فى الوِفاق والنسـبة فإن فؤاده لا يتأثَّر كذلك بمشاعر الإعجاب والحبِّ التى تُولَد من تطبيق هذه الأفكار حتى من غير أن يُشْـعَر بها، وهو يَسْـمَعُ، فقط، ما ألقته الطبيعة فيه من مزاج، لا الذوقَ الذى لم يستطع اكتسابَه، فتكونُ كلُّ امرأةٍ صالحةً له.

والناسُ، إذ يقتصرون على الحُبِّ البدنىّ، ويكونون من السعادة ما يَجْهَلون معه هذه المُفَضَّلاتِ التى تَهيج الإحساسَ وتَزِيدُ المصاعب فيهم، يجب أن يكون شعورُهم بحرارة المزاج أقلَّ حدوثًا ونشاطًا، ومن ثَمَّ يجب أن تكون المنازعاتُ بينهم أكثرَ نُدْرةً وأقلَّ قسوة، وما كان الخيالُ الذى يَفُتُّ فينا كثيرًا ليخاطب القلوبَ الوحشية مطلقًا، فكلٌّ ينتظر اندفاعَ الطبيعة بهدوء، وهو يَفْرُغُ لها من غير خِيار ومع لذةٍ أعظمَ من الصَّولة، فإذا قُضِىَ الوَطَر خَمَدَت الرغبة.

ومما لا رَيْبَ فيه، إذَنْ، كونُ الحُبِّ نفسِه، كجميع الأهواء، لم يَنَلْ فى غير المجتمع تلك الحرارةَ الصائلة التى تجعله شُؤْمًا على الناس غالبًا، ومن موجبات السُّخْرِية كثيرًا أيضًا أن يُعْرَض الهَمَجُ مُتَذابحين بلا انقطاع إرواءً لغُلَّة بَهِيمِيَّتِهم لمخالفة هذا الرأى للتجرِبة مباشَرَةً، ولأن الكَرَايب، وهم أقلُّ الشعوب الموجودة ابتعادًا عن الحال الطبيعية حتى الآن، هم أكثرُ الشعوب هدوءًا فى حبِّهم وأقلُّهم غَيْرةً، وإنْ كانوا يعيشون فى إقليمٍ مُحْرِقٍ يَظْهَر أنه يَمْنَح هذه الأهواءَ نشاطًا بالغًا على الدوام.

وأما من حيث الاستقراءاتُ التى يُمْكِن الوصولُ إليها فى كثيرٍ من أنواع الحيوان عن الوقائع التى تُدْمى أحواشَ دجاجنا فى كلِّ وقت، أو التى تُدَوِّى بأصواتها غاباتُنا أيام الربيع حينما تتنازعُ الإناثَ، فيجب أن يُبْدَأ باستثناء جميع الأنواع التى جَعَلَت الطبيعةُ بينها، فى قوة الأجناس النسبية، علاقاتٍ تختلف عن التى بيننا كما هو واضح، وهكذا لا يَصْلُح ما بين الدُّيُوك من عِرَاكٍ أن يَكُون استقراءً للنوع البشرىّ، ففى الأنواع التى تُحْسَن مراعاةُ النسبة فيها لا يكون لهذه الوقائع أسبابٌ غيرُ نُدْرة الإناث بالقياس إلى الذكور، أو الفواصلِ المانعة التى تأبى الأنثى فيها اقترابَ الذكر باستمرار، وهذا ما يُرَدُّ إلى السبب الأول، وذلك لأن كلَّ أنثى إذا كانت لا تَقْبَل الذكر فى غير شهرين من السنة فإن هذا يَعْدِل نَقْص عددِ الإناث خمسةَ أسداس، والواقعُ أن كلًّا من الحالين لا يُطَبَّقُ على النوع البشرىّ حيث يزيد عدد الإناث على عدد الذكور عادةً، وحيث لم يلاحَظْ قَطُّ، حتى بين الهَمَج، وجودُ أوقاتٍ معينة للأهواء وعدمِ المبالاة كما بين الحيوانات الأخرى، ثم إنه يأتى بين كثير من هذه الحيوانات، وحين دخول جميع النوع فى دَوْرٍ من الهيجان، وقتٌ هائلٌ لِلْوَلَع الشامل وللضوضاء والفوضى والاعتراك، وقتٌ

لا عهد به للنوع البشرىّ الذى لا يكون الحُبُّ عنده دَوْرِيًّا على الإطلاق، ولذلك لا ينبغى لنا أن نستدلَّ من وقائع مثل هذه الحيوانات لحيازةِ نساءِ اتفاقَ ذات الأمر للإنسان فى حال الطبيعة، حتى إنه إذا أمْكن استنباطُ هذه النتيجة أُبْصِرَ أن هذه المنازعاتِ لا تَقْضى على الأنواع الأخرى مطلقًا، فلا يكون لدينا سببٌ يَحفِزُنا إلى التفكير فى كونها أكثرَ شؤمًا على نوعنا، ومن الواضح جِدًّا كونُها تؤدى إلى تخريبٍ فى ذلك أيضًا أقلَّ مما تؤدى إليه فى المجتمع، ولا سيما البلدانُ التى تُعَدُّ الطبائعُ فيها شيئًا مذكورًا فتُسفِر غَيْرَةُ العُشَّاق وانتقامُ الأزواج فى كلِّ يوم عن مبارزاتٍ ومَقَاتلَ وشرٍّ من ذلك، والتى لا يَنْفَع فيها واجبُ الوفاء الأزليّ لغير الزِّنى، والتى تَنْشُر قوانينُ العَفَاف والشرف نفسُها ضروبَ الدعارةِ بحكم الضرورة وتَزيد الإجهاضات.

ولنستنتجْ كونَ الإنسان الوحشىّ، وهو يَطُوفُ فى الغاب عاطلًا من الصِّناعة والكلام والمَسْكن والحرب والرابطة، ومن أىِّ احتياجٍ إلى أمثاله، ومن أية رغبةٍ فى الإضرار بهم، ومن تمييزٍ أىِّ واحدٍ منهم فرديًّا على ما يحتمل، كونَ هذا الإنسان الذى هو عُرْضةٌ لقليلٍ من الأهواء والذى يكفى نفسَه بنفسه، لم يكن عنده غيرُ المشاعر والمعارف الخاصة بهذه الحال، ولنستنتجْ أنه لم يكن ليَشْعُرَ بغير احتياجاته الحقيقية، وأنه لم يكن لينْظُر إلى غير ما يعتقد وجودَ مصلحةٍ له فى رؤيته، وأن ذكاءه كان لا يتقدم أكثرَ من زهوه، فإذا ما قام باكتشافٍ مصادفةً كان أقلَّ مَنْ يُمْكِنُه نقلُه إلى الآخرين ما دام لم يَعْرِف حتى أولاده، وكان كلُّ فنٍّ يزول مع المخترع، وكان لا يُوجَد تربيةٌ ولا تقدم، وكانت الأجيال تتعاقب على غير جَدْوَى، وكان كلُّ جيل يَسِير من ذات النقطة دائمًا، وكانت القرون تَمُرُّ ضِمْنَ بربريةِ الأجيال الأولى، وقد أصبح النوع مسنًّا والإنسانُ ولدًا.

وإذا كنتُ قد أسهبتُ كثيرًا فى افتراض هذه الحال الابتدائية فلوجود أضاليلَ قديمةٍ كثيرة ومبتسراتٍ متأصلة يجب اقتلاعها، ولاعتقادى وجوبَ بحثى حتى الجذورِ وإثباتى فى صورةٍ صادقة لحال الطبيعة مقدارَ بُعْدِ التفاوت، حتى الطبيعىّ، من أن يَنْطَوِىَ فى هذه الحال على حقائق ونفوذٍ يفترضهما كُتّابنا.

والحقُّ أن من السهل أن يُرَى بين الفروق التى تَميزُ الناسَ كثيرٌ يُعَدُّ طبيعيًّا مع أنه من صنع العادة وصُنْعِ أنواع الحياة التى ينتحلها الناس فى المجتمع، وهكذا فإن المِزَاج المتين أو القَصِف، وإن القوةَ أو الضعف اللذين يُشْتَقَّان منه، يَصْدُران فى الغالب عن الطِّراز الشديد أو المُخَنَّث الذى نُشِىء عليه أكثرَ مما عن نظام الأبدان الابتدائىّ، وقُلْ مِثْلَ هذا عن قُوَى النفس، فليست التربيةُ وحدَها هى التى تَضَعُ الفرق بين النفوس المُثَقَّفَة وغيرِ المثقفة، وإنما تَزِيدُ الفرقَ الذى يوجد بين الأولى بنسبة الثَّقافة، وذلك لأن العملاق والقَزَم يسيران على ذات الطريق، ولأن كلَّ خُطوةٍ يقوم بها كلٌّ منهما تُنْعِم على العملاق بفائدة جديدة، والواقعُ أنه إذا ما قِيسَ تنوعُ التربية العجيبُ وأنواعُ الحياة التى تَسُودُ مختلفَ نُظُمِ الحال المدنية ببساطة الحياة الحيوانية والوحشية ونمطيتِها حيث يغتذى الجميع من ذات الأطعمة ويعيش على ذات الوجه ويَصْنَع عينَ الأشياء تمامًا أُدْرِك مقدارُ ما يجب أن يكون عليه الاختلافُ بين الإنسان والإنسان فى حال الطبيعة أقلَّ مما فى حال المجتمع، ومقدارُ التفاوت الطبيعىُّ الذى يجب أن يزيد فى النوع البشرىِّ بتفاوت النظام.

بَيْدَ أن الطبيعة إذا ما أبدت فى توزيع هِبَاتها من المحاباة ما يُعْزَى إليها؛ فأىُّ فائدةٍ يَنَال من ذلك أكثرُ الناس حُظْوَةً لديها إجحافًا بالآخرين فى حالٍ من الأمور لا يكاد يقول بأىِّ نوعٍ من الصلات بينهم؟ وما نَفْعُ الجمال حيث لا يُوجَدُ حُبٌّ مطلقًا؟ وما نَفْعُ الذكاء لأناسٍ لا يتكلمون مطلقًا؟ وما نفع الحيلة لأناس ليس لديهم أعمالٌ مطلقًا؟ ومما أسْمَعُ تكرارَه دائمًا كونُ الأقوياءِ يضطهدون الضعفاء، ولكنْ ليُشْرَحْ لى ما يُعْنَى بكلمة الاضطهاد، ويُسَيْطِر بعضُهم بعنفٍ، ويَئِن الآخرون المُعَبَّدون لأهوائهم، وذاك ما أُلاحظ بيننا تمامًا، ولكننى لا أرى كيف يُمْكِن هذا أن يقال عن أناسٍ من الهَمَج لم يَسْهُلْ جعلُهم يَتَصَوَّرون ما نَعْنِى بالسيطرة والعبودية، أجَلْ، يُمْكِن إنسانًا أن يستولىَ على فواكهَ اقتطفها إنسانٌ آخر، وعلى قنيصةٍ ذَبَحها، وعلى كهفٍ اتخذه ملجأً، ولكن كيف يمكنه أن يكون قادرًا على حَمْلِه على الطاعة؟ وأىُّ قيودٍ للتابعية يُمْكِن أن تكون بين أناسٍ لا يَمْلِكون شيئًا؟ وإذا ما طُرِدتُّ من شجرةٍ مثلًا أمكننى أن أذهب إلى أخرى،

وإذا ما أُوذِيتُ فى مكانٍ فمن ذا الذى يمنعنى من الذهاب إلى مكان آخر؟ وإذا ما وُجِدَ إنسانٌ أقوى منى، إنسانٌ على شىء من الفساد والكسل والقسوة ما يَحْمِلُنى معه على تدارك قُوتِه فى أثناء بِطالته، وَجَبَ أن يَعْزِم على عدم غُفُوله عنى طَرْفةَ عين، وعلى إمساكى مُقَيَّدًا بعنايةٍ فائقة فى أثناء نومه، وذلك خشيةَ أن أفِرَّ أو أن أقتله، أى أن يُلْزَم بعَرْض نفسه مختارًا لمشقةٍ أعظمَ من التى يريد اجتنابَها ومن التى يريد توجيهها إلىَّ، وإذا ما فَتَرَ حَذَره ثانيةً بعد جميع هذا وحَوَّل رأسه لصوت مفاجئ، أوْغلْتُ فى الغابة عشرين خُطوة، وتُكْسَر قيودى، ولن يرانى مدَى حياته.

وإنى، من غير إسهابٍ فى هذه الجزئيات على غير جَدْوَى، أرى وجوبَ بَصَرِ كلِّ واحدٍ فى كون روابط العبودية لم تؤلَّف من غير اتباع بعض الناس لبعضٍ اتباعًا متقابلًا ومن الاحتياجات المتبادلة التى تَصِلُ ما بينها فيَتَعذَّرُ استبعادُ إنسانٍ من غير سابقِ وَضْعٍ له فى حالِ من لا يستَغنى عن آخر، أى وَضْعٍ لا يوجد فى حال الطبيعة حيث يكون كلُّ واحدٍ سيدَ نفسه ولا يكون لقانون الأقوى أىُّ عمل.

وإنى، بعد أن أثبتُّ أن التفاوت لا يكاد يُشْعَر به فى حال الطبيعة، وأن نفوذه فيها يكون صِفْرًا تقريبًا، بَقِىَ علىَّ أن أُبَيِّن أصله وتقدُّمَه فى نشوءِ الروح البشرية نشوءًا متعاقبًا، وإنى، بعد أن بينتُ أن الكمال والفضائلَ الاجتماعية وغيرها من المزايا التى تكون كامنةً فى الإنسان الفطرىِّ لا تستطيع أن تَنْمُوَ من تلقاء نفسها، وأنها كانت تحتاج، لوقوع هذا، إلى تضافرِ عواملَ كثيرةٍ غريبةٍ تضافرًا عَرَضيًّا، فكان يُمْكِن ألا تَظْهَر، وكان الإنسان يَظَلُّ بدونها فى حاله الابتدائية إلى الأبد، بَقِىَ علىَّ أن أُنعم النظر فأُقَرِّبَ بين مختلف المصادفات التى استطاعت أن تُكْمِل العقل البشرىَّ بإفساد النوع وأن تُحَوِّل الإنسان إلى شِرِّير بجعله اجتماعيًّا، وأن تَجْلب الإنسانَ والعالَمَ فى نهاية الأمر، ومنذ زمنٍ بعيدٍ، إلى النقطة التى نراهما فيها.

وبما أن من الممكن أن تكون الحوادثُ التى أَصِفُها قد وقعت على وجوهٍ مختلفة فإننى أعترف بأنه ليس لدىَّ غيرُ الفَرْضِيَّات ما أُعَيِّن به خِيَارى، بَيْدَ أن فَرضياتٍ كهذه تُصْبِح أسبابًا عندما تكون أرْجَحَ ما يمكن استنباطه من طبيعة الأمور، والوسائلَ الوحيدةَ لاكتشاف الحقيقية، ومع

ذلك فإن النتائج التى أريد استخراجَها ليست فَرضيةً، ما تَعَذَّرَ وَضْعُ أيةِ نظريةٍ أخرى، بناءً على المبادئ التى أُقَرِّرها، لا تُمِدُّنى بذات النتائج ولا أستطيع أن أستنبطها منها.

وهـذا يُغْنِينِـى عن جَعْلِ تأملاتى شـاملةً للأسـلوب الـذى يُعَوَّض به مـرورُ الزمن من قلة احتـمال وقوع الحوادث، وللقدرة العجيبة فى العلل التافهة عند تأثيرها بلا مَهْل، ولتَعَذُّر نَقْضِ بعـض الافتراضـات من ناحيةٍ وإن كنا لا نسـتطيع أن نُعْطِيَها، من ناحيـةٍ أخرى، درجةَ ثبوت الوقائـع، ولكونه يَدْخُل ضِمن نطـاق التاريخ، لدى وجوده، وعندما يُظْهَـرُ من الوقائع أمران على أنهما حقيقيان فيُرْبَطُ بينهما بسلسـلةٍ من الوقائع المتوسـطة المجهولة أو المُفْتَرَض أنها كذلك، أن يَمْنَح الوقائعَ التى تَرْبِطُ بينهما، ولكونه يَدْخُل ضِمْنَ نطاق الفلسـفة، عند سـكوت التاريخ، أن تُعَيِّن الوقائعَ المماثلة التى يُمْكِن أن تَرْبِط بينهما، ثم لكون المشابهة، فى موضوع الحوادث، تَرُدُّ الوقائـعَ إلى عدد قليلٍ جدًّا من الأصناف المختلفة أكثرَ مما يُتَصَوَّر، ويكفينى أن أَدَعَ هذه الأمورَ لتقدير قضاتى، وأن آخذ من الترتيب ما لا يحتاج معه القارئ العامىُّ إلى تَدَبُّرها.

القِسْمُ الثَّانِي

كان مؤسسُ المجتمعِ المدنىّ الحقيقىُّ هو الإنسانُ الأولُ الذى سَوّرَ أرضًا فرأى أن يقول: «هى لى»، وقد وَجَد من البسطاء من يُصَدِّقونه، فكان مؤسسَ المجتمع المدنىّ[1] الحقيقىّ، وما أكثر ما صان النوع البشرىّ من جرائمَ وحروبٍ وقتلٍ وبؤسٍ وهولِ ذلك الذى خَلَع الأوتاد وملأ الخندق وهو يقول: «احْذَرُوا سماعَ هذا الدَّجّال، فالهلاكُ يُكْتَبُ لكم إذا نَسِيتُم أن الثَّمَرَاتِ للجميع وأن الأرض ليست مُلكًا لأحد»! ولكن يوجد ما يدلُّ كثيرًا على كون الأشياء قد بلغت إذ ذاك درجةً عادت لا تستطيع البقاءَ معه كما كانت، وذلك لأن فكرة التملُّك، إذ كانت تابعةً لكثيرٍ من الفِكَر السابقة التى لم تستطع أن تنشأ إلَّا بالتتابع، لم تُكَوَّن دفعةً واحدة فى نَفْسِ الإنسان، فوَجَب أن يقع تقدمٌ كثير، وأن يتمَّ كثيرٌ من الصِّناعة والمعارف، وأن يُنْقَل هذا ويُزَادَ بين جيلٍ وجيل قَبْلَ بلوغِ هذا الحدِّ الأخير من حال الطبيعة، ولنتناولِ الأمورَ من عَلِ إذَنْ، ولنحاولْ أن نجمعَ تحت وجهة نظرٍ تعاقبَ الحوادث والمعارف؛ ذلك فى نظامها الأكثرِ طبيعيةً.

وكان أولُ إحساسٍ فى الإنسان شعورَه بوجوده، وكان أولُ اعتناءٍ فى الإنسان اهتمامَه ببقائه، وكانت إنتاجاتُ الأرض تُقَدِّم إليه جميعَ ما يحتاج إليه، وكانت الغريزة تَحْمِله على استعمال هذا، وكان الجوعُ وغيرُه من الشَّهَوات يُشْعِرُه بمختلف أساليب البقاء مناوبةً، فكان يوجد فى هذا ما يَدْعُوه إلى إدامة نوعه، وبما أن هذا الميلَ الأعمى عارٍ من كلِّ شعورٍ قلبىٍّ فإنه كان لا يُسْفِر عن غيرِ عملٍ حيوانىّ خالص، فإذا ما قُضِىَ الوَطَرُ عاد الجنسان لا يتعارفان، وعاد الولد لا يكون للأمِّ شيئًا مذكورًا عندما ما يستطيع الاستغناء عنها.

هذا ما كان عليه حال الإنسان الناشئ، وهذا هو عيش الإنسان المقصورِ فى أول الأمر على الإحساسات الخالصة، والذى لا يكاد يستفيد من هِبَاتٍ تَعْرِضها الطبيعة عليه، والذى يَبْعُد من التفكير فى انتزاع شىء منها، ولكن المصاعب لا تَلْبَث أن تظْهَر، فيجب التغلب عليها، فارتفاعُ الأشجار الذى كان يَمْنَعه من الوصول إلى ثمراتها، وتسابقُ الحيوانات التى كانت

---

(١) «كان هؤلاء الأولاد المساكين يقولون: هذا الكلب لى، وهنالك مكانى تحت الشمس، وذلك هو بدء اغتصاب جميع الأرض وصورته» [بسكال، الأفكار، القسم الأول، مادة ٩: ٥٣].

تحـاول الأكلَ منها، وضِرَاءُ الحيوانات التى كانـت ترغب فيها حفظًا لحياتها، أمورٌ كانت تَحْمِله عـلى تَعَوُّد التمرينات الرياضية، فوَجَب أن يكون نشـيطًا سريعَ العَـدْوِ قويًّا فى القتال، ولم تُعَتِّم الأسـلحة الطبيعية، التى هى من غصون الشـجر ومن الحجارة، أن أصبحت قبضتَه، وقد تعلَّم اقتحـامَ عوائق الطبيعة، ومكافحةَ الحيوانات الأخرى عند الضرورة، ومنازعةَ الناسِ الآخرين قُوتَه، أو تعويضَ نفسه مما كان قد أُجْبِرَ على تركه للأقوى.

وقد زادت مشاقُّ الناس بنسبة تكاثر النوع البشرىّ، ولا بُدَّ من أن يكون اختلافُ الأرَضين والأقاليم والفصول قد جعل فُرُوقًا فى طِراز حياتهم، وقد تطلبت سـنونَ عقيمةٌ وفصولُ شـتاءٍ طويلـةٌ قاسـية وفصولُ صيفٍ محرقـةٌ تأتى على كلِّ شـىء صِناعةً جديدةً منهـم، وقد اخترعوا الشِّـبَاكَ والصَّنانيرَ على شـواطئ البحر وضِفاف الأنهار وأصبحوا عَرَكًا[1] وأَكَلَةَ سـمكٍ، وقد صنعوا أقواسًـا وسـهامًا فى الغابات وصاروا صيادين ومحاربين، وقد ألْبسوا أنفسَهم فى البلدان الباردة جلودَ الحيوانات التى كانوا يذبحونها، وما كان من صاعقةٍ أو بركانٍ أو مصادفةٍ مباركة دَلَّهم على النار التى هى وسـيلةٌ جديدةٌ ضِدَّ شـدة الشتاء، فتعلموا حفظَ هذا العنصر، ثم إيجادَه ثانيةً، ثم إعدادَهم به ما كانوا يلتهمونه نَـيِّـئًا من اللحوم.

ومـا كان من تطبيقِ مختلفِ الموجودات المُكَرَّر لنفسـه، ومن بعضهـا لبعضٍ، أَوْجَدَ فى نَفْس الإنسان، بحُكْم الطبيعة، إدراكًا لبعض الصلات، وقد أوجبت هذه الصلاتُ ـ التى نُعَبِّر عنها بكلـمات الكبير والصغير والقـوىّ والضعيف والسريع والبطىء والجبان والجسـور، وما إليها من الأفكار المماثلة المقابَل بينها عند الحاجة، ومن غير أن يُفَكِّر فيها تقريبًا ـ فى الإنسان نوعًا من التأمل، وإن شئت فقل حَذَرًا آليًّا يَدُلُّه على أكثر الاحتياطات ضرورةً لسـلامته.

وقد زادت المعارفُ الجديدة التى صدرت عن هذا النشوء أفضليتَه على الحيوانات الأخرى بجعله شـاعرًا بهـا، فَتَمَرَّنَ على نَصْـبِ أشراكٍ لها، وخادَعَها بألف طريقـة، وغدا مالكَ بعضها ونِقْمَـةً عـلى بعضها الآخر مع الزمن؛ وإن كان كثيرٌ منهـا يفوقه سرعةَ عَدْوٍ أو قوةَ عِرَاكٍ بين ما

(١) العرك: جمع عركىّ، وهو صياد السمك.

يَقْدِر أن يَخْدِمُه أو يَضُرَّه، وهكذا فإن أول نظرةٍ أَلْقاها على نفسه أدت إلى أول حركةِ زَهْوٍ فيه، وهكذا فإنه لم يَكَدْ يَعْرِفُ أن يَمِيزَ بين المراتب وأن يتأمَّل فى الأولى الخاصة بنوعه حتى أعَدَّ السبيلَ من بعيد لادعاء الأفضلية كفرد.

ومع أن أمثاله لم يكونوا تِجاهه مثلهم تِجاهنا، ولم يخالطهم أكثرَ من مخالطته الحيواناتِ الأخرى قَطُّ، فإنهم لم يغيبوا عن نطاق ملاحظاته، وما كان من مطابقاتٍ استطاع الزمان أن يَحْمِله على الانتباه إليها بينهم، وبين نفسه وأُنْثاه، جَعَله يَحْكم فى أمر الآخرين الذين لم يَرَهم، وهو، إذ أبصر سلوكهم جميعًا كما كان يَصْنَع فى مثل هذه الأحوال، انتهى إلى النتيجة القائلة إن طراز تفكيرهم وشعورِهم يطابق ما عنده، وقد حَفَزته هذه الحقيقةُ المهمةُ الراسخةُ فى ذهنه إلى اتباعه، عن حَدْسٍ أصدقَ وأسرعَ من أىِّ علمٍ منطق، أحسنَ قواعدِ السلوك التى راعاها نحوهم فى سبيل سلامته وفائدته.

وقد عَلِم من التجرِبة أن حُبَّ الرَّفاهية هو الدافع الوحيد لأعمال البشر، فوَجد نفسه فى حالٍ يَميزُ فيها الفُرَصَ النادرةَ التى تَجْعَله المصلحةُ المشتركة يعتمد فيها، كما يجب، على مساعدة أمثاله، والفُرَصَ التى هى أكثرُ نُدْرَةً أيضًا فى حَمْل المزاحَمةِ إياه على الحَذَر منهم كما يجب، ففى الحال الأولى كان يَتَّحد معهم ضِمْن قطيعٍ، أو ضِمْن شركةٍ طليقة، نوعًا ما، لا تُلْزِم أحدًا ولا تدوم أكثر من دوام الاحتياج الذى أدَّى إلى تأليفها، وفى الحال الثانية كان كلُّ واحدٍ يَبْحَث عن منافعه الخاصة، وذلك عن قَسْرٍ، إذا ما أبصر نفسه قويًّا بدرجة الكفاية، أو عن حيلةٍ وحِذْقٍ، إذا ما شَعَر بأنه الأضعفُ.

ومن ثَمّ تَرَى كيف استطاع الناسُ أن ينالوا، من غير أن يَدْرُوا، فكرةً غليظة عن الالتزامات المتقابلة وفوائدِ القيام بها، ولكن بمقدار ما يُمْكن أن تقتضيه المصلحةُ الحاضرة الظاهرة، وذلك لأنهم لا عهد لهم بالبصر فى العواقب، فكانوا بعيدين من الاكتراث لمستقبلٍ بعيد، ولم يكونوا ليفكِّروا حتى فى الغد، فإذا ما وَجَب نَيْلُ وَعْلٍ شَعَر كلُّ واحدٍ بوجوب التزامه مكانَه مخلصًا، ولكنْ إذا مَرَّ أرنبٌ ضِمْنَ متناوَل أحدهم، لم يُشَكَّ فى كونه يتعقبه من غير تردُّد.. فإذا فاز بقنيصته، لم يُبَالِ كثيرًا فى كون رفقائه يُخطِئون طريدتَهم.

ومن السهل إدراكُ كونِ مثلِ هذه المخالطة لم يتطلب لغةً أدقَّ من لغة الغِرْبان والقِرَدة التى تتجمع على ذلك النمط تقريبًا، فما كان من أصواتٍ عديمةِ المفاصل، ومن حركاتٍ كثيرة وصَرَخاتٍ تقليدية وَجَب أن يكون قد تألَّف منه لسانٌ عامٌّ زمنًا طويلًا، وإلى ذلك يُضَافُ فى كلِّ بلدٍ بعضُ أصواتٍ اتفاقيةٍ ذاتِ مفاصلَ ليس من السهل كثيرًا إيضاحُ نظامها كما قلتُ آنفًا فحَدَثتْ لغاتٌ خاصة، ولكنْ غليظةٌ ناقصة، كالتى تُوجَد بين بعض الأمم الوحشية فى الوقت الحاضر.

وأجُوبُ كسهمٍ عددًا كبيرًا من القرون مأخوذًا بالزمن الذى يَمُرُّ وبكثرة الأمور التى علىَّ أن أتكلَّم عنها، وبتقدم الأمور غيرِ المحسوس تقريبًا فى أوائلها، وذلك لأن الحوادث كلما كانت بطيئةً فى تعاقبها وُصِفَت بسرعة.

وذلك التقدمُ فى أوائل الأمور مَكَّن الإنسان من القيام بتقدمٍ آخرَ بأسرعَ من ذلك، وكلما تنوَّرت النفوس تكاملت الصناعة، ولسرعان ما انقطع الإنسان عن النوم تحت أول شجرة، أو الانزواءِ فى كهوف، فقد اخْتُرِعت أنواعٌ من الفؤوس الحجرية القاسية الحادَّة، واسْتُخْدِمت فى قَطْع الحطب، وحفر الأرض، وصنعِ أكواخٍ من غُصُونٍ رُئِىَ طَلْيُها بالطين والوَحَل، وهنالك كان دَوْرُ أول انقلابٍ أسفر عن تأليف الأُسَر والتفريق بينها وعن اتخاذ ضَرْبٍ من المُلك نشأ عنه كثيرٌ من الخصام والعِراك، وبما أن الأكثرَ قوةً، مع ذلك، هم أولُ من أنشأوا لأنفسهم، كما يَلُوح، مساكنَ كانوا يَشْعُرون بقدرتهم على الدفاع عنها فإن هذا يَحْمِلُ على الاعتقاد بأن الضعفاء وَجَدُوا أنه أقصرُ وأضمنُ لهم أن يقلدوا الأقوياءَ من أن يحاولوا طردَهم من منازلهم، وأما أولئك الذين كانت لديهم أكواخٌ فإنه لم يَكُنْ لِيَنْبَغىَ لأحدٍ أن يحاول وَضْعَ يدَه على كوخ جاره، وذلك عن كَونه غيرَ خاصٍّ به أقلَّ من كونه غيرَ نافع له، وعن كونه لا يستطيع الاستيلاء عليه من غير أن يُعَرِّض نفسه لمقاتلة الأُسْرة التى تَشْغَله قتالًا شديدًا.

وكان أولُ نشوءٍ فى الفؤاد نتيجةَ وضعٍ جديد جامع فى منزلٍ مشتركٍ بين الأزواج والنساء والآباء والأولاد، وقد أدت عادةُ العيش معًا عن ظهور أرقِّ ما يُعْرَف عن الناس من المشاعر، أى الحبِّ الزوجىِّ والحبِّ الأبوىِّ، وقد أصبحت كلُّ أُسرةٍ مجتمعًا صغيرًا بالغَ الاتحاد لكون الحرية والوِداد المتبادَل كانا الرابطتين الوحيدتين، وهنالك قام أولُ اختلافٍ فى طراز حياة

الجنسين اللذين لم يكن لهما غيرُ طرازٍ واحدٍ حتى ذلك الحين، فصار النساء أكثرَ قُعودًا وتَعَوَّدْن المحافظةَ على الكوخ والأولاد على حين كان الرجل يذهب للبحث عن الطعام المشترك، وبدأ الجنسان يَفْقِدان شيئًا من توحشهما وشدّتهما عن حياةٍ أكثرَ لِينًا، ولكن كلَّ واحد إذا صار أقلَّ صلاحًا لمكافحة الحيوانات الوحشية على انفراد غَدَا أسهلَ على الإنسان، بالمقابلة، أن يَتَجمع لمقاومتها مشتركًا.

والناسُ فى هذه الحال الجديدة، إذ تمتعوا بفراغٍ عظيم جدًّا، مع حياةٍ بسيطة منفردة، واحتياجاتٍ محدودة جدًّا، وأدواتٍ كانوا قد اخترعوها لقضاء هذه الحاجات، اتخذوا هذه الحياة نَيْلًا لأنواع كثيرة من الرَّفاهية لا عَهْدَ لآبائهم بها، فكان هذا أولَ نِيرٍ فَرَضوه على أنفسهم من غير أن يفكروا فيه، وأولَ منبعٍ للشرور أَعَدُّوه لذراريهم، وذلك لأنك إذا عَدَوْت استمرارَهم على التخَنُّث بدَنًا وروحًا هكذا، وكونَ هذه الرَّفاهة فقدت جميعَ لَذَّتها عن عادةٍ، وأنها تَحَوَّلت منحطةً إلى احتياجات حقيقية، وجدتَ فَقْدَها أشدَّ قسوةً مما فى حيازتها من حلاوة، فيكون الإنسان شقيًّا بضَيَاعها من غير أن يكون سعيدًا بحيازتها.

وهنا يُمْكِن أن يُبْصَر أحسنَ من ذلك كيف أن عادة الكلام قامت أو كَمَلَتْ فى صميم كلِّ أُسرةٍ على وجهٍ غير محسوس، ويُمْكِن أن يُفْتَرَض، أيضًا، كيف استطاع مختلفُ العلل الخاصة توسيعَ اللغة وتعجيلَ نشوئها بجعلها أكثرَ لزومًا، ومن الطوفانات والزلازل ما أدى إلى إحاطة بقاعٍ مسكونةٍ بالمياه أو بالهُوَّات، ومن الانقلابات فى الكُرَة الأرضية ما أدى إلى اقتطاع أجزاءٍ من القارَّة وفصلها عنها مُحَوِّلةً إلى جزائر، ومما يُرَى بين الناس الذين تَدَانَوْا على هذا الوجه واضْطُرُّوا إلى العيش معًا وجوبُ تَكَوُّن لهجةٍ مشتركة أكثرَ مما بين من كانوا يَتِيهُون فى غابات القارَّة، وهكذا فإن من المحتمل جِدًّا أن يكون الجَزَريون قد حَمَلوا إلينا عادةَ الكلام بعد أول محاولتهم للمِلاحة، وإن من المحتمل جِدًّا، على الأقل، أن يكون المجتمعُ واللغاتُ قد وُلِدا فى الجُزُر وكَمُلَا فيها قبل أن يُعْرَفا فى القارَّة.

ويَبْدَأ كلُّ شىء بتغيير منظره، وبما أن الناس تاهوا فى الغاب حتى الآن، وبما أنهم اتخذوا قاعدة أكثر ثباتًا، تَدَانَوْا ببطءٍ وتَجَمَّعوا زُمَرًا ثم أَلَّفوا فى كلِّ بقعة أمة خاصة متحدةً طبائعَ وأخلاقًا، لا

بأنظمةٍ وقوانينَ، بل بطرازٍ واحد من الحياة الغذائية وبتأثيرِ الإقليم العامِّ، وأخيرًا لم يَفُت الجوارُ الدائم أن يُوجِد ارتباطًا بين مختلف الأُسَر، ويَسْكن شبابٌ من الجنسين أكواخًا مجاورة، وأسفر الخِلَاط العابر الذى تقتضيه الطبيعة من فَوْره عن خِلَاطٍ آخرَ ليس أقلَّ حلاوةً، وهو أكثرُ دوامًا بمعاشرة متبادلة، ويُتَعَوَّد النظرُ فى مختلف الموضوعات وعَمَلُ مقايساتٍ، وتُكْتَسَبُ على وجه غيرِ محسوسٍ أفكارٌ عن المزية والجمال تُنْتِج مشاعرَ عن الأفضلية، وعاد لا يُمْكِن الاستغناءُ عن الاجتماع باستمرارٍ وصولًا إلى الاجتماع، ويَنْساب فى النفس شعورٌ رقيق ناعم، ويتحول إلى هياجٍ صائل عند أقل اعتراض، وتستيقظ الغيرةُ مع الحبِّ، ويفوز الخلاف، ويُضَحَّى بالدم البشرىِّ فى سبيل ألطف الأهواء.

وكلما تعاقبت الأفكار والمشاعر، وتَحَرَّكَ الفؤاد والذكاء، داوم الجنس البشرىُّ على التأنُّس، واتسع مدى الروابط، ووَثُقَت الصلات، ويُتَعَوَّد الاجتماع أمام الأكواخ أو حَوْلَ دَوْحة[1]، ويصبح الغناء والرقص وأولادُ الغرام والفراغِ الحقيقيون مدارَ تسليةٍ، وإن شئت فَقُلْ مدارَ اعتناءٍ، رجالٍ ونساءٍ من ذوى البِطالة والاحتشاد، وقد بدأ كلٌّ ينظر إلى الآخرين ويريد أن يُنْظَر إليه بدَوْره، وهكذا كان للتقدير العامّ قيمة، فأصبح من يُغَنِّى أو يرقص أحسنَ من غيره، ومن هو أعظم جمالًا، أو قوةً، أو مهارةً، أو فصاحة، من سواه أكثرَ اعتبارًا، وكان هذا أولَ خُطوةٍ نحو التفاوت ونحو العَيْب فى وقت واحد، وقد نشأ الزهوُ والازدراءُ عن هذه الأفضليات الأولى من ناحيةٍ، ونشأ الحياءُ والحسد عنها من ناحية أخرى، وما أوجبته هذه الخمائرُ الجديدةُ من اختمارٍ أسفر فى نهاية الأمر عن مركَّباتٍ شؤمٍ على السعادة وصفاء القلب.

ولم يَكَد الناسُ يبدءون بتقدير بعضهم بعضًا مبادَلةً، ولم تَكَدْ فكرة الاعتبار تتكوَّن فى نفوسهم، حتى زَعَم كلٌّ وجودَ حَقٍّ له فى ذلك، وصار يتعذر إنكار ذلك على أحدٍ من غير عقاب، ومن هناك نشأ أولُ واجبات الأدب حتى بين الهَمَج، ومن هناك صار كلُّ خطإٍ إهانةً، وذلك لأن المُهَان كان يرى فى الشَّرِّ الذى ينشأ عن الإهانة ازدراءً لشخصه أشدَّ إيلامًا من الشَّرِّ نفسه غالبًا، وهكذا إذ كان كلُّ واحدٍ يجازِى على الازدراء المُوجَّه إليه بنسبة ما يُقَدِّر فإن

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة.

الانتقامات أصبحت هائلةً، وصار الناس قُسَاةً سَفَّاحين، وهذه هى الدرجة التى انتهى إليها بالضبط مُعْظَمُ الشعوب الوحشية التى نَعْلَم أمرَها، وإنه لَمَا وَقَع من عدم التمييز بين الأفكار بدرجة الكفاية، ومن عدم ملاحظة مقدار ما كان من ابتعاد هذه الشعوب عن الحال الطبيعية الأولى، أَسْرَع كثيرٌ فى استنتاجه كونَ الإنسان قاسيًا بحكم الطبيعة فيحتاج إلى ضابطةٍ لإلانته، وبَيْنَا لا تَجِدُ ما هو ألطفُ منه فى حاله الفطرية، عندما تضعه الطبيعة على أبعاد متساوية من غباوة الوحوش وبصائر الإنسان المتمدن المشؤومة، ويكون مقصورًا بالغريزة والعقل على ضمان نفسه من السَّوْء الذى يُهَدِّده، تراه مُزْدَجَرًا بالرأفة الطبيعية عن إساءة أحدٍ من تلقاء نفسه، وذلك من غير أن يُحْمَل عليه بشىء، حتى بعد أن يكون قد تَلَقَّاه، والأمرُ هو كما جاء فى مبدأ الحكيم لُوك القائل: «لا يُمْكن أن توجد إهانةٌ حيث لا يُوجَد تَمَلُّك».

بَيْدَ أنه يجب أن يلاحَظ أن المجتمع المبدوءَ والصلاتِ التى أُقيمت بين الناس كانا يتطلبان فيهم صفاتٍ تختلف عن الصفات التى حازوها من نظامهم الابتدائى، وأن أدب السلوك إذ أخذ يتسرب فى الأعمال البشرية، وأن كلَّ واحدٍ قَبْلَ القوانينِ إذ كان القاضىَ الوحيدَ والمنتقمَ عن الإهانات التى يكون قد تلقَّاها، فإن الصلاح الملائم للحالة الطبيعية الخالصة عاد لا يلائم المجتمعَ الناشىء، وأنه وَجبَ أن تصبح العقوباتُ أكثرَ شدةً كلما صارت فُرَصُ الإهانة أكثرَ شيوعًا، وصار الخوف من الانتقام يقوم مقام الرادع القانونىّ، وهكذا، فإن الناس وإن صاروا أقلَّ صبرًا ونَقَصَتْ رأفتُهم الطبيعية بعضَ الشىء، وَجَبَ أن يكون هذا الدور، الذى هو دورُ نشوء المواهب البشرية، أسعدَ الأدوار وأكثرَها دوامًا لَمَا يَبْدُو وَسَطًا بين بلادة الحالة الابتدائية ونشاط أنانيتنا النَّزِق، وكلما أُنعِم النظر فى ذلك وُجِدَت هذه الحالُ أقلَّ عُرْضةً للانقلابات، وأصلحَ للإنسان «١٦»، فكان لا ينبغى له أن يَخْرُج منها إلَّا عن مصادفة مشؤومة كان يجب ألَّا تَقَع لاقتضاء المصلحة العامة ذلك، ويلوح أن مثال الوحوش، الذين وَجِدَ معظمُهم فى هذه الحال، يؤيِّد كونَ الجنسِ البشرىّ قد خُلِق ليبقى فيها على الدوام، وكونَ كلِّ تقدمٍ حدث بعد ذلك خُطوةً نحو الكمال فى الظاهر ونحو هَرَم النوع فى الحقيقة.

والناسُ ما رَضُوا عن أكواخهم الخَلَوية، وما اقتصروا على خَرْز ثيابهم الجلدية بشَوْكٍ أو حَسَك، وما ازَّيَّنُوا بريشٍ وصَدَفٍ، وما نَقَشُوا بَدَنَهُم بمختلف الألوان، وما أصلحوا سهامَهم وأقواسَهم أو زخرفوها، وما شَذَّبوا بحجارة حادةٍ زوارقَ صيدٍ، أو بعضَ الآلات الموسيقية الغليظة، والخلاصةُ أن الناس ما تعاطَوْا أعمالًا يستطيع الفردُ أن يصنعها، وما اتخذوا فنونًا لا تحتاجُ إلى تضافرِ أيدٍ كثيرة، عاشوا أحرارًا أصحاءَ صالحين سُعَداءَ ما استطاعوا أن يكونوا كذلك بطبيعتهم، وما استمروا على التمتع فيما بينهم بألطافِ معاشرةٍ مستقلة، ولكن الإنسان منذ احتياجه إلى معونةِ إنسانٍ آخرَ، منذ رئِي أن من المفيد لواحدٍ أن يكون ذا مُؤَنٍ لاثنين، زالت المساواة عنده، وانتحل التملكَ، وصار العملُ ضروريًا، وتحولت الغابات الواسعة إلى حقول باسمة وَجَب أن تُرْوَى بعَرَق الناس فلم تلبث أن رُئِي فيها نشوءُ العبودية والبؤس ونموُّهما مع الغَلَّات.

وكان التعدينُ والزراعة ذَيْنِكَ الفَنَّيْنِ اللذيْنِ أدى اكتشافُهما إلى هذا الانقلاب الكبير، وعند الشاعر أن الذهب والفضة، وعند الفيلسوف أن الحديد والقمح، هما اللذان مَدَّنا الناس وأهلكا النوع البشريَّ، وقد كان كلٌّ منهما مجهولًا لدى وحوش أمريكة فبَقُوا كما هم عليه لهذا السبب، حتى إن الشعوب الأخرى ظَلَّت من البرابرة كما يَلُوح ما زاولت أحد ذَيْنِكَ الفَنَّيْن دون الآخر، ومن أوْجَه الأسباب، على ما يحتمل، فى أن أوربة كانت، إن لم يكن قَبْلًا، أثْبَتَ وأرقى حضارةً من بقية العالم هو كونُها أكثرَ فيضًا بالحديد وخِصْبًا بالبُرّ.

ومن الصعب أن يُفْتَرَض كيف انتهى الناسُ إلى معرفة الحديد واستعماله، وذلك لأن مما يتعذر اعتقادُه كونهم تَصَوَّروا من تلقاء أنفسهم استخراجَ هذه المادة من المَنْجَم وأن يقوموا فى سبيله بإعداداتٍ لا بُدَّ منها صَهْرًا لها قبل أن يَعْرِفوا ما ينشأ عن ذلك، وأقلُّ من هذا أن يُعْزَى هذا الاكتشافُ من ناحية أخرى إلى حريقٍ عَرَضيٍّ ما دامت المناجم لا تُكَوَّن فى غير الأماكن الجديبة الخالية من الشجر والنبات، فكأن الطبيعة، كما يظهر، قد اتخذت من الاحتياطات ما تُخْفِى معه هذا السِّرَّ المقدس عنا، ولم يَبْقَ، إذَنْ، غيرُ حالٍ عجيبةٍ لبرْكانٍ يَقْذِف موادَّ معدِنيةً ذائبةً فأوحى إلى الباحثين بفكرة تقليد عمل الطبيعة هذا، وكذلك يجب أن تُفْتَرَض لهم جُرْأةٌ وبصيرةٌ للقيام بهذا العمل الشاقّ، وأن يُلاحَظ من بعيدٍ ما يُمْكِن أن ينالوه من الفوائد، وهذا ما لا يلائم غيرَ نفوسٍ كانت أكثرَ ممارسةً من التى لم يَتَّفق لها مِرَاس.

وأما الزراعة فإن مبدأها عُرِف قبل أن تمارَس بزمن طويل، وليس من الممكن ألا يكون الناسُ، المنهمكون بلا انقطاعٍ فى تناول طعامهم من الشجر والنبات، قد عَنَّت لهم بسرعةٍ فكرةُ الطُرُق التى تتخذها الطبيعة لتكثير النباتات، بيدَ أن من الراجح أن تكون صِناعتهم قد تحولت أخيرًا جدًّا من هذه الناحية، وذلك إما عن كون الشجر مع صيد البرِّ والبحر قد جَهَّزهم بغذائهم، فلم يكن ليحتاج إلى عنايتهم، وإما عن جهلهم استعمال القمح، وإما عن عدم وجودِ آلاتٍ لفلاحته، وإما عن عدم بَصَرٍ فى الاحتياج القادم، وإما عن عدم وجود وسائلَ لمنع الآخرين من اغتصاب ثمرة عملهم، وهم لما أصبحوا أكثرَ جِدًّا أمكن الاعتقادُ بأنهم بدأوا يزرعون بحجارةٍ حادة وعُصِيٍّ مُذَرَّبة بعضَ البقول والجذور حَوْل أكواخهم، وذلك قبل أن يَعْرِفوا إعدادَ القمح وأن يكون عندهم من الآلات ما يزرعونه به على مقاديرَ عظيمةٍ، وذلك من غير أن يُحْسَب، لتعاطى هذا العمل وبَذْرِ الأرَضين، وجوبُ توطين النفس على خسران بعض الشىء فى البُداءة كسْبًا للكثير فيما بعد، أى القيامِ بأمرٍ بعيدٍ كلَّ البعد من ذهنية الإنسان الوحشىِّ الذى يَجِد مشقةً عظيمة فى تفكيره صباحًا فى احتياجاته المسائية كما قلتُ.

إذَنْ، كان اختراعُ الفنون الأخرى أمرًا ضروريًّا لحَمْل النوع البشرىِّ على تعاطى فنِّ الزراعة، وعندما وَجَبَ وجودُ أناسٍ لصَهْر الحديد وتطريقه، وجب وجودُ أناسٍ آخرين لإطعامهم، وكلما زاد عدد العمال قَلَّت الأيدى التى تُسْتَعْمل لتقديم الغِذاء العامِّ، وذلك مع عدم قلة الأفواه التى تستهلكه، وبما أنه وجب وجودُ غَلَّاتٍ لبعضهم بدلًا من حديدهم وَجَد الآخرون فى نهاية الأمر سِرَّ استعمال الحديد فى تكثير الغَلَّات، ومن ثَمَّ نشأت الحِراثة والزراعة من ناحيةٍوفَنُّ عمل المعاول وتكثير استعمالها من ناحية أخرى.

وأدت زراعة الأرض إلى تقسيمها، وأدى الاعتراف بالتملك إلى أُولَى قواعدِ العدل، وذلك لأنه يجب لإعادة مَالِ كُلِّ واحدٍ إليه أن يكون هذا الشخصُ مالكًا شيئًا ما، وزِدْ على ذلك كونَ الناس إذ صاروا يَنْظُرون إلى المستقبل وكان لدى الجميع ما يَخْسَره أصبح لكلِّ واحدٍ من الأسباب ما يَخْشَى معه الثَّأْر عن خطإٍ يُمْكِن أن يقترفه تِجاه الآخرين، ويكون هذا الأصلُ

أقربَ إلى الطبيعة بنسبةِ ما يتعذرُ تَمَثُّل صدورِ مبدإِ التملك عن أمرٍ خَلَا عملِ اليد، وهل يُمْكِنُ الإنسانَ أن يُضِيف غيرَ عملِه إلى أشياءَ لم يُوجِدْها فى الأصل فيَجْعَلها مُلْكَه؟ وعَمَلُ الفَلَّاح وحدَه، إذ يَمْنَحُه حقًّا فى غَلَّة الأرض التى حَرَثها، يَمْنَحُه حقًّا فى الأرض ذاتها حتى الحَصَادِ على الأقل، وهكذا تَحَوَّل التصرفُ المستمرُّ بين عامٍ وعامٍ إلى مِلْك، ومن قول «غرُوسْيُوسَ» أن القدماءَ عندما أطلقوا لقبَ المشترعة على «سِيرِسَ»، وعندما أطلقوا اسمَ القانون الحاملِ على عِيدٍ يُحْتَفَل فيه لتكريمها، قَصَدُوا بذلك كونَ تقسيم الأَرَضين قد أَسْفَر عن نوعٍ جديدٍ من الحقِّ، أى حقِّ التملك الذى يختلف عن الحقِّ الناشئ عن القانون الطبيعىّ.

أَجَلْ، كان يُمْكِن الأمور فى هذه الحال أن تَبْقَى متساويةً، لو كانت المناقبُ متساويةً، فيكون استعمالُ الحديد واستهلاكُ الغَلَّات متوازنين دائمًا، غير أن النسبة التى كان لا يُمْسِكها شىءٌ لم تَلْبَث أن زالت، فكان الأقوى أكثرَ عملًا، وحَوَّل الأكثرُ براعةً عملَه إلى أحسنِ حسابٍ، ووَجَد الأكثرُ لباقةً وسائلَ لاختصار العمل، وكَثُرَ احتياج الفَلَّاح إلى الحديد، وزاد احتياج الحَدَّاد إلى القمح، وبينما كان الاثنان يعْمَلان على السواء كان أحدهما يَكْسِبُ كثيرًا ولم يَكَد الآخرُ يَحُوز ما يعيش به، وهكذا فإن التفاوت الطبيعى ينتشر مع تفاوت الاختلاط على وجهٍ غيرِ محسوس، وإن الفُروق بين الناس التى تنمو باختلاف الأحوال أصبحت أكثرَ بروزًا ودوامًا فى نتائجها وبدأت تؤثر بذات النسبة فى نصيب الأفراد.

وبما أن الأمور قد انتهت إلى هذه المرحلة فإنه يَسْهُل تَمَثُّل البقية، ولا أَقِفُ عند وصف اختراع الفنون الأخرى المتعاقب، ولا عند تقدم اللغات واختبارِ المواهب واستخدامها، ولا عند تفاوت الحظوظ والتمتع بالثَّرَوات وسوء استعمالها، ولا عندما يَتْبَعُها من الجزئيات التى يُمْكِن كل واحدٍ أن يتدارك نقصَها، وإنما أقتصر على إلقاء نظرةٍ فى النوع البشرىّ الذى وُضِع فى نظام الأمور الجديد هذا.

وإليك، إذَنْ، جميعَ خصائصنا النامية والذاكرةَ والمُخَيِّلَةَ فاعلةً، والأنانيةَ المُغْرِضةَ، والعقلَ العامل، والذهنَ فى أقصى كماله تقريبًا، وإليك جميعَ الصفات الطبيعية عاملةً، ومكانَ كلِّ إنسانٍ

ونصيبَه القائمين على الذكاء أو الجمال أو القوة أو البراعة أو المزية أو المواهب، لا على مقدار الأموال والقدرة على النفع والضُّرّ، وبما أن هذه الصفاتِ هى التى كانت تستطيع أن تجتذب اعتبارًا وحدَها فقد وجب نَيْلُها أو تَكَلُّفُها من فَوْرها، وقد أصبح من مصلحة الإنسان أن يتظاهر بغير ما هو عليه، فما هو عليه والتظاهرُ بما هو عليه صارا أمرين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا تامًّا، وعن هذا الاختلاف نشأ الجاهُ المَهِيب والمكرُ الخادع وجميعُ المعايب التى هى مَوْكِبُ ذلك، والإنسانُ، بعد أن كان، من ناحيةٍ أخرى، حُرًّا مستقلًّا، أضحى الآن خاضعًا، عن طائفةٍ من الاحتياجات الجديدة، لكلِّ طبيعة، ولاسيما أمثالُه الذين غَدَا عبدًا لهم من جهةٍ، وإن بَدَا سيدًا لهم، فإذا كان غنيًّا احتاج إلى خِدَمهم، وإذا كان فقيرًا احتاج إلى مساعدتهم، وما كان توسط الحال ليجعله يستغنى عنهم مطلقًا، ولِذَا يجب أن يحاول بلا انقطاعٍ جعَلهم يكترثون لنصيبه، وحَمْلَهم على أن يَجِدُوا فى الحقيقة أو فى الظاهر فائدتَهم فى العمل لفائدته، وهذا ما يجعله شاطرًا محتالاً نحو أناسٍ، متجبرًا قاسيًا نحو آخرين، وهذا ما يضعه فى حالٍ من الضرورة يخادِعُ معه كلَّ من يحتاج إليهم حينما لا يستطيع إخافَتهم ولا يَجِدُ من مصلحته أن يَخْدِمهم نافعًا، ثم إن الطموح القاضم فى الناس وحُمَيَّا زيادة مالهم النسبىَّ لِيَعْلوَ بعضُهم بعضًا يوحيان إليهم جميعًا بمَيْلٍ أسودَ إلى الضَّرّ مقابلةً، يوحيان بحسدٍ خفيٍّ يكون أشدَّ خطرًا بما يَلْبَسه من قِنَاعِ الرِّفق غالبًا جَعْلاً لضربته أكثرَ سَدادًا، والخلاصةُ أن التنافسَ والتزاحمَ من ناحيةٍ، وتضاربَ المصالح والرغبةَ الخفية فى الانتفاع على حساب الآخرين من ناحيةٍ أخرى، أى أن هذه الشرور كلَّها، أولُ نتيجةٍ للتملك وموكبٌ لازمٌ للتفاوت الناشئ.

ولم تكن الثَّرَواتُ، قَبْلَ اختراع الرموز الممثِّلةِ لها، لتقوم على غير الأَرَضين والمواشى، هذه الأموال الحقيقية الوحيدة التى يُمْكِن الناسَ أن يَحُوزُوها، والواقعُ أن المواريث إذا ما زادت عددًا واتساعًا زيادةً تُغَطِّى جميعَ الأرض وَتَمَاسَّت كلُّها عاد بعضُ الناس لا يستطيع أن يتوسَّع إلا على حساب الآخرين، ولم يُغَيِّرْ شيئًا قَطُّ أولئك الزائدون على العدد والذين كان ضَعْفُهم أو تثاقُلهم قد حال دُون اكتسابهم من ذلك بِدَوْرهم، فغَدَوْا فقراء من غيرِ أن يَخْسروا شيئًا، وذلك لأنهم وحدهم لم يُغَيِّروا شيئًا قَطُّ مع أن كلَّ شىء تَغَيَّر حولهم، فاضْطُرُّوا أن ينالوا أو أن يغتصبوا

غذاءَهم من أيدى الأغنياء، ومن هنا بدأت تظهر السيطرة والعبودية والشدَّة والاغتصابات، ولم يَكَد الأغنياء يَعْرِفون لذةَ السيطرة من ناحيتهم حتى استخفوا بالآخرين من فَوْرهم، وقد سخَّروا عبيدَهم القدماء لإخضاع عبيد جُدُدٍ، وهم لم يفكروا فى غير قَهْر جيرانهم واستعبادهم، وهم فى ذلك كالذئاب الجائعة التى ذاقت لحْمَ الإنسان ذاتَ مرةٍ فصارت تَرْفض كلَّ طعامٍ آخرَ ولا تَرْغَب فى غير افتراس الناس.

وهكذا فإن الأكثرَ بأسًا والأكثرَ بؤسًا إذْ جَعلوا من قُوَّاتهم أو احتياجاتهم ضَرْبًا من الحقوق حَوْلَ مال الآخرين مساويًا حَقَّ التملك على رأيهم عَقَبَ المساواةَ المتحطمة أفظعُ ارتباكٍ، وهكذا فإن اغتصاباتِ الأغنياء ولُصُوصياتِ الفقراء وأهواء الجميع الجامحةَ إذْ خنَقَت الرأفة الطبيعية وصوتَ العدل الضعيفِ جَعلت الناسَ بُخَلاء طامحين خُبَثاء، وكان يَقَعُ بين حَقِّ الأقوى وحَقِّ واضع اليد الأول صِدَامٌ دائم لا ينتهى إلا بمعاركَ وسفكِ دماء «١٧»، وأدى المجتمع الناشئ إلى أشنع الحروب، وبما أن النوعَ البشرىَّ المَهِينَ الحزين لم يستطع بَعْدُ أن يَرْجِعَ القهقرى، ولا أن يَعْدِل عما اتَّفَق له من كَسْبٍ مشؤوم، وبما أنه لم يَعْمَل لغير ما فيه فُضُوحه بإساءة استعماله الخصائصَ التى تُشَرِّفه، فإنه وضع نفسه على حافَّة الهلاك، «فعلى الغنىِّ والفقير أن يَفِرَّا من الثَّراء، وأن يَخْسَرَا ما نَشَداه بما وُجِدَ حديثًا من شرورهما»[1].

وليس من الممكن ألَّا يكون الناس قد قاموا فى نهاية الأمر بتأملاتِ حَوْلَ وَضْعٍ بالغٍ هذا البؤس وحَوْلَ البلايا التى أُصِيبُوا بها، ويجب أن يكون الأغنياء، على الخصوص، قد شَعَرُوا من فَوْرهم بمقدار ما كانت فى غير مصلحتهم حربٌ دائمة يقومُون بجميع نفقاتها وحدَهم ويكون الخَطَر الذى يَحِيقُ بالحياة فيها عامًّا، ويكون الخَطَر الذى يَحِيقُ بأموالهم خاصًّا، ثم مهما يكن اللونُ الذى استطاعوا أن يَصْبُغوا به اغتصاباتِهم فإنهم كانوا يَشْعُرون شعورًا كافيًا بأن حالهم لم يَقُمْ على غير حَقٍّ قَلِقٍ فاضحٍ نالوه بالقوةِ، فيُمْكن القوةَ أن تَنْزِعه منهم من غير أن يكون من الأسباب ما يَتَظَلَّمون معه، حتى إن الذين اغْتَنَوا بالصِّناعة وحدَها لم يكونوا ليَقْدِروا أن يقيموا تملُّكَهم على حُجَجٍ أحسنَ من تلك، ومن العَبَث أن يقال مُكَرِّرًا: «إننى أنا الذى بَنَى

(١) أوفيد، التناسخ، ١١ : ١٢٧.

هـذا الجـدار، وقد نِلْتُ هذا الموضعَ بعملي، وقد يُمْكن أن يكون الجواب: من الذى أعطاك هذا الموقف، وإلى أىّ شىء تستند فى ادعائك أن نَدْفع إليك عن عملٍ لم نطلب منك صُنْعَه؟ ألاَتَعْلم أن فريقًـا كبـيرًا من إخوانـك يَمْلِك أو يألم من احتياجـه إلى ما تَمْلِك كثيرًا، وأنـه يجب أن تكون لديـك موافقـةٌ صريحةٌ إجماعية من النوع البشرى حتى تَمْلِك من القُوتِ العامّ أكثرَ مما تحتاج إليه لتقويم أوَدِك؟»، والغنىُّ المجرَّدُ من الأسـباب المقبولة لتزكية نفسه، ومن القُوَى الكافية للدفاع عن نفسـه، والغَنِىُّ السـاحقُ للفرد بسـهولة، والمسـحوقُ من قِبَل زُمَرٍ من اللصوص، والغنىُّ الـذى هو وحدَه ضِدَّ الجميع والذى لا يسـتطيع أن يتحد، عن حَسَـدٍ متقابِـل، هو وأمثالُه ضِدَّ أعداءٍ متحدين عن أملٍ مشـتركٍ فى السَّـلْب، هذا الغنىُّ الذى ضَغَطته الضرورةُ يُفَكِّرُ أخيرًا فى أرْزَنِ مـشروعٍ خَطَر على بال إنسـان، وذلك أن يَسْـتخدم نفعًا له قُوَى مَـنْ كانوا يهاجمونه، وأن يَجْعَـل حُمَاتَه من خُصومه فيوحِـىَ إليهم بمبادئ أخرى ويَمْنَحَهم نُظُـمًا أخرى تكون ملائمةً له كعدم ملاءمة الحقِّ الطبيعىِّ له.

وهـو عند هـذا النظر، وبعـد أن عَرَضَ على جيرانه فظاعـةَ وَضْعٍ كان يسـلِّحهم جميعًا ضدَّ بعضهم بعضًا، وكان يَجْعَل أملاكَهم مُرْهِقةً إرهاقَ احتياجاتهم، وحيث كان لا يوجَد أحدٌ يرى سـلامَته فى الفقر ولا فى الغِنَى، اخترع بسـهولةٍ من الأسـباب المقبولة ما يَجْلِبُهم به إلى غَرَضه، فقـال لهم: «دَعُونا نتحد لوقاية الضعفاء مـن الاضطهاد وردعِ ذوى الطموح وصيانةِ مُلْك كلِّ واحـد، فتُوضَـع أنظمةٌ للعدل والأمن يُلْـزَم الجميعُ بالخضوع لها من غير اسـتثناء أحدٍ، وتُقَوَّم بهـا أهواءُ النصيب من بعض الوجوه بجعل القوىِّ والضعيف خاضعيْن لواجبات متبادلة على السـواء، والخلاصـةُ هى أن نَجْمَع قُوَانا فى سـلطةٍ عالية تَحْكُم فينا وَفقَ قوانينَ رشـيدةٍ وتُحَامِى وتُدَافع عن جميع أعضاء الجماعة وتَدْفعُ الأعداءَ المشترَكين وتُمْسِكنا ضِمْنَ وِفَاقٍ أبدىّ».

وكان أقلُّ كلامٍ حَوْلَ هذا المَقْصِد يكفى لمخادعة أناسٍ غِلاَظِ سهلِ إغواؤهم، وذلك لِمَا كان عليهـم أن يأتُوه من منازعاتٍ كثيرة لا يسـتغنون فيها عن التحكيـم، ولِمَا كانوا عليه من طموحٍ وبُخْلٍ كثيريْن لا يستغنون فيهما عن سادةٍ لزمنٍ طويل، وكلٌّ يسعى إلى قيوده بسرعةٍ معتقدًا أنه يَضْمن حريته، وذلك لأنه إذا كان لديه من العقل ما يكفى للشعور بفوائد أحد النُّظُم السياسية

فإنه ليس لديه من التجربة ما يُبْصِر معه أخطارَ هذا النظام، وكان أكثرُ الناس قدرةً على البصر فى سوء الاستعمال هم الذين يَرَوْن الانتفاعَ به، حتى إنَّ الحكماء رأوْا من الضرورىِّ أن يُضَحُّوا بقسمٍ من حريتهم حفظًا للقسم الآخر، شأنُ الجريح الذى تُبْتَر ذراعُه إنقاذًا لبقية الجسم.

ذلك ما كان، أو ما وَجَبَ أن كان، أصلُ المجتمع والقانون اللذين رَبَطا الضعيفَ بقيودٍ جديدة، ومنحا الغنىَّ «١٨» قُوًى جديدة، فقضيا على الحرية الطبيعية من غير رجوع، وثَبَّتا قانونَ التملك والتفاوتِ إلى الأبد، وحَوَّلا اغتصابًا لَبِقًا إلى حَقٍّ لا يُنْقَض، وسَخَّرا الجنسَ البشرىَّ للعمل والعبودية والبؤس نفعًا لبعض ذوى الطُّمُوح، ومن السهل أن يُرَى كيف أن قيام مجتمعٍ واحد جعل قيام جميع المجتمعات الأخرى أمرًا ضروريًّا، وكيف أنه وجب على بقية الجنس البشرىِّ أن تتحد من ناحيتها لمقاومة القُوَى المتحدة، وقد تكاثرت المجتمعات واتسعت فلم تَلْبَث أن ملأت جميعَ وجه الأرض، وصار يتعذر أن نَجِدَ زاويةً واحدة فى العالَم يُمْكِنِ الإنسانَ أن يتحرر فيها من النِّير ويَتَخلص من السيف الذى يراه مُصْلَتًا عليه دائمًا، وبما أن الحقوق المدنية أصبحت قاعدةَ المواطنين العامةَ على هذا الوجه عاد قانونُ الطبيعة لا يكون له مكانٌ إلَّا بين مختلف المجتمعات حيث عُدِّل، باسم الحقوق الدَّوْلية، ببضعة عهودٍ ضمنية جَعْلًا للتجارة أمرًا ممكنا وتعويضًا من الرأفة الطبيعية التى خَسِرَت بين مجتمعٍ وآخرَ، تقريبًا، كلَّ قوة كانت لها بين إنسانٍ وآخرَ، والتى عادت لا تكون فى غير بعض أكابر الوطنيين العالمين الذين يجاوزون الحواجزَ الخيالية الفاصلةَ بين الشعوب، والذين يسيرون على غِرار المولى الخالق فيَشْمَلُون جميعَ النوع البشرىَّ برعايتهم.

وبما أن الهيئاتِ السياسيةَ قد بَقِيَتْ بينهم فى الحال الطبيعية على هذا الوجه فإنها لم تُعَتِّم أن شَعَرت بالمحاذير التى كانت قد حَمَلت الأفراد على الخروج منها، وقد أصبحت هذه الحالُ أيضًا أكثرَ شؤمًا بين هذه الهيئات الكبيرة مما كانت عليه سابقًا بين الأفراد الذين تألفت منهم، فمن ثَمَّ ظهرت الحروبُ القومية والمعاركُ والمَقَاتلُ والآثارُ التى أرْعَشت الطبيعةَ وصَدَمت العقلَ، وجميعُ هذه المُبْتَسرَاتِ الفظيعة التى تَضَعُ شرفَ سفك الدماء الإنسانية فى مرتبة الفضائل، وقد تَعَلَّم أكثرُ الناس صلاحًا أن يَعُدُّوا بين وظائفهم واجبَ ذبح أمثالهم، وأخيرًا رُئِىَ أن

النـاس يتذابحون بالألوف من غير أن يَعْرِفوا السـبب، وكان يُقْتَرَف مـن القتل فى يوم معركةٍ، وكان يُقْتَرَف من الفظائع عند الاسـتيلاء على مدينةٍ واحدة، ما هو أكثرُ مما كان يُقْتَرَف فى حال الطبيعـة، فى قـرونٍ بأَسْرِهـا، على جميع وجه الأرض، وهـذه هى النتائجُ الأولى التـى تُبْصَرُ من تقسيم النوع البشرىّ إلى مجتمعاتٍ شَتَّى، فَلْنَعُدْ إلى نُظُمها.

وأعلـمُ أن كثيرين قد جَعَلُوا للمجتمعات السياسـية مصادرَ أخرى، كفُتُوح القوىّ أو اتحاد الضعفـاءِ، ولا أهميةَ لِلخيَار بين هذه العلـل فيها أريدُ إثباتَه، ومع ذلك فإن ما عَرَضتُه أقربُ إلى الطبيعة كما يَلُوحُ لى، وذلك للأسباب الآتية: أولاً: بما أنَّ حقّ الفتح فى الحال الأولى ليس حقًّا فى ذاته فإنه لا يُمْكِن أن يَصْلُح أساسًا يُبْنَى عليه حَقٌّ آخرُ، فيبقى كلٌّ من الفاتح والشعب المغلوب تِجاه الآخر فى حال حربٍ، ما لم تُرد إلى الشـعب المغلوب حريتُـه كاملة فيقعَ اختيارُه طَوْعًا على قاهـره ليكون رئيسًـا لـه، ورَيْثَما يَقَعُ هذا تكـون كلُّ مصالحةٍ قائمةً على العنـف، ومن ثَمَّ تكون باطلةً عن ذات الأمر، فلا يكون بهذا الافتراض أىُّ مجتمعٍ حقيقىّ، أو أيةُ هيئةٍ سياسـية، أو أىُّ قانـونٍ غيرَ مـا للأقوى، ثانيًا: بما أن كلمةَ القوىّ وكلمةَ الضعيـف مبهمتان فى الحال الثانية فإن معنـى هاتـين الكلمتين فى الفاصلة بين قيام حقِّ التملـك أو وضع اليد الأول وحقِّ الحكومات السياسـية أحسـنُ إيفـاءً بكلمتى الفقـير والغنىّ، وذلك لأنه لم يكن للإنسـان قبـل القوانين فى الحقيقة وسـيلةٌ أخرى لإخضاع أمثاله غيرُ مهاجمةِ مالهم أو جعل نصيبٍ لهم فى مالهم، ثالثًا: بما أنـه لم يكـن لدى الفقراءِ ما يَخْسَرُونه غيرُ حريتهم فإن من حماقتهم الكبيرة أن يَتخَلَّوْا باختيارهم عـن المـال الوحيد الذى بَقِىَ لهم فلا يَكْسِـبُوا شـيئًا مقابلةً، وبما أن الأغنيـاء هم، على العكس، مُرْهَفُـو الحسّ فى جميع أقسـام أموالهم فإنه كان من السـهل جِدًّا أن يُـؤْذَوْا، ولذا كان عليهم أن يتخذوا من الاحتياطات الكثيرة ما يَضْمَنُون به أنفسهم من ذلك، ثم إن من الصواب أن يُعْتَقَد كونُ الشىء قد اخْتُرِع من قِبَلِ من ينفعهم أكثرَ من كونه قد اخْتُرِع من قِبَل من يَضُرُّهم.

ولم يكن للحكومة الناشئة شكلٌ ثابت ومنتظم قَطُّ، وكان نقصُ الفلسفة والتجرِبة يَحُولُ دون البـصر فى المحاذير الحاضرة، وكان لا يُفَكَّر فى الاسـتعداد تِجاه الآخريـن إلَّا بالمقدار الذى يَبْدُون به، وقد ظَلَّت الحال السياسـية ناقصةً دائمًا لأنها كانت من عمل المصادفة تقريبًا، ولأن الزمن بعد

بدء السُّوء لم يستطع أن يُصْلِح نقائص النظام قَطُّ عند اكتشاف العيوب والإيحاء بالدواءِ، أى أنه كان يُرَقِّعُ بلا انقطاع بدلاً من أن يُبْدَأ بتطهير الجوِّ وإقصاء الأدوات القديمة كما صنع «لِيكُورْغُ» فى إسبارطة ليقيم بناءً صالحًا فيما بعد، ولم يَقُم المجتمع فى البُداءة إلَّا على بعض العهود العامة التى ألزم جميعُ الأفراد أنفسَهم بمراعاتها، والتى غَدَتْ ضامنةً لكلِّ واحد منهم، وقد وَجَب أن تدلَّ التجرِبة على مقدار ما كان من ضعف مثل هذا النظام، وعلى مقدار ما كان من سهولة اجتنابِ مخالفيه ثبوتَ الجُرْم أو العِقاب على الذنوب التى كان يجب على الجُمهور أن يكون شاهدًا عليها قاضيًا فيها، وقد وجب أن يُنَحَّى القانون على ألف وجه، وأن تَكْثُر المحاذير والارتباكات باستمرار حتى يُفَكَّر أخيرًا فى تسليم بعض الأفراد وديعةَ السلطان العامِّ الخَطِرَة، وفى ترك العناية فى إطاعة مَشُوراتِ الشعب إلى بعض الحكام، وذلك لأن القول باختيار الرؤساء قبل قيام الدولة الاتحادية وبنصب حَفَظَة القوانين قبل القوانين نفسها افتراضٌ لا يجوز الجدالُ عنه بِجِدٍّ.

ومن غير الصواب أن يُعْتَقَد أن الشعوب ألقت نفسَها فى البُداءة بين ذراعيْ سيدٍ مطلق بلا شرطٍ ولا رجوع، وأن الوسيلة الأولى للقيام بالأمن العامِّ الذى تصوره أناسٌ مختالون جاهلون كانت تدهورًا فى العبودية، ولماذا نَصَب الناس فى الحقيقة رؤساءَ إن لم يكن للدفاع عنهم ضِدَّ الاضطهاد، ولحفظ أموالهم وحرياتهم وحَيَوَاتهم التى هى عناصرُ وجودهم المُكَوِّنة؟ والواقعُ أن السُّوء الذى يُمكِن أن يَحْدُث لأحد الناس فى صِلات بعض الناس ببعضٍ إذ كان فى رؤيته نفسَه تحت رحمة آخرَ؛ أفلم يكن مناقضًا للرشاد أن يَبْدَأ بتجريد نفسه بين يدى رئيسٍ من الأشياء الوحيدة التى كانوا يحتاجون لحفظها إلى مساعدته؟ وأىُّ شىءٍ معادلٍ استطاع تقديمَه إليهم من أجْل حقٍّ عظيم كهذا؟ وإذا ما جَرُؤ على المطالبة به متعلِّلا بحجة الدفاع عنهم أفلا يتلقى الجواب الآتىَ الذى جاء فى القصة: «وأىُّ شىء أكثر من هذا يستطيع العدوُّ أن يصنعه بنا؟»، إن مما لا جدال فيه كونَ المبدأ الأساسىِّ لجميع الحقوق السياسية قائمًا على أن الشعوب أعْطِيَت رؤساءَ للدفاع عن حريتها، لا لاستعبادها، وقد قال «بِلينى» لـ «تراجان»: «إذا كان لنا أميرٌ فلكى يحفظنا من وجود سيد».

ويأتى السياسيون حَوْلَ حُبِّ الحرية بذات السَّفسطة التى يأتى بها الفلاسفة حَوْلَ حال الطبيعة، وذلك أنهم يَحْكُمون بما يَرَوْن فى أمورٍ تختلف جدًّا عن التى لا يَرَوْن، وهم يَعْزُون إلى الناس ميلاً طبيعيًّا نحو العبودية مستندين إلى الصبر الذى يُطِيق به عبوديتَهم من يَقَعون تحت عيونهم، وذلك من غير تفكيرٍ فى أن أمر الحرية كأمر العِصْمة والفضيلة الذى لا يُشْعَر بقيمته إلا بدوام التمتع به والذى يَضِيعُ ذوقه عند ضَياعه، ومن قول بَرَازِيدَاس لأحد المَرَازِبة الذى كان يقابل حياة إسبارطة بحياة بِرْسِپُوليس (إصْطَخْر): «أَعْرِف ملاذًّ بلدك، غير أنك لا تستطيع أن تَعْرِف ملاذًّ بلدى».

وكما أن الجواد الجامح يَنْصِب عُرْفَه، ويَضْرِب الأرض بسَنَابكه، ويَهِيجُ عند دُنُوِّ اللجام، على حين يعانى الحِصانُ المُرَوَّض السَّوْطَ والمهماز صابرًا، تَرَى الإنسان من البرابرة لا يُطَأْطِئُ رأسَه للنِّير الذى يَحْمِله الإنسانُ المتمدن غيرَ متذمِّر، وهو يُفَضِّل الحريَّة العاصفة على الخضوع الساكن، ولذا لا يَجُوز أن يُحْكم بذُلِّ الشعوب المُعَبَّدَة فى تَصَرُّفات الإنسان الطبيعية مَدْحًا للعبودية أو قَدْحًا فيها، بل بالعجائب التى قامت بها جميع الشعوب الحرة ضمانًا لنفسها من الاضطهاد، وأَعْرِف أن الأولى لم تَصْنَع بلا انقطاعٍ غيرَ امتداح السِّلْم والسكون اللذين تتمتع بقيودهما، وأنها «تُسَمِّى أتعسَ عبوديةٍ أَمْنًا[1]»، ولكننى حينما أرى الآخرين يُضَحُّون بالملاذّ والسكون والثَّراء والقوة والحياةِ نفسها حفظًا لهذا المال الوحيد الذى يزدريه من أضاعوه، ولكننى حينما أرى الحيواناتِ التى تُولَدُ حُرَّةً وتَمُّت الأَسْرَ تكسر رأسها على قُضْبان سجنها، ولكننى حينما أرى زُمَرًا من الوحوش الكاملى العُرْيِ يزدرون الملاذَّ الأوروبية ويحتقرون الجوع والنار والحديد والموت حفظًا لاستقلالهم فقط، أَشْعُرُ بأن البرهنة حول الحرية ليست من شأن العبيد.

وأما السلطةُ الأبوية، التى اشْتقّ منها الحكومةَ المطلقة وجميعَ المجتمع كثيرٌ من الكتاب، وذلك من غير رجوعٍ إلى أدلة لُوكَ وسِيدْنِى المعاكسة، فيكفى أن يلاحَظ أنه لا شىء فى الدنيا أكثرُ ابتعادًا عن روح الاستبداد الضارى من حِلْم هذه السلطة التى تنظر إلى نَفْع من يُطِيع

(١) تاسيت، التاريخ، باب٤، فصل ١٧.

أكثرَ من نظرها إلى فائدة من يأمر، وأن الأب، على حسب قانون الطبيعة، ليس سَيدَ الولد إلا للزمن الذى تكون معونتُه ضروريةً له، فإذا مَرَّ هذا الزمن صارا متساويين، وهنالك إذ يصبح الولدُ مستقلا عن الأب تمامًا فإنه لا يكون مَدِينًا له بغير الاحترام، لا الطاعة، وذلك لأن معرفةَ الجميل واجبٌ يجب تأديته، لا حَقٌّ يُمْكِن أن يطالَب به، وكان يجب أن يقال إن السلطة الأبوية تنال قوتَها الرئيسيةَ من المجتمع المدنىّ بدلا من أن يقال إن المجتمع المدنىَّ يُشْتَقُّ من السلطة الأبوية، ولم يُعْتَرَف بأن الفرد أبٌ للكثيرين إلا عندما يَبْقَوْن مجتمعين حَوْله، وما لدى الأب من أموالٍ يَمْلِكها حَقًّا هو الصلاتُ التى تُبْقِى أولادَه تابعين له، ويستطيعُ الأب ألا يَجْعَل لهم نصيبًا فى ميراثه إلا بنسبة ما يستحقون ذلك منه بامتثالٍ دائم لمشيئته، والواقعُ أن من البعيد أن يكون للرعايا نفعٌ مماثل ينتظرونه من طاغيتهم ما داموا هم وجميعُ ما يَمْلِكون مالًا له، أو ما دام يَزْعُم هكذا، فهم مُلْزَمون بأن يَعُدُّوا فَضْلاً ما يتركه لهم من مالهم الخاصّ، وهو يَعْدِل إذا ما جَرّدهم، وهو يتساهل إذا ما تركهم يعيشون.

وإذا داومنا على البحث فى الوقائع حقوقيًّا على هذا الوجه لم نَجِدْ ما هو أقلُّ من الحقيقة فى قيام الطغيان عن رِضًا، ويكون من الصعب إثباتُ صحة عقدٍ لا يُلْزِم غيرَ أحد الفريقين، وأن يَقَع الغُرْم على فريقٍ واحد دون الآخر، فلا يعانيه سوى مَنْ يُلْزِم به نفسَه، ويَبْعُدُ أن يكون هذا النظام الممقوت، حتى فى أيامنا، نظامَ ذوى الرشاد والصلاح من الملوك، ولاسيما ملوكُ فرنسة، كما يُمْكِن أن يُرَى ذلك فى غير مكانٍ من مراسيمهم، ولاسيما العبارةُ الآتية التى جاءت فى مرسومٍ مشهور نُشِرَ فى سنة ١٦٦٧ باسم «لويسَ الرابعَ عشرَ» وعن أمرٍ منه، وهى: «دَعْنَا لا نقول، إذَنْ، كونَ ولىِّ الأمر غيرَ خاضعٍ لقوانين دولته، وذلك لأن العكس من حقائق حقوق الأمم التى هُوجمت عن مَلَإٍ أحيانًا، ولكن مع دفاع الأمراء الصالحين عنها دائمًا، وذلك كأُلوهيةٍ حافظةٍ لدولهم، وما أكثرَ ما يطابق الصوابَ أن يقال مع أفلاطونَ الحكيمِ إن سعادةَ المملكةِ الكاملةَ هى فى إطاعة الرعايا لأميرهم وإطاعة الأمير للقانون، وفى كون القانون قويمًا قاصدًا خيرَ الناس[1]!».

(١) «رسالة فى حقوق الملكة البالغة النصرانية فى مختلف دول مملكة إسبانية»، ٦٦٧، المطبعة الملكية.

ولا أقِفُ مطلقًا عند البحث فى أن الحرية إذا كانت أشرفَ خصائصِ الإنسان فإنه ألا يكون من حَطِّ طبيعتنا وتنزيلِنا إلى مستوى الحيوانات التى هى عَبْدة الغريزة، ومن التجديف على صانع وجودنا، أن نَعْدِل بلا قَيْدٍ عن أثمن نِعَمِه، وأن ننقاد لضرورة اقتراف جميع الجرائم التى نَهَى عنها مجاراةً لسيد ضارٍ أو مجنون، فنُغْضِب هذا الصانع الرفيع غَضَبًا يجب أن يشتدَّ من تخريب أجمل ما صنع كاشتداده من فَضْح هذا الصُّنْع، وأتغافل، إذا ما سُمِحَ لى، عن اختصاصِ «بارْبِيْراك» الذى تابع «لوكَ» فَصَرَّح بوضوحٍ أنه لا أحد يستطيعُ بَيْعَ حريته حتى الخضوعَ لسلطانٍ مراديٍّ يعامله على حسب هواه، «وذلك لأن هذا ينطوى على بَيْع حياته التى ليس سيدَها»، وإنما أسأل، فقط، عن حَقِّ أولئك الذين لم يَخْشَوْا حَطَّ أنفسهم حتى هذه النقطةِ فاستطاعوا أن يجعلوا حَفَدَتهم خاضعين لذات العار، وأن يتنزلوا فى سبيلهم عن أطايبَ لم ينالوها من كَرَمهم فتكون الحياةُ بغيرها ثقيلةً على جميع من يستحقونها.

ويقول بُوفَنْدُورف إن الإنسان يستطيع أن يَجرِّد نفسه من حُرِّيته نفعًا لآخرين كما يَنْقُل ماله إلى آخرين بعهودٍ وعقود، ويَلُوح لى أن هذه بَرْهَنةٌ سيئة، وذلك، أولاً، أن المال الذى أبيعه يصبح عندى أمرًا غريبًا تمامًا، ويَغْدُو سوء استعماله أمرًا لا يؤبه له، ولكن مما يُهِمُّنى ألا يُساء استعمالُ حريتى، ولا أستطيع أن أُعَرِّض نفسى لتكون أداةَ جريمةٍ من غير أن أكون مذنبًا بالسوء الذى أُحْمَلُ على صنعه، ثم بما أن حَقَّ التملك ليس سوى عهدٍ ونظامٍ بشريٍّ فإن كلَّ واحد يَقْدِر على التصرف فيما يَمْلِك، ولكن غيرَ هذا هباتُ الطبيعة الجوهريةُ كالحياة والحرية اللتين يُبَاح لكلِّ واحدٍ أن يتمتع بهما، واللتين يُشَكُّ فى أنه يحقُّ للإنسان أن يُجَرِّد نفسَه منهما، وذلك لأن الإنسان إذا ما أقصى عن نفسه، إحداهما يكون قد أذَلَّ نفسَه وإذا ما أقصى نفسه عن الأخرى يكون قد لاشاها فيه ما دامت فيه، ولكن بما أنك لا تجد خيرًا دنيويًّا يستطيع أن يُعَوِّض من أحد الأمرين فإنه يكون من إهانة الطبيعة والعقل معًا أن يُعْدَل عنهما بأىِّ ثمنٍ كان، ولكن الإنسان إذا ما استطاع أن يبيع حريته كأمواله كان الفرق عظيمًا من ناحيةِ أولاده الذين لا يتمتعون بأموال أبيهم إلا بنقل حقوقه، وذلك بدلاً من كون الحرية، التى هى موهبةٌ ينالونها من الطبيعة كأناسٍ، لا يَحِقُّ لآبائهم أن يُجَرِّدوهم منها مطلقًا، وذلك كما أنه وجب أن يُعْنَف

بالطبيعة إقامةً للرِّقِّ وَجَب تغييرها إدامةً لهذا الحقِّ، فالفقهاء، الذين ذهبوا باتزانٍ إلى أن ابنَ العبد يُولد عبدًا، يكونون قد قَرَّروا بعباراتٍ أخرى كونَ الإنسان لا يُولَد إنسانًا.

ولِذَا يَلُوحُ لى أن من الثابت كونَ الحكوماتِ لم تَبْدَأ قَطُّ بالسلطة المُرَادية فقط، كونَها لم تَبْدَأ بهذه السلطة التى ليست غيرَ إفسادٍ لها، غيرَ أقصى حَدٍّ لها، والتى تَرُدُّها فى نهاية الأمر إلى قانون الأقوى الذى كانت علاجًا له فى بدء الأمر، ولكن الحكوماتِ، حتى عند افتراضِ بدءِ أمرها على هذا الوجه، لم تكن تلك السلطةُ فيها لتستطيع بطبيعتها غيرِ الشرعية أن تَصْلُح أساسًا لقانون المجتمع ولا لتفاوت النظام نتيجةً.

وإنى، من غير أن أدخل اليومَ فى المباحث التى لا يزال من الواجب صنعُها حَوْل طبيعة الميثاق الأساسىّ لكلِّ حكومة، أقتصرُ، باتباعى الرأى السائد، على عَدِّى نظامَ الهيئة السياسية عَقْدًا حقيقيًّا بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم، عقدًا يُلْزِمُ كلٌّ من الفريقين نفسَه بمراعاة القوانين التى اشْتُرطت فيه فتؤلِّف روابطَ لاتحادهما، وبما أن الشعب فى موضوع الصلات الاجتماعية يَجْمَع جميعَ إراداته ضِمْن إرادةٍ واحدة فإن الموادَّ التى تُوضَح بها هذه الإرادة تُصْبح قوانينَ أساسيةً تُلْزِم جميعَ أعضاءِ الدولة من غير استثناء، فيُنَظِّم أحدُهما أمرَ الخيار وسلطةَ الحكام المُوكَلِ إليهم أن يَسْهَرُوا على تنفيذ الأخرى، وتَعُمُّ هذه السلطةُ كلَّ ما يُمْكن أن يَحْفظَ النظام من غير ذهابٍ إلى الحدِّ الذى يُغَيِّر به، وإلى هذا تُضَافُ أنواعٌ من الشرف تَجْعَل القوانينَ وحَفَظَتَها محترمةً، وتَجْعَل لهؤلاء شخصيًّا من الامتيازات ما يُعَوِّضهم من الأعمال الشاقَّة التى تكلِّفهم الإدارة الصالحة بها، والحاكمُ من ناحيته يُلْزِم نفسه بألا يستعمل السلطةَ التى عُهِدَ إليه أن يقوم بها إلا وَفْقَ مَقْصِد مُوَكِّليه، وبأن يجْعَل كلَّ واحدٍ يتمتع بما هو خاصٌّ به تمتعًا هادئًا، وبأن يُفَضِّل المصلحةَ العامة على المصلحة الشخصية فى كلِّ فرصة.

ووجب، قبل أن تدلَّ التجربة، أو معرفةُ القلبِ البشرىِّ، على ما يعتور مثلَ هذا النظامِ من سوء استعمالٍ لا مناصَ منه، أن يَظْهَر أن الذين كان قد عُهِدَ إليهم أن يَسْهَرُوا على حِفْظِه هم أكثرُ الناس غَرَضًا فيه، وذلك بما أن الحاكمية وحقوقها لم تقوما على غير القوانين الأساسية فإن هذه القوانين إذا ما قُوِّضت عاد الحكام لا يكونون شرعيين من فَوْرِهم، وعاد الشعبُ غيرَ

مُلْـزَم بإطاعتهـم، وبما أن القانون، لا الحكامَ، هو الـذى يقيم جوهرَ الدولة فإن كل واحد يعود إلى حريته الطبيعية عن حقٍّ.

وإذا أنعمنـا النظـر قليـلاً فى هذا الموضـوع وجدناه يؤيَّد بأسـبابٍ جديدة، ورئـى أنه يتعذر نقضُـه، وذلك لأنه إذا كانت لم تُوجَد سـلطةٌ عالية قادرةٌ أن تكون ضامنةً لإخلاص المتعاقدين أو أن تَحْمِلهما على القيام بالتزاماتهما المتبادلة ظَلَّ الفريقان قاضيين وحيدين فى قضيتهما الخاصة، وكان لـكلٍّ واحـد منهما حَـقُّ العدول عـن العقد فَـوْرَ ما يَجِدُ نَقْـضَ الفريق الآخـر للشروط، أو حينما تَعُودُ غيرَ ملائمةٍ له، ويظهَر أن حَقَّ التنزل يُمْكِن أن يكون قائمًا على هذا المبدأ، والواقعُ أننا إذا لم نَنْظُر، كما نَصْنَع، إلى غير النظام البشرىّ، وذلك عندما يكون الحاكمُ القابضُ على جميع السـلطة، والمتحلُ لجميع فوائد العقد، ذا حَقٍّ فى العدول عن السـلطة على الخصوص، فإن من الأَوْلَى أن يكون الشعب الذى يَدْفَعُ ثمنَ جميع أغاليط الرؤساء ذا حَقٍّ فى العدول عن خضوعه، غـير أن الانقسـاماتِ الكريهةَ والارتباكاتِ غـيرَ المحدودة التى تؤدى إلى هذه السـلطة الخَطِرة بحكـم الـضرورة تدلُّ، بأكثر مما على أىِّ شـىءٍ آخرَ، عـلى مقدار ما كانـت الحكومات البشريةُ محتاجةً إليه من قاعدةٍ أشـدَّ متانةً من العقل وحـدَه، وعلى مقدار ما كان ضروريًّا للراحة العامة التى تتدخل فيها المشـيئة الإلهية مَنْحًا للسـلطة ذاتِ السيادة صبغةً مقدسـة لا تُنْقَض فَتَنْزِعُ من الرعايا ما فى التصرف فيها من حَقٍّ مشؤوم، وإذا كان الدين لم يَصْنَع للناس غيرَ هذا الخيرِ كان لهم فى هذا ما يَفْرِض عليهم واجبَ اعتناقه وتَعَهُّدِه، حتى مع سـوء اسـتعماله، ما دام يَحْقن من الدماء ما هو أكثر مما سَفَكه التعصب، ولكن لنتعقبْ خَيْط افتراضنا.

وتكـون أشـكالُ الحكومةِ المختلفةُ مدينـةً بأصلها لدرجةِ ما يكون بين الأفـراد من الفروق حين قيامها، وإذا كان أحدُ هؤلاء مُتَفَوِّقًا فى القوة أو الفضل أو الغِنىَ أو الوجاهة انْتُخِب حاكمًا وصارت الدولة مَلَكيةً، وإذا كان الكثيرون متساوين فيما بينهم تقريبًا وكانوا يفوقون الآخرين انْتُخِبوا معًا وتَكَوَّنت أريستوقراطيةٌ، ومن كان الثَّراءُ والمواهبُ عندهم أقلَّ تفاوتًا، وكانوا أقلَّ بُعْـدًا من حال الطبيعة، حافظوا بالاشـتراك عـلى الإدارة العليا، وألفوا ديمقراطيـةً، وقد أَثْبَت الزمان أىُّ الشكلين كان أنفعَ للناس، وقد ظَلَّ بعضُ الناس خاضعين للقوانين فقط، ولم يَلْبَث

الآخرون أن أطاعوا سادةً، وأراد المواطنون أن يحتفظوا بحريتهم، ولم يُفَكِّر الرعايا فى غير نزْعها من جيرانهم، غيرَ صابرين على تمتع آخرين بخيرٍ كانوا قد أضاعوه، والخلاصةُ أن الثَّرَواتِ والفتوحَ كانت من ناحيةٍ، وأن السعادة والفضيلة كانتا من ناحيةٍ أخرى.

وكانت الحاكمياتُ كلُّها فى هذه الحكومات المختلفة انتخابيةً، وعندما كان الفَوْزُ لغير الثَّرَاء كانت الأفضلية للمزية التى تُنْعِم بنفوذٍ طبيعىّ، وللسِّنِّ التى تُنْعِم بالتجربة فى الأمور، وبالاعتدالِ فى المذاكرات، ويدلُّ شيوخُ العِبْريين وشيوخُ الإسبارطيين وسِنَاتُ رومة، واشتقاقُ كلمة «سِنْيُور» عندنا، على مقدار ما كان للمَشِيب من احترامٍ فيما مضى، وكلما كانت الانتخابات تَقَع على أناسٍ طاعنين فى السِّنِّ صارت متواترةً وشُعِر بمصاعبها، فقد نُسِجَت مكايدُ وأُلِّفت عِصاباتٌ واحْتَدَّت أحزابٌ، واشتعلت حروبٌ أهلية، وضُحِّىَ بدم المواطنين فى سبيل سعادةٍ للدولة مزعومةٍ، وأوشك الناس أن يَسْقُطوا فى فوضى الأزمنة السابقة، وقد استفاد الزعماءُ ذوو الطموح من هذه الأحوال إدامةً لِخَدمهم فى أُسَرِهم، وقد رَضِىَ الشعبُ، الذى تَعَوَّد الخضوعَ والراحةَ ورَغَدَ العيش، والذى عَجَزَ عن كَسر قيوده، أن يترك عبوديتَه تَزيد توطيدًا لراحته، وهكذا تَعَوَّد الزعماءُ، الذين أصبحوا وِراثيين، أن يَعُدُّوا حاكميتهم مالَ أُسْرَةٍ، وأن يَعُدُّوا أنفسَهم مالكى الدولة التى لم يكونوا غيرَ موظَّفيها فى البُداءة، فيَدْعُون مواطنيهم عبيدهم ويَحْسبونهم كالأنعام بين الأشياء التى يَمْلِكونها ويَدْعُون أنفسَهم مساوين للآلهة أو ملوكِ الملوك.

وإذا ما تَتَبَّعنا تقدُّمَ التفاوتِ فى هذه الثَّوْرات المختلفة وَجَدْنا أن وضعَ القانون وحقّ التملك كانا حَدَّه الأول، وأن قيام الحاكمية كان حَدَّه الثانى، وأن تحول السلطة الشرعية إلى سلطة مُرَادِيَّة كان حَدَّه الثالث والأخير، فأُجِيزَ حالُ الغنىّ والفقير فى الدور الأول، وأُجيز حالُ القوىّ والضعيف فى الدور الثانى، وأجيز حال السيد والعبد فى الدور الثالث الذى هو آخرُ درجةٍ للتفاوت والحدُّ الذى ينتهى إليه جميعُ الأخرى فى نهاية الأمر، وذلك إلى أن تَقْضِىَ ثَوْراتٌ جديدة على الحكومة تمامًا أو أن تُدْنِيَها من النظام الشرعىّ.

ويَجِبُ، لإدراكِ ضرورة هذا التقدم، أن يُنْظَر إلى عوامل قيام الهيئة السياسية أقلَّ مما إلى الشكل الذى تتخذه فى تنفيذه، والمحاذيرِ التى يَجُرُّها وراءه، وذلك لأنه العيوب التى تَجْعَل

النُّظُم الاجتماعية أمرًا ضروريًا هى عين العيوب التى تَجْعَل سُوءَ استعماله أمرًا لا مَفَرَّ منه، وإذا استثنيتَ إسبارطة، حيث كان القانون يَسْهَر على تربية الأولاد خاصةً، وحيث أقام «لِيكُورْغُ» من العادات ما كان يُغْنِيه عن إضافته قوانينَ، وجدتَ القوانين، التى هى أقلُّ قوةً من الأهواء على العموم، تَرْدَع الناسَ من غير أن تُغَيِّرهم، ومن السهل إثباتُ كونِ كلِّ حكومةٍ تَسِيرُ، من غير فسادٍ ولا عيبٍ، دائمًا وتمامًا، وَفْقَ غاية نظامها، فتَقُوم بلا ضرورةٍ، وكونه لا احتياجَ إلى حكامٍ ولا إلى قوانينَ فى بلدٍ لا تُجْتَنَب القوانينُ ولا يُسَاءُ استعمالُ الحاكمية فيه.

وتؤدى الفروقُ السياسية إلى فروقٍ مدنية بحكم الضرورة، ولا يَلْبَث التفاوت الذى يزيد بين الشعب ورؤسائه أن يُشْعَرَ به بين الأفراد فيتحول على ألف وجهٍ وَفْقَ الأهواء والمواهب والمصادفات، وما كان الحاكم ليغتصب سلطةً غيرَ شرعية من غير أن يتخذ من العمال مَنْ يُضْطَرُّ إلى منحهم قسمًا منها، ثم إن المواطنين لا يَسْمَحُون بأن يُضْغَطُوا إلا عن سيرٍ وراءَ طموحٍ أعمى، وهم إذ يَنْظُرونَ إلى ما تحتهم أكثرَ مما إلى فوقهم فإن السيطرة تصبح أعزَّ من الاستقلال عندهم ويوافقون على تكبيلهم بقيودٍ يَقْدِرون على مَنْحها بدَوْرهم، ومن الصعوبة بمكانٍ أن يُحْمَل على الطاعة مَنْ لا يحاول أن يَسُوسَ مطلقًا، وما كان أمهرُ السياسيين ليستعبد أناسًا لا يريدون إلا أن يكونوا أحرارًا، بَيْدَ أن التفاوت ينتشر من غير مشقةٍ بين ذوى الطموح والجُبْن من النفوس المستعدة للسعى وراء مخاطر النصيب فى كلِّ وقتٍ والتى لا تبالى بالسيطرة أو الخِدْمة على حَسَب ما تكون ملائمةً أو معاكسةً لها، وهكذا فإنه لابُدَّ من أن يكون قد أتى زمنٌ بلغت عيونُ الشعب فيه من السحر ما لم يَبْقَ لقادته أن يخاطبوا أصغرَ الناس معه بغير قولهم: «كُنْ كبيرًا أنت وجميعُ ذريتك»، وهنالك بَدَا كبيرًا لجميع الناس كما بَدَا فى عَيْنَيْ نفسه، وأخذ عَقِبُه يرتفع كلما بَعُدت المسافة منه، وكلما كانت العلة غامضةً حائرةً زاد المعلول، وكلما كَثُر الكُسَالى فى أُسرةٍ زادت مجدًا.

ولو كان هنا مكانٌ صالحٌ للدخول فى التفصيل لسَهُلَ علىَّ أن أوضح كيف يصبح التفاوت فى الوجاهة والسلطان أمرًا لا مَفَرَّ منه بين الأفراد «١٩»، حتى عند عدم تَدَخُّل الحكومة، وذلك لأن الأفراد إذا ما اجتمعوا فى مجتمع واحد لم يلبثوا أن يُضْطَرُّوا إلى المقابلة فيما بينهم،

وإلى ملاحظة الفروق التى يَجِدُونها فى معاشرة بعضهم لبعض، ولهذه الفروق أنواعٌ كثيرة، ولكن بما أن الثَّراء، والشَّرَفَ أو المقام، والسلطانَ والمزية الشخصية فروقٌ رئيسيةٌ يُقَاسُ بها فى المجتمع فإننى أُثبت أن تَوَافُقَ هذه القُوَى المختلفة أو تَصَادمَها أصدقُ دليلٍ على دولةٍ حسنة التكوين أو سيئتِه، وإننى أُثبت أن الصفاتِ الشخصيةَ بين أنواع التفاوت الأربعة هذه إذ كانت أصلَ جميع الأخرى فإن الغِنَى هو آخرُ ما تُرَدُّ إليه فى نهاية الأمر، وذلك بما أنه يكون أكثرَ ما يَنْفَع رَغَد العيش مباشرةً وأكثرَ ما يَسْهُل نقلُه فإنه يُسْتَخْدَم بسهولةٍ لاشتراء جميع البقية، فبهذه الملاحظة يُمْكِن أن يُحْكَم بشىءٍ من الدقة فى المقياس الذى ابتعد به كلُّ شعبٍ عن نظامه الابتدائىّ وعن الطريق التى رسمها نحو أقصى حدّ للفساد، وأُلاحظُ مقدارَ ما تَعْمَل فى المواهب والقُوَى وتقابِل بينها هذه الرغبةُ العامةُ فى الصيت والشرف والأفضليات التى تأكلنا جميعًا، ومقدارَ ما تَهُزُّ الأهواءَ وتَزِيدُها، ومقدارَ ما تَجْعَل جميعَ الناس متنافسين متزاحمين، وإن شئت فقُلْ أعداءَ فتؤدِّى كلَّ يوم إلى نوائبَ ونجاحٍ ومصائبَ من كلِّ نوع، وذلك بحملها ذوى المزاعم على خَوْض عين المعارك، وأُثبت أننا مَدِينُون لهذه الحُمَيَّا فى التحدُّث عن النفس، ولهذه الصولة فى التمايز التى تُخْرِج المرءَ عن الصواب تقريبًا بأحسنِ ما يوجد بين الناس وأرْدئه، أى بفضائلنا ومعايبنا وبمعارِفنا وأغاليطنا، وبقاهرينا وفلاسفتنا، أى بطائفةٍ من الأمور الطالحة حَوْل قليلٍ من الأمور الصالحة، وأخيرًا أُثبت أنه يُرَى قبضةٌ من الأقوياء والأغنياء على ذُروة العظمة والثراء على حين يتخبط الجُمهورُ فى البؤس والظلام، وذلك عن كون أولئك لا يُقَدِّرون الأمورَ التى لا يتمتعون بها إلا بمقدار ما يكون الآخرون محرومين إياها، وعن كونهم يَعُودون غيرَ سُعَداءَ إذا ما عاد الشعب لا يكون بائسًا.

بَيْدَ أن تلك الجزئياتِ وحدَها تكون مادةَ سِفْرٍ جليل تُوزَن فيه محاسنُ كلِّ حكومةٍ ومساوئُها من حيث حقوقُ حال الطبيعة، وحيث يُكْشَفُ جميعُ مختلفِ الوجوه التى يَبْدُو التفاوت تحتها حتى هذا اليوم، ويُمْكِن أن يَبْدُوَ فى القرون القادمة، وذلك وَفْقَ طبيعة هذه الحكومات والثَّوْرات التى يَجُرُّها الزمنُ إليها بحكم الضرورة، وهنالك يُرَى الجُمهورُ المضطهد فى الداخل نتيجةَ احتياطاتٍ اتخذها ضِدَّ من هَدَّده فى الخارج، وهنالك تُرَى زيادةُ الاضطهادِ

باطِّرَادٍ من غير أن يستطيع المضطَهدون معرفةَ حَدٍّ له، ولا الوسيلةَ المشروعة التى تَبْقَى لهم لوَقْفه، وهنالك يُرَى انطفاءُ حقوق المواطنين والحرياتِ القومية مقدارًا فمقدارًا وعَدُّ احتجاج الضعفاء تَذَمُّراتِ تَمَرُّدٍ، وهنالك يُرَى قَصْرُ السياسةِ شَرَفَ الدفاع عن القضية العامة على فريقٍ مرتزقٍ من الشعب، وهنالك يُرَى ظهورُ ضرورةِ الضرائب فيترك الزارعُ اليائسُ حقلَه حتى فى أثناء السِّلْم، ويَهْجُر مِحراثَه ليتقلَّد السيف، وهنالك يُرَى بروزُ مبادئ الشرف المشؤومة الغريبة، وهنالك يُرَى تَحَوُّل حُمَاة الوطن إلى أعداءٍ عاجلاً كان ذلك أو آجلاً حاملين بلا انقطاعٍ خنجرًا مرفوعًا فوق مواطنيهم، فيأتى زمنٌ يُسْمَع فيه قولُهم لطاغية بلدهم:

«إذا أَمَرْتَنِى أن أَضْرِب بالسيف صدرَ أخى أو رقبةَ والدىَّ، وأن أضرب بالسيف أحشاءَ زوجتى.. فعلتُ ذلك كلَّه بيدى اليمنى مضطرًّا».

(لوكانوس، إ، ٣٧٦)

وعن أقصى تفاوت الأحوال والثَّرَوات واختلاف الأهواء والمواهب وعن الفنون غير المفيدة والفنونِ الضارة والعلوم التافهة نشأت طوائفُ من المُبْتَسِرَات المخالفة للعقل والسعادة والفضيلة على السواء، ويُرَى إيقادُ الزُّعماء لكلِّ ما يُمْكِن أن يُضْعِفَ الناسَ المجتمعين بتفريق ما بينهم، ولكلِّ ما يُمْكِن أن يَمْنَح المجتمعَ مَسْحَةً من الوِفاق الظاهر ويَبْذُرَ فيه جراثيمَ الشِّقاق الحقيقىِّ، ولكلِّ ما يُمْكِن أن يُوحِىَ إلى مختلف المُنَظَّمات بتَحَدٍّ وحقدٍ متبادَلين عن معارضة بعض حقوقها ومصالحها ببعضٍ وعن تقوية السلطة الجامعة لها جميعًا من حيث النتيجة.

ومن بين هذه الارتباكات والثَّوْرات رَفَع الاستبدادُ رأسَه الفظيعَ بالتدريج وافترسَ كلَّ ما وَجَده صالحًا صحيحًا فى جميع أقسام الدولة، فانتهى أخيرًا إلى دَوْس القوانين والشعب وإلى القيام على أنقاض الجُمهورية، وكانت الأزمنة التى سبقت هذا التحولَ الأخير أزمنةَ اضطراباتٍ وكوارثَ، غير أن الجميع قد ابْتُلِع من قِبَل الغُول فى نهاية الأمر، وعاد لا يكون للشعوب زعماءُ ولا قوانينُ، بل طُغَاةٌ فقط، وصار لا يُبحَث منذ هذه الدقيقة فى الطبائع والفضيلة، وذلك لأن

الاستبداد فى كلِّ مكانٍ يَسُودُه لا يحتمل أىَّ سيد آخر، وإذا ما تكلم الاستبدادُ لم يَبْقَ صلاحٌ ولا واجبٌ ليُسْتَشار، ولم يَبْق للعبيد فضيلةٌ غيرُ الطاعة العمياء.

وهنا آخِرُ حَدٍّ للتفاوت وأقصى نقطة تُغْلِق الدائرةَ وتَمَسُّ النقطةَ التى ذهبنا منها، وهنا يَعُود الأفراد إلى مساواتهم الأولى، وذلك لأنهم ليسوا شيئًا يُذْكَر، ولأن الرعايا إذ عاد لا يكون لديهم من القوانين غيرُ مشيئة السيد، وعاد لا يكون للسيد من القواعد غيرُ أهوائه، فإن مبادئ الخير والعدل تزول مرة أخرى، وهنا يُرَدُّ كلُّ شىء إلى قانون الأقوى فقط، ومن ثَمّ إلى حالٍ جديدة للطبيعة مختلفةٍ عن الحال التى بدأنا منها، وذلك لأن إحدى الحالين كانت حال الطبيعة فى صفائها، ولأن الحال الأخرى هى نتيجةُ إفراطٍ فى الفساد، ثم إنه يُوجَد بين هاتين الحالين من قلة الاختلاف، ويكون عقدُ الحكومة من الانحلال بالاستبداد، ما يَبْقَى المستبدُّ معه سيدًا ما ظلَّ الأقوى، فإذا ما أمكن طردُه لم يَكُنْ عنده ما يَشْكُو منه ضِدَّ العنف، وتُعَدُّ الفتنة الشعبية التى تنتهى بخَنْق أحد السلاطين أو خلعه عملاً قانونيًّا كالأعمال التى كان يتصرف بها قبل يومٍ فى حياة رعاياه وأموالهم، والقوةُ الوحيدة التى كانت تؤيده هى التى تُسْقِطه وحدَها، وهكذا فإن جميع الأمور تسير على حَسَب النظام الطبيعىّ، ومهما يكن من أمر هذه الثَّوْرات القصيرة والكثيرة الوقوع فإنه لا يستطيع أحدٌ أن يَتَوَجع من جَوْر الآخر، بل من سوء حظه أو عدم تَبَصُّره.

وهكذا إذا ما اكتشف القارئُ النبيه، وتَتَبَّع، الطُّرُقَ المَنْسِيّة والضائعة التى لابُدَّ من أن تكون قد أتت بالإنسان من الحال الطبيعية إلى الحال المدنية، وإذا ما أعاد القارئ النبيه، بمواقعَ متوسطةٍ بَيَّنْتُها، تلك التى حَمَلَنى الوقتُ على حذفها أو التى لم يُوحِ الخيالُ بها إلىَّ قَطُّ، لم يُمْكِنْه إلا أن يَحَارَ من المَسافة الواسعة التى تَفْصِل بينَ هاتين الحالين، ففى تعاقب الأمور البطىء هذا يُبْصِرُ حَلَّ مالا يُحْصَى من المسائل الخُلُقية والسياسية التى لم يستطع الفلاسفةُ أن يَحلُّوها، وهو، إذ يَشْعُر بأن النوع البشرىّ فى جيلٍ ليس النوعَ البشرىّ فى جيلٍ آخر، يَعْلَم السبب فى كون ذيوجَانس لم يَجِدْ إنسانًا قَطُّ، وذلك لبحثه بين معاصريه عن إنسانٍ زمنٍ غيرِ موجود، وهو يقول إن كاتُون مات مع رومةَ والحريةِ لعدم ملاءمته عصرًا عاش

فيه، وإن أعظم الناس هذا لم يَصْلُحْ إلا لإلقاء الحيرة فى عالمٍ كان يَمْلِكُه، يقينًا، لو ظهر قبل خمسمائة سنة، والخلاصةُ أنه يُوضِح كيف أن الروح والأهواء البشرية تَفْسُدان على وجهٍ غير محسوس ومن ثَمّ تُغَيِّران طبيعتيهما، ولماذا تُغَيِّر احتياجاتُنا وملاذُّنا غرضَها مع الزمن، ولماذا يزول الإنسان الأصليُّ بالتدريج فيعود المجتمع لا يُبْدِى لعَيْنَى الحكيم غيرَ جَمْعٍ من الآدميين المُفْتَعَلين وأهواءٍ مصنوعةٍ نتيجةً لجميع هذه الصلات الجديدة، ومن غير أن يكون لها أساسٌ حقيقيٌّ فى الطبيعة، وما يُعَلِّمنا التأملُ إياه فوق ذلك تُؤيِّده الملاحظة تمامًا، وذلك أن الإنسان الوحشىّ والإنسان المتمدن يَبْلُغان من الاختلاف قلبًا وميولاً ما يكون باعثَ السعادة العليا لأحدهما معه عاملَ قنوطٍ الآخر، فالأولُ لا يستنشق غيرَ الراحة والحرية، وهو لا يريد إلا أن يعيش ويبقى خاليًا من العمل، حتى إن سكون الرُّواقىّ لا يُقَاسُ بعدم مبالاته العميقة تجاه أىّ موضوع آخر، وعلى العكس نَجِدُ الإنسان المتمدن نشيطًا دائمًا فيَعْرَق ويهتزُّ ويضطرب بلا انقطاعٍ بحثًا عن أشاغيلَ أشدَّ عُسْرًا، وهو يَعْمَل حتى الموت، وهو يَسْعى إلى الموت ليعيش، أو يَعْدِلُ عن الحياة نَيْلاً للخلود، وهو يتودَّد إلى العظماء الذين يمقتهم وإلى الأغنياء الذين يحتقرهم، وهو لا يَدَّخر وُسعًا لينال شرفَ خدمتهم، وهو يُبَاهِى منتفخًا بنذالته وحمايتهم،وهو يفاخر بعبوديته، وهو يُحَدِّث مع الاستخفاف عن الذين لم يتفق لهم شرفُ مقاسمته إياها وبالمنظر أعمال الوزير الأوربىّ الشاقة المبتغاة فى نظر الكرايبىّ! وما أكثر المنايا القاسيةَ التى لا يُفَضِّلها هذا الوحشىُّ البليد على هَوْل مثل تلك الحياة التى لم تُلَطَّفْ حتى بلذة فعل الخير! ولكنه يجب لرؤية الغاية من هذه الجهود الكثيرة أن يكون لكلمتى «السلطة والجُمهورية» معنىً فى ذهنه، وأن يَعْلَم وجودَ نوعٍ من الناس الذين يَرَوْن قيمةً لآراء بقية العالَم، والذين يَعْرِفون أن يكونوا سُعَداءَ راضين عن أنفسهم بشهادة الآخرين أكثرَ مما بشهادتهم، والواقعُ أن هذا هو السببُ الحقيقىُّ لجميع هذه الفروق، فالهمجىُّ يعيش فى نفسه، والإنسانُ المتمدن يعيش خارجَ نفسه دائمًا فلا يَعْرِف إلاَّ أن يعيش فى نفوس الآخرين، وهو لهذا السبب يقتبس شعورَ حياته الخاصة من حُكْمهم وحدَه، وليس من موضوعى أن أثبت كيف أنه ينشأ عن مثل هذا التصرف كثيرٌ من عدم المبالاة نحو الخير والشر مع وجود كثيرٍ من

الرسائل الرائعة فى الأخلاق، وكيف أن كلّ شىء، إذْ يُرَدُّ إلى المظاهر، يُصْبح مُفْتَعَلاً مخادَعًا، حتى فى الشرف والصداقة والفضيلة، حتى فى المعايب غالبًا، فَنجِدُ فى ذلك سِرَّ الافتخار فى آخر الأمر، والخلاصةُ كيف أننا، إذ نسأل الآخرين عن أنفسنا دائمًا، ومن غيرَ أن نَجْرُؤ على سؤال أنفسنا، وذلك بين كثير من الفلسفة والإنسانية والأدب والمبادئ العليا، لا نَجِدُ لدينا غيرَ مظهرٍ خادع طائش لشرفٍ بلا فضيلة وعقلٍ بلا حكمة ولذةٍ بلا سعادة، ويكفى أننى أثبتُّ أن هذا ليس حالَ الإنسان الأصليةَ مطلقًا، وأن روح المجتمع والتفاوتِ الذى ينشأ عن المجتمع هى التى تُغَيِّر جميعَ الميول الطبيعية وتُفْسِدُها على هذا الوجه.

وقد حاولتُ أن أعْرِض أصلَ التفاوت وتقدُّمَه، وقيامَ المجتمعات السياسية وسوءَ استعمالها، وذلك بالمقدار الذى يُمْكِن هذه الأمورَ أن تُسْتَنْبَط من طبيعة الإنسان على نور العقل فقط مستقلةً عن العقائد المقدسة التى تَمْنَحُ السلطةَ ذات السيادة تأييدَ الحقوق الإلهية، ويُعْلَم من هذا البيان أن التفاوت، إذْ كان غيرَ موجودٍ فى حال الطبيعة تقريبًا، ينال قُوَّته ونُمُوَّه من تقدم مَلَكاتِنا وتَرَقِّى الروحِ البشرية، ثم يصبح ثابتًا شرعيًّا بقيام مُلْك القوانين، ويُعْلَم من هذا البيان أيضًا أن التفاوت الأدبىَّ الذى أجازته الحقوقُ الوضعية فقط مخالفٌ للحقوق الطبيعية فى كلِّ مرة لا يتناسب هو والتفاوتُ البدنىُّ، ويُعَيِّن هذا التمييزُ بما فيه الكفاية ما يجب أن يُفَكَّر فيه من هذه الناحية حَوْلَ نوع التفاوت الذى يسود جميع الشعوب المتمدنة ما دام يباين قانونَ الطبيعة، مهما كان الوجه الذى يُعَرَّف به، أن يقود ولدٌ شائبًا، وأن يسوق غبىٌّ رجلاً حكيمًا، وأن تَطْفَح شِرْذِمةٌ من الأتباع بالزوائد على حين يحتاج الجُمهور الجائع إلى الضرورىّ.

تعليقات

تنبيه حَوْل التعليقات

أضفتُ بعضَ تعليقاتٍ إلى هذا الكتاب وَفْقَ عادتى المتوانية فى العمل متواترًا، وتبتعد هذه التعليقات عن الموضوع أحيانًا بما فيه الكفاية، فلا يَصْلُح أن تُقْرَأ ضِمْنَ المَتن، ولذا فقد دَحَرْتُها إلى آخر الرسالة التى حاولتُ أن أتَّبع فيها أقومَ سبيلٍ جُهْدَ الطاقة.. ويُمْكِن مَنْ هم على شىء من الإقدام فى العَوْد ثانيةً أن يَتَلَهَّوْا مرةً أخرى بالقيام ببعض المباحث ومحاولة تصفح التعليقات، ولا كبيرَ ضررٍ فى عدم مطالعة الآخرين إياها مطلقًا.

(١)

الصفحة ١٦ : روى هِيرُودُتس أن مُنْقِذِى فارسَ السبعةَ اجتمعوا بعد مقتل سمِرْدِيس (بَرْدِية) للبحث حَوْل شكل الحكومة الذى يُنْعِمون به على الدولة، فأصرَّ أُوتانِس بشدةٍ أن يكون جُمهوريًا، أى أبدى رأيا زاد فى غرابته صدورُه عن فَمِ مَرْزُبانٍ بمقدار ما كان من خشية الأكابر نوعًا من الحكومة يَحْمِلهم على احترام الناس فضلاً عن ادعاء قدرته على حيازة إمبراطورية، ولم يُسْتَمَعْ إلى أُوتانِسَ قَطُّ كما يُمْكِن أن يُعْتَقد، وقد تَنَزَّل لمنافسيه عن حَقِّه فى التاج لرغبته عن الطاعة والقيادة، وكان ذلك عندما رأى عزمًا على الشُّرُوع فى انتخاب ملك، فسأل أن يُعَوَّض من ذلك بأن يكون حُرًّا مستقلاً هو وذريتُه، وهذا ما أُجِيبَ إليه، ولو لم يعلمنا هِيرُودُتُسُ ما وُضِعَ من قيدٍ على هذا الامتياز لوَجَب افتراضُه بحكم الضرورة، وإلا لكان أُوتَانِسُ، غيرُ المعترِف بأىِّ نوعٍ من القانون وغيرُ المُلْزَم بتقديم حسابٍ إلى أحد، صاحبَ الحَوْل فى الدولة ولكان أقوى من الملك أيضًا، ولكنْ لم يكن الظاهرُ ليدلَّ قَطُّ على كون الرجل، القادرِ على الاكتفاءِ بمثلِ هذا الامتياز فى مِثْل هذه الحال، قادرًا على إساءة استعماله، والواقعُ أنه لا يُرَى أن هذا الحقَّ أدى إلى أقلِّ اضطرابٍ فى المملكة، لا من قِبَل أُوتَانس، ولا من قِبَل أحدٍ من ذريته.

* * *

(٢)

الصفحة ٢٥: أستند منذ خُطوتى الأولى مطمئنًّا إلى إحدى تلك الحجج المعتبرة لدى الفلاسفة، لصدورها عن عقلٍ متين عالٍ يَعْرفون وحدَهم أن يَجِدُوه ويُحِسُّوه.

«ومهما تَكُنْ مصلحتنا فى معرفة أنفسنا بأنفسنا فإننى لا أَعْلَم هل نَعْرِف أحسنَ من ذلك ما هو خارجٌ عنا، وبما أن الطبيعة جَهَّزتنا بأعضاءٍ مُعَدَّةٍ لحفظنا فقط فإننا لا نستعملها إلا لتلقى المؤثِّرات الخارجية، فلا نَبْحَث عن غير انتشارنا فى الخارج وعن وجودنا خارجَ أنفسنا، وبما أننا كثيرو الانهماك فى تكثير وظائف حواسنا وزيادةِ سَعَةِ كياننا الخارجية فإن من النادر أن نستعمل هذا الحسَّ الباطنىَّ الذى يَرُدُّنا إلى أبعادنا الحقيقية، والذى يَفْصِل عنا كلَّ ما ليس منها، ومع ذلك فإنه يجب أن ننتفع بهذا الحسّ إذا ما أردنا معرفةَ أنفسنا، وهذا هو الحسُّ الوحيد الذى نستطيع أن نَحْكُم به فى أنفسنا، ولكن كيف نُعْطِى هذا الحسَّ فاعليتَه وجميعَ مداه؟ وكيف ننقذ روحَنا التى يَسْتقرُّ بها من جميع أوهام نفسنا؟ لقد فَقَدْنا عادةَ استعماله، وقد ظلَّ بلا تمرينٍ بين هَرْج إحساساتنا البدنية، وقد جَفَّ بنار أهوائنا، والقلبُ والروحُ والحواسُّ أمورٌ قد عَمِلَت ضِدَّها».

* * *

(٢)

الصفحة ٣٧: إن ما أمْكَن أن تؤدىَ إليه عادةُ السَّيْر على قدمين من تحولاتٍ فى تَكَوُّن الإنسان، وإن ما لا يزال يلاحَظ من صلاتٍ بين ذراعيْه ورِجليْ ذواتِ القوائم الأربع، وما انْتُهِى إليه من استقراءٍ عن طِراز مَشْيها، أمْكن أن يُثِيرَ رِيبًا حَوْلَ ما يجب أن يكون أقربَ إلى الطبيعة لدينا، ويبدأ جميعُ الأولاد بالسَّيْر على أرجل أربع، وهم يحتاجون إلى مثالنا ودروسنا لتعلُّم القيام، حتى إنه يوجد من الأمم الوحشية من هى كالهُوتِنْتُو الذين يُهْمِلُون الأولادَ كثيرًا فيَدَعُونهم يسيرون على أيديهم وقتًا كبيرًا فيَجِدُون مشقةً عظيمة حَمْلاً لهم على الوقوف، وقُلْ مثلَ هذا عن أولاد كَرَايب الأَنتِيّ، وتُوجَدُ أمثلةٌ شَتَّى عن آدميين من ذوى القوائم الأربع، ومن ذلك أذكُر ذلك الولد الذى وُجِدَ فى سنة ١٣٤٤ بالقُرْب من هِسَّ حيث كان يُغَذَّى من قِبَل الذئاب، والذى قال فى بَلاَط الأمير هنرى فيما بعد إنه كان يُفَضِّل أن يَعُود إليها على العيش بين الناس لو تُرِك وشأنه، وقد بَلَغ من اتخاذ عادة هذه الحيوانات فى السَّيْر ما وَجَب أن تُرْبَط فيه قِطَعٌ من الخشب لِيَقِف على رِجليْه معتدلاً، ومِثْلُ ذلك حالُ الولد الذى وُجِد سنة ١٦٩٤ فى غابات لِتْوانية حيث كان يعيش بين الدِّبَبَة، فرَوَى مسيو دُوكُونْدِيَّاك أنه كان لا يَبْدُو عليه أىُّ أثرٍ من العقل، وأنه كان يسير على رجليه ويديه، وأنه كان خاليًا من كلِّ لغة، فيخْرِج من الصوت مالا يشابه أصواتَ أحدٍ من الآدميين، وكان وحشىُّ هانُوفْرَ الصغيرُ، الذى جُلِبَ إلى بَلاط إنكلترة منذ سنينَ كثيرةٍ، يلاقى جميعَ شدائد العالم لِيُطِيقَ المشىَ على رجلين، وفى سنة ١٧١٩ وُجِدَ فى جبال البرانس وحشيان آخران كانا يجُوبان الجبال على مثال ذوات القوائم الأربع، وأما ما يُمكِن أن يُعْتَرَض به من أن هذا يَعْنِى تَجَرُّدًا من الأيدى التى نَصِلُ بها إلى كثير من المنافع، وذلك عَدا ما يدلُّ عليه مثال القِرَدة من إمكان استخدام اليد على وجهين، فيُثْبِتُ، فقط، إمكانَ مَنْحِ الإنسان أعضاءه غَرَضًا أصلحَ من غَرض الطبيعة، لا كونَ الطبيعة قد أعدت الإنسان للسير على غير ما تُعَلِّمُه.

ولكنه يُوجَد، كما يلوح، أسبابٌ كثيرةٌ وجيهةٌ يُثْبَتُ بها كونُ الإنسان ذا رجلين، وذلك أنه إذا ما أُثْبِتَ، أولاً، إمكانُ كونه فى البُداءة على غير ما يَبْدُو لنا، وأن يصبح فى آخر الأمر على ما هو عليه، فإن هذا لا يكفى لاستنباط وقوع هذا على هذا الوجه، وذلك لأنه يَجِبُ، بعد إثباتِ إمكان هذه التحولات، أن يُثْبَتَ، قبل التسليم بها، احتمالُ وقوعها على الأقل، ثم إذا أمكن ذراعَي الإنسانِ أن تَصْلُحا رِجلين له عند الحاجة، كانت هذه هى الملاحظَةَ الملائمةَ الوحيدة لهذا النظام تجاه عددٍ كبير من الملاحظات المخالفة لها، وأهمُّها هى: أن الوجهَ الذى يرتبط به رأسُ الإنسان فى جسمه يَجْعَلُ عينيه ناظرتين إلى الأرض، أى يَجْعَلُه فى وضعٍ قليلِ الملاءمة لبقاء الفرد، وذلك بدلاً من توجيه نظره أفقيًّا كما هى عليه جميع الحيوانات الأخرى، وكما يكون عليه هو نفسُه إذا ما سار على رجلَيْن لا على أربع، وأن الذَّنَب الذى لا ينفعه إذا مشى على رِجلين مفيدٌ لذوات القوائم الأربع، فلم تُحْرَمْه أيَّة واحدةٍ منها، وأن ثَدْىَ المرأة الحَسَنَ الوضعِ كثيرًا لذاتِ الرِّجلين التى تُمْسِك ولدَها بين ذراعيها يكون سيِّئَه لذات القوائم الأربع التى لم يَضَعْها شىءٌ على هذا الوجه، وأن المُؤَخَّرَ إذْ كان ذا ارتفاعٍ مُفْرِطٍ إذا ما قيس بقَدَمى المُقَدَّم فإننا نزحف على الرُّكبتين عند سيرنا على أرجلٍ أربع، وهذا كلُّه يَجْعَل الحيوان سَيِّئَ النسبة عسيرَ المشى، وأنه إذا ما وَضع الرِّجلَ واليدَ على الأرض كان فى الساق المؤخَّرة مفْصَلٌ أقلُّ مما فى الحيوانات الأخرى، أى المفصلُ الذى يَرْبِط عظمَ الشَّظِيَّة بعظم القَصَبة، فإذا لم يُوضَعْ غيرُ طرف الرِّجل، كما هو مُكْره عليه لا رَيْب، ظَهَر الرُّسْغ من الضخامة ما لا يقوم معه مقام عظم الشَّظِيَّة، وذلك من غير قولٍ عن كثرة العظامِ التى يتألف منها، وظهرت مفاصلُه مع مُشْط القدم وعَظْم القصبة من التَّدانى ما لا تَمْنَح معه الساقَ البشرية فى هذا الوضع مثلَ ما تمنحه ذواتَ القوائم الأربع من المرونة، وبما أن مثال الأولاد قد أُخِذَ فى سِنٍّ لم تكمل فيها القُوَى الطبيعيةُ بَعْدُ، ولم تشتدَّ فيها الأعضاءُ بَعْدُ، فإنه لا يؤدى إلى نتيجةٍ مطلقًا، وكذلك أودُّ لو أقول إن الكلاب لم تُعَدَّ للمشى، وذلك لأنها لا تَصْنَعُ غيرَ الزحف بعد وِلادتها ببضعة أسابيعَ، وكذلك الوقائعُ الخاصة غيرُ ذات قوة كبيرة تجاه السَّيْر العامِّ بين جميع الناس، حتى إن الأمم التى لا يتصل بعضُها ببعضٍ لم تستطع تقليدَ بعضها بعضًا، وإذا ما تُرِك ولدٌ فى غابةٍ قبل أن يَقْدِر

على السير، فَغُذِّىَ من قِبَل حيوانٍ ما، اتَّبَع مثالَ مُرْضعه بممارسته المشى مثلَها، فالعادةُ تستطيع أن تَمْنَحه من التيسير ما لا يناله من الطبيعة، وكما أن الشُّلَّ يَنْتَهُون بفعل التمرين إلى صنعهم بأرجلهم ما نصنعه بأيدينا فإنه ينتهى فى آخر الأمر إلى استعمال يديه فى عمل الرجلين.

* * *

(٤)

الصفحة ٣٧: إذا وُجِد بعضُ الأزْدِياء من علماء الطبيعة مـن يُقِيمُ مصاعبَ حَوْل افتراض هذا الخِصْب الطبيعيّ فى الأرض فإننى أُجيبه عن ذلك بالعبارة الآتية:

«بما أن النباتاتِ تَسْتَخلص من الهواء والماء مادةً أكثرَ مما تستخلص من الأرض فإنها تعيد إلى الأرض أكثرَ مما تستخلص منها إذا ما خَمِجَت، ثم إن الغابة تُعَيِّنُ مياه المطر بوَقْفها الأبخرة، وهكـذا فإن طبقـة الأرض التى تُفِيدُ النبـات تَزِيدُ كثيرًا فى غابةٍ تُحْفَظُ طويـلاً من غير أن تُمَسَّ، ولكنْ بما أن الحيواناتِ تُعِيدُ إلى الأرض أقلَّ مما تستخلصُ منها، وبما أن الناس يستهلكون كثيرًا مـن الحطـب والنبات للوَقُود وغيره من الاستعمالات الأخـرى، فإن الذى يَحْدُث كونُ طبقةِ الأرض النباتيـة فى بلدٍ مسـكونٍ تَنْقُص دائـمًا وتتحول فى نهاية الأمـر إلى أرضٍ كالبَطْرا العربية (بـلاد الحِجْـر)، وككثيرٍ من ولايات الشرق الذى كان، بالحقيقـة، أكثرَ الأقاليم عُمرانًا فى غابر الأزمان، فلا يوجد هناك غيرُ المِلْح والرمال، وذلك لأن المِلح المسـتقرَّ فى النباتات والحيوانات يبقـى على حـين يتحول جميع الأجزاء الأخرى إلى بخار»، (التاريـخ الطبيعىّ، أدلةٌ حَوْل نظرية الأرض، المادة ٧).

وإلى ذلـك يُمْكِـن أن يضاف الدليلُ الواقعىُّ بمقدار الشـجر والنبات مـن كلِّ نوع فكانت طافحـةً بـه تقريبًا جميعُ الجزائر المهجورة التى اكْتُشِـفت فى القرون الأخـيرة، وبما يُخْبِرنا التاريخُ عنه من الغابات الواسعة التى وجب خَبْطُها فى جميع الأرض كلما عُمِرَت أو مُدِّنت، وإنى أُبدى الملاحظـاتِ الثلاث الآتية حَوْل ذلك، فالأولى هى أنه إذا وُجِدَ نوعٌ من النباتات التى تسـتطيع أن تُعَوِّض من التَّلَف بالمادة النباتية التى تنشأ عن الحيوانات وَفْقَ استدلال مسيودوبُوفُون كان ذلك، على الخصوص، آجامًا تلتفُّ رؤوسُـها وأوراقُها فتختصُّ بمياهٍ وأبخرةٍ أكثرَ مما تختصُّ به النباتـات الأخـرى، والثانيةُ هـى أن تَلَف الأرض، أى ضَياعَ المادة الخاصـة بالنبات، وَجَب أن يُعَجَّل بنسـبة ما تكون الأرض أكثرَ زراعةً، وبنسـبة ما يسـتهلك أهلوها الذين هم أكثرُ مهارةً، بفَيْضٍ، محصولاتِها التى هى من كلِّ نوع، والملاحظةُ الثالثةُ، وهى أهمُّها، هى أن ثمراتِ الشجر

تُجَهِّز الحيوانَ بغذاءٍ أكثرَ فَيْضًا مما تَقْدِر عليه النباتاتُ الأخرى، وهذه تجرِبةٌ قُمتُ بها بنفسي بمقابلتي بين محصولات أرضيْن متساويتين اتساعًا وخاصِّيَّةً فتكون إحداهما مستورةً بشجر الكَسْتناء، وتكون الأخرى مزروعةً بُرًّا.

(٥)

الصفحة ٣٨: يُستخلَص الفَرْقان الأكثرُ عمومًا، بين الأنواع النَّهَّامة من ذوات الأرجل الأربع، من شكل الأسنان ومن تكوين الأمعاء، فالحيواناتُ التى لا تعيش إلا من النباتات ذاتُ أسنانٍ مستوية، كالفرس والثَّوْر والضائن والأرنب، والحيواناتُ النَّهَّامة ذاتُ أسنانٍ حادّة كالهِرّ والكلب والذئب والثعلب، وأما الأمعاءُ فى آكلة النبات فبعضُها كالأمعاء الغليظة التى لا توجد فى الحيوانات النَّهَّامة، ويلوح، إذَنْ، أن الإنسان، الصاحبَ لأسنانٍ وأمعاء كالتى فى الحيوانات الآكلة النبات، يجب أن يُعَدَّ من هذا الصنف، وليست المشاهدات التشريحية وحدَها هى التى تؤيد هذا الرأى، بل تجد آثارَ العصور القديمة ملائمةً له أيضًا، قال سان جِيرُوم: «رَوَى دِيسِيَارِكُ فى كتبه عن قدماء اليونان أنه لم يوجد فى عهد ساتُورن، حين كانت الأرضُ خصيبةً بنفسها، إنسانٌ يأكل اللحم، وإنما كان الجميع يعيش بالفواكه والبقول التى تَنْمُو نموًّا طبيعيًّا»[1]، ويمْكِن تأييدُ هذا الرأى أيضًا برِحلاتِ كثيرٍ من السُّيَّاح المعاصرين، ومن ذلك أن فرَنْسُوا كورْيَال ذكَر، فيما ذَكَرَ، كونَ مُعظَم سكان لوكاى الذين نقلهم الإسبان إلى جزائر كوبا وسان دُومِينْغ وغيرهما مات لأكله لحمًا، ومن ثَمَّ يُرَى أننى أُهْمِل كثيرًا من المنافع التى يمكننى استغلالُها، وذلك لأن الفريسة إذْ كانت مدارًا وحيدًا تقريبًا لِمَا بين الجَوَارح من نِزاع، وإذ كانت آكلةُ النبات تعيش فيما بينها بسلام دائم، لو كان الجنس البشرىُّ من هذا النوع الأخير، فإن من الواضح أن يكون للجنس البشرىّ كثيرُ تيسيرٍ للبقاء فى حال الطبيعة وقليلُ احتياجٍ وفرصةٍ للخروج منها.

(١) Lib. II, adv. Jovinian.

(٦)

الصفحة ٣٨: يَظْهَر أنه يَخْرُج عن مُتَنَاوَل الإنسان الوحشىّ جميعُ المعارف التى تستلزم تأملاً، وجميعُ المعارف التى لا تُكْتَسَبُ إلا بتسلسل الأفكار والتى لا تَكْمُل إلَّا متعاقبةً، وذلك عن عدم اتصاله بأمثاله، أى عن عدم وجود أداة تَصْلُح لهذا الاتصال، وعن عدم وجود احتياجاتٍ تَجْعَله ضروريًا، وتقْتصر معرفته وصنعته على الوثوب والركض والقتال ورمى الحجر وتَسَلُّق الشجر، ولكنه إذا كان لا يَعْرِف غيرَ هذه الأمور فإنه يَعْرِفُها أحسنَ مما نَعْرِف بكثير، نحن الذين ليس لديهم مثلُ احتياجه إليها، وبما أنها تَتْبَع تمرينَ البدن فقط، وليست عُرْضة لأىّ نَقْلٍ، ولا أىّ تقدمٍ، من فردٍ إلى آخرَ فإن الإنسان الأول استطاع أن يكون ماهرًا فيها مهارةَ آخرِ أعقابه.

وتَطْفَح رحلاتُ السيَّاح بأمثلةٍ بأسِ الناس وقوتهم لدى الأمم البربرية والوحشية، وليس أقلَّ من هذا ما جاء فيها من ثناءٍ على حِذْقهم وخفتهم، وبما أنه لا يُطْلَبُ غيرُ عيونٍ لملاحظة هذه الأشياء فإنه لا شىءَ يَحُولُ دون تصديق ما يُؤَكِّده شهودُ عِيانٍ فوق ذلك، فأختار اتفاقًا بعضَ الأمثلة من الكتب الأولى التى تقع تحت يدى.

قال كُولْبِن: «يُدْرِك الهُوتنتو صيدَ البحر خيرًا مما يدركه أوربيو الكاب، ويَعْدِل حذقُهم الشَّبَكةَ والشِّصَّ والنُّشَّابَ فى الخُلْجان والأنهار، وليس أقلَّ من ذلك براعتُهم فى إمساك السمك باليد، ولا مثيلَ لمهارتهم فى السِّباحة، ويوجد فى طِراز سِباحتهم الخاصِّ بهم تمامًا ما يُثِيرُ الحيرة، فهم يَسْبَحُون مستقيمى البدن ناشرى الأيدى خارجَ الماء، فيَبْدُون كأنهم يَمْشُون على الأرض، وهم، عندما يَبْلُغُ اضطرابُ البحر غايتَه ويُصْبح الموجُ كالجبال، يَرْقُصون على مَتْنه صاعدين هابطين كقطعةٍ من الفَلِّين».

وقال المؤلِّفُ نفسه: «إن الهوتنتو ذوو حِذْقٍ عجيب فى الصيد، وتَفُوقُ الخيالَ خِفَّتُهم فى العَدْو»، ويَعْجَب من كونهم لم يسيئوا استعمال سرعتهم فى الغالب، وهذا ما يحْدُث أحيانًا مع ذلك، كما يُرَى من المثال الذى يُقَدِّمه عن ذلك، فقد قال: «نَزَل مَلَّاحٌ هولندىٌّ إلى بَرّ الكاب

وكَلَّف هُوتِنْتِيًّا بأن يتبعه إلى المدينة مع طِوَى تَبْغٍ يزِنُ نحو عشرين رِطْلاً، فلما كان الاثنان على مَسافةٍ من الزمرة سأل الهُوتِنْتِيُّ المَلَّاحَ عن معرفته للركض، فأجاب الهولنديُّ بقوله: الركضُ؟ أَجَل، جيدًا جدًّا، فقال الإفْريقيُّ: سنرى، وقد فَرَّ مع التَّبْغ وغاب من فَوْره تقريبًا، وقد دُهِشَ المَلَّاح من تلك السرعة العجيبة، فلم يُفكِّر فى تَعَقُّبه قَطُّ، ولم يَرَ تَبْغَه ولا حامله بعد ذلك».

«ولهم من البصر الحديد واليد السَّدِيدة ما لا يَدْنو الأوربيون معه منهما مُطْلَقًا، فهم يُصيبون بحجرٍ علامةً باتساع نصف فَلْسٍ على مَسافة مائة خُطوة، وأعجبُ ما فى الأمر هو أنهم يأتون بحركاتٍ وتشنجاتٍ مستمرة بدلاً من أن يَجْعلوا الهدفَ نُصْب عيونهم كما نصنع، فيَظْهر أن يدًا خفيةً تَحْمِل حجرَهم».

وما قاله الأب دوتِرْتِر عن وحوش الأنتيل يَقْرَب مما قيل عن هُوتِنْتُو رأسِ الرجاء الصالح، فهو يمتدح سَدَادَهم فى توجيه سهامِهم إلى الطيور وهى طائرةٌ وصيدَهم السَّمك سَبْحًا مع غَوْصٍ، وليس وحوش أمريكة الشمالية أقلَّ من هؤلاء صيتًا بقُوَّتهم وحِذْقهم، وإليك مثالاً يُمْكِن أن يُحْكَم به فى أمرِ هنود أمريكة الجنوبية:

حُكِم فى قادس فى سنة ١٧٤٦ بالليمان على هنديٍّ من بُوينوس إيرس فَعَرض على الحاكم أن يشترى حريته بتعريضه حياتَه للموت فى عيدٍ عامٍّ، وقد وَعَد بأن يهاجِم وحدَه أشرسَ ثَوْرٍ غيرَ حاملٍ من السلاح سوى حَبْلٍ بيده، وبأن يُمْسِكه بحبله من العُضو الذى يُشَار إليه، وبأن يُسْرِجَه ويُلْجِمه ويَرْكبه ويصارعَ وهو على هذا الوجه ثوريْن من أشرس الثيران يُخْرَجان من حَظِيرَة الميدان، وبأن يَقْتُل أحدَهما بعد الآخر فَوْرَ أمره بذلك، ومن غير أن يُعِينه أحدٌ على ذلك، وهذا ما أُجيب إليه، ويَفِى الهندىُّ بوعده ويُوَفَّقُ فى جميع عَهْده، ومن يُرِدِ الاطِّلاعَ على المِنْهاج الذى اتخذه وعلى جزئيات المصارعة فليراجع الجزءَ الأول من «ملاحظات فى التاريخ الطبيعىّ» لمسيو غُوتْيه حيث اقتبسنا خَبَر هذا الحادث (صفحة ٢٦٢).

***

(٧)

الصفحة ٤٠: قال مسيو دُوبوفُون: «إن مدة حياة الخيل تكون على نسبة مدة نُمُوِّها، كما هى الحال فى جميع أنواع الحيوانات الأخرى، فالإنسانُ الذى يتطلب أربعَ عشرةَ سنةً لنشوئه يمكنه أن يعيش ما يعدل ستةَ أو سبعةَ أمثال هذه المدة، أى تسعين سنة أو مائة سنة، والحصانُ الذى يتمُّ نُموُّه فى أربع سنين يُمْكِنه أن يعيش ما يَعْدِل ستةَ أو سبعة أمثال هذه المدة، أى خمسًا وعشرين سنة أو ثلاثين سنة، وتَبْلُغ الأمثلةُ التى يُمْكِن أن تخالف هذه القاعدة من النُّدْرة ما لا ينبغى معه حتى عَدُّها استثناءً يُمْكِن أن تُسْتخرج منه نتائجُ، وبما أن الخيل السمينة تَنْمُو فى مدةٍ أقلَّ مما تنمو فيها الخيلُ الدقيقة فإنها تعيش مدةً أقلَّ مما تعيش فيها تلك، وهى تدخل دَوْرَ الهَرَم منذ دخولها الخامسةَ عشرةَ من السِّنِّ»، (تاريخ الخيل الطبيعىّ).

* * *

(٨)

الصفحة ٤٠ : أعتقد أننى أبصر فى الحيوانات الجوارح وفى آكلة النبات فَرْقًا آخرَ أكثرَ عمومًا من الذى لاحظته فى التعليق الخامس، وذلك لأنه يَشْمَل حتى الطيور، ويقوم هذا الفرق على عدد الصِّغار الذى لا يزيد على الاثنين، مطلقًا، فى كلِّ نتاجٍ من الأنواع التى لا تعيش إلا من النباتات والذى يزيد على ذلك عادةً فى الحيوانات النَّهَّامة، ويَسْهُل أن يُعْرَف ما تُعَيِّنُه الطبيعة فى ذلك من عدد الثُّدِىّ الذى يكون اثنين فى كلِّ أنثى من النوع الأول كالفرس والبقرة والعنزة والوعْلة والنعجة، إلخ.، والذى يترجح دائمًا بين الستة والثمانية فى الأناثىِّ الأخرى كالكلبة والهِرَّة والذِّئبة والنَّمِرة، إلخ.، وتَبيِضُ الدجاجة والإوزَّة والبطة، التى تُعَدُّ كلُّها من الطيور النَّهَّامة، وكذلك اللَّقْوَة[1] والبومة وأنثى الباز، وتَرْخُم بَيْضًا كثيرًا، أى تقوم بأمرٍ لا يتفق للحمامة ولا للقُمْرِية ولا للطيور التى لا تأكل غيرَ الحبِّ فلا تُلْقِى ولا تَحْضُن غيرَ بَيْضتين، ويقوم السبب الذى يُمْكن ذكره فى هذا الفَرْق على كون الحيوانات التى لا تعيش بغير الكلأ والنبات تقضى يومَها كلَّه تقريبًا فى طلب القُوت فتُضْطَرُّ إلى قضاء وقتٍ كبير فى الاغتذاء، ولا تستطيع أن تكفَىَ لإرضاع صِغارٍ كثير، وذلك على حين تقوم الحيواناتُ النَّهَّامة بطعامها فى سُوَيْعَةٍ فيسهل عليها فى الغالب أن تعُود إلى صغارها وإلى صَيْدها وأن تتدارك ما أُسْرِف من لَبَن كثير، ويُمْكِن أن تُبْدَى فى ذلك عِدَّةُ ملاحظاتٍ وتأملات خاصة، ولكن لا مكانَ هنا لذلك، ويكفى أن أُبيِّن فى هذا القسم نظامَ الطبيعة الأكثرَ عمومًا، هذا النظامَ الذى يُجَهِّز بسببٍ جديد فى إخراج الإنسان من طبقة الحيوانات الجوارح وصَفِّهِ بين الأنواع الآكلة للنبات.

* * *

(١) اللقوة: أنثى العقاب.

(٩)

الصفحة ٤٥ : حَسَبَ مؤلفٌ مشهورٌ خيرَ الحياة البشرية وشرَّها وقابل بين المقدارين فوجد المقدارَ الثانى يزيد على الأول كثيرًا وانتهى، بعد أن قَلَّب جميعَ الأمور، إلى أن الحياة البشرية ليست هِبَةً ذاتَ قيمة مطلقًا، ولم يَعْتَرِنى دَهَشٌ، قَطُّ، من النتيجة التى وَصَل إليها، فقد استنبط جميعَ براهينه من نظام الإنسان المدنىّ، فلو رَجَع إلى الإنسان الطبيعىّ لرأى أنه كان يُمْكِنه أن يَجِد نتائجَ مختلفةً جِدًّا، فيُبْصِر أنه لم يكن لدى الإنسان من الشرور غيرُ ما أعطى نفسَه إياه، وليس من غير مشقةٍ أن انتهينا إلى جعل أنفسنا بالغى الشقاء، فإذا ما نُظِرَ من ناحيةٍ إلى أعمال الناس الواسعة، وما وقع من تَبَحُّرٍ فى العلوم واختراعٍ فى الفنون، وما استُخْدِم من قُوىً، وما مُلِئ من هُوىً، وما هُدَّ من جبال، وما حُطِّم من صخور، وما جُعِلَ من أنهار صالحًا للمِلَاحة، وما أُحْيِىَ من أرَضِين، وما حُفِر من بُحَيْرات، وما جُفِّف من مستنقعات، وما أُقيم على الأرض من مبانٍ ضخمة، وما سُتِرَ بالسفن والمَلَّاحين من بحار، وإذا ما بُحِثَ من ناحيةٍ أخرى، مع قليل تأمُّلٍ، فى المنافع الحقيقية التى نشأت عن جميع ذلك فى سبيل سعادة النوع البشرىّ، لم يَسَع المرء إلا أن يُصْدَم مما يَسُود هذه الأمورَ من تفاوت عجيب فيَرْثى لعَمَى الإنسان الذى يَسُوقه بشدةٍ وراء كلِّ شقاء يُمْكِن أن يصيبه، وراء كلِّ شقاءٍ كانت الطبيعةُ المحسنة قد عُنِيت بإقصائه عنه، وذلك تغذيةً لزهوه السخيف وإعجابه الباطل بنفسه.

والناسُ خبثاءُ، وتُغْنِى عن الدليل تجرِبةٌ كئيبة دائمة، ومع ذلك فإن الإنسان صالحٌ بطبيعته، وأعتقد أننى أثبتُّ ذلك، فما الذى أفسده من هذه الناحية، إذَنْ، إنْ لم يكن ماطرأ على نظامه من تحول، وما أوجبه من تقدم، وما اكتسبه من معارف؟ وليُعْجَب المرءُ بالمجتمع البشرىّ ما شاء، وليس أقلَّ من ذلك حقيقةً كونُ هذا المجتمع يَحْمِل الناسَ على التباغض، بحكم الضرورة، بنسبة زيادة مصالحهم، وعلى تبادل الخِدَم ظاهرًا وضَرٍّ بعضهم بعضًا بكلِّ ما يُتَصَوَّر حقيقةً، وما يُمْكِن أن يقال عن صلةٍ يُمْلِى داعى كلِّ فردٍ فيها قواعدَ مباينةً رأسًا للقواعد التى يَعِظُ الداعى العامُّ بها هيئةَ المجتمع وحيث يَجِدُ كلُّ واحدٍ حسابَه فى شقاء الآخرين؟ ومن المحتمل

أنك لا تجد رجلاً مُوسِرًا لا يَتَمَنى موتَه سرًّا ورثتُه الطامعون، وأولادُه في الغالب، وأنك لا تَجِدُ سفينةً لا يكون غَرَقها في البحر حادثًا سارًّا عند بعض التجار، ولا تَجِدُ محلاً تجاريًّا لا يَوَدُّ المَدِينُ السَّيِّئُ النية أن يراه محترقًا مع جميع ما يشتمل عليه من أوراق، ولا تجِدُ شعبًا لا يُسَرُّ بمصائب جيرانه، وهكذا فإننا نَجدُ فائدتنا في ضرر أمثالنا، فخُسْرانُ أحدهم يُوجِبُ غِبْطَةَ الآخر دائمًا تقريبًا، ولكن أكثرَ ما يكون خَطَرًا هو أن تكون البلايا العامةُ مدارَ أملِ جَمْعٍ من الأفراد وموضعَ رجائهم، فبعضُهم يريد أمراضًا، وآخرون يريدون فناءً، وآخرون يريدون حربًا، وآخرون يريدون مجاعةً، وقد رأيت أناسًا قِبَاحًا يَبْكُون ألمًا من طلائع سَنَةٍ خصيبة، ويحتمل أن كان حريقُ لندن، الكبيرُ المشؤوم والذى قضى على حياة كثير من التُّعساء وأموالهم، قد أسفر عن اغتناء أكثرَ من عشرة آلاف شخص، وأَعْلَمُ أن مُونتِينَ لامَ الأثِينِيَّ دِمَادسَ على معاقبته أحدَ العمال لبيعه بأثمانٍ مرتفعةٍ جِدًّا توابيتَ فكان يَكْسِب كثيرًا عند موت المواطنين، غير أن السبب الذى ذكره مُونتِين ينطوى على وجوب مجازاة جميع العالَم فيؤيد ما ذكرته من أسباب كما هو واضح، ولِذَا فليُطَّلَعْ، من خِلال أدلتنا التافهة في الرِّفق، على ما يَقَع في أعماق القلوب، ولْيُنْعَم النظرُ فيما يجب أن تكون عليه حال الأمور التى يُضْطَرُّ فيها جميعُ الناس إلى مداراة بعضهم بعضًا وإلى تهادمهم مقابلةً، والتى يُولَدُون فيها أعداءً عن واجبٍ وشُطَّارًا عن مصلحة، وإذا ما أُجِبْتُ بأَن المجتمع بَلَغ من التكوين ما يَكْسِب الإنسانُ معه في خدمة الآخرين رَدَدْتُ عن هذا بقولى إن من الحَسَن جدًّا ألا يَكْسِبَ أكثرَ من أن يَضُرَّهم، ولا يُوجَد من الكَسْب الحَلَال مالا يزيد عليه الكَسْبُ الحرام، وما يُلْحَقُ بالجار من ضررٍ أكثرُ ربحًا من الخِدَم، ولا شىءَ يُطْلَبُ غيرُ معرفة الوسائل التى يُطْمَأَنُّ بها إلى عدم العِقاب، ولذا يستعمل الأقوياءُ جميعَ قُوَاهم، ويَستعمل الضعفاءُ جميعَ حِيَلهم.

وإذا ما طَعِمَ الإنسان الوحشىُّ كان على وِئام مع جميع الطبيعة وصديقًا لجميع أمثاله، وإذا ما ثار نِزَاعٌ حَوْل طعامه في بعض الأحيان لم يَلْجَأ إلى كَيْل الضَّرَبات قبل أن يقابل مقدَّمًا بين صعوبة النصر وصعوبة عثوره على طعامٍ له في مكان آخر، وبما أن الزهو لا يجد له سبيلاً في الصِّراع فإنه ينتهى ببعض لَكَمات، ويأكل الغالبُ، ويبحث المغلوب عن غذاءٍ له في مكان آخر،

وتَسُود السِّلْم، ويكون الأمر على غير هذا لدى الإنسان المتمدن، فتداركُ الحاجيِّ هو أولُ ما يُطْلَب، ثم يأتى الفائض، ثم تأتى الأطايب فالثَّرَوات الواسعة، ثم الرعايا فالعبيد، ولا يكون لديه وقتُ بطالة، وأغربُ ما فى الأمر كونُ الاحتياجاتِ كلما كانت مُلِحَّةً ودون الطبيعيِّ زادت الأهواء، وشَرٌّ من ذلك أن يُسْتطاع قضاؤها، وذلك أن ينتهى أمرُ البطل بأن يَضْرِب كلَّ عُنقٍ حتى يصبح سيدَ العالم الوحيدَ بعد أن يكون قد ابتلع أموالاً وافرة وأحزن أناسًا كثيرين، فهذه هى خلاصةٌ لوصف الحياة البشرية وصفًا أدبيًّا، أو خلاصةٌ لوصف المزاعم الخفية فى قلب كلِّ إنسان متمدن.

وقابلوا، من غير مُبْتَسَرات، بين حال الإنسان المدنيِّ وحال الإنسان الوحشيِّ، وابحثوا، إذا ما استطعتم، عن مقدار ما فَتَحَ الأولُ من أبوابٍ جديدةٍ نافذةٍ إلى الألم والموت فضلاً عن خبثه واحتياجاته وبؤسه، وإذا ما نظرتم إلى عذاب النفس الذى يُضْنِينا، وإلى الأهواء العنيفة التى تَنْهكُنا وتُحْزِننا، وإلى الأعمال القاسية التى يُرْهَق بها الفقراء، وإلى التَّرَف البالغ الخطر الذى ينهمك فيه الأغنياء فيَهْلِك الفريقُ الأول عن احتياجٍ ويَهْلِك الفريقُ الثانى عن إفراط، وإذا فكرتم فى اختلاط الأغذية المُضادِّ للطبيعة، وفى تعليلها بالتوابل تعليلاً ضارًّا، وفى الغَلَّات الفاسدة والعقاقير المغشوشة، وفى خِداع من يبيعونها وغَوَايةِ من يُدَبِّرون أمرها، وفى سُمِّ الأوعية التى تُعَدُّ فيها، وإذا ما أنعمتم النظر فى الأمراض السارية الناشئة عن الهواء الفاسد بين زُمَر الناس المجتمعين، وفى الأمراض التى تَصْدُر عن دقة طِراز حياتنا، وفى انتقالنا مناوبةً بين منازلنا والهواء الطَّلِقِ، وفى استعمال الملابس التى تُتَّخذ أو تُتْرَك مع قليل تحفظٍ، وفى كلِّ ما تَحوَّلت به شهوتُنا المُفْرِطة إلى عاداتٍ ضرورية من عنايةٍ فيؤدى إهمالُها أو الزهدُ فيها فيما بعدُ إلى القضاء على حياتنا أو صحتنا، وإذا ما نظرتم إلى الحرائق والزلازل التى تَقْضِى على مُدُنٍ بأسرها وتُهْلِك سكانَها بالألوف، والخلاصةُ إذا ما جمعتم الأخطارَ التى تَصُبُّها جميعُ هذه العِلَل على رؤوسنا باستمرارٍ، شَعَرْتم بالثمن الغالى الذى تُحْمِلنا الطبيعة على دفعه مقابل استخفافنا بدروسها.

ولا أُكرِّر هنا مطلقًا ما قلته عن الحرب فى مكان آخر، ولكننى أودُّ أن يكون المتعلمون من الإرادة أو الجرأة ما يُطْلِعون الجُمهورَ معه على تفصيل القبائح التى تُقْتَرَف فى الجيوش من قِبَل

ملتزمى المِيرَة والمشاق، فهنالك يُرَى أن أساليبهم فى الغش، غيرَ الخافية كثيرًا، تتوارى بها أنضرُ الجيوش فى وقت قصير جدًّا ويَهْلِك بها من الجنود أكثرُ ممن يَحْصِدُهم سلاحُ الأعداء، ثم إنه ليس أقلَّ إثارةً للدَّهَش أمرُ من يبتلعهم البحر فى كلِّ عام عن المجاعة أو داء الحَفَر أو القراصين أو النار أو الغَرَق، ومن الواضح أنه يجب أن يُحْسَب بجانب التملك القائم، ومن ثَمَّ بجانب المجتمع، أعمالُ القتل والسمِّ وقطعِ الطُّرُق، حتى العِقابُ على هذه الجرائم الذى لا بُدَّ منه درءًا لأعظم الشُّرُور، ولكن مع قضائه فى جرائم القتل على حياة اثنين أو أكثر فيَدَعُ وقوعَ هلاكٍ فى النوع البشرىِّ ضعفين، وما أكثرَ الوسائلَ الفاضحة التى تُتَّخذ لعَوْق ولادة الآدميين ومخادعة الطبيعة، وذلك إما عن تلك الأذواق البهيمية أو الفاسدة التى تُعَدُّ سُبَّةً لأروع أعمالها، وإما عن تلك الأذواق التى لم يَعْرِفها الهَمَجُ ولا الحيوانات مطلقًا، والتى لم تنشأ فى البلاد المتمدنة إلَّا عن خيال فاسد، وإما عن تلك الإجهاضات الخفية التى هى ثمرة الفِسْق والشرف المعِيب، وإما عن إهمال جمعٍ من الأولاد أو قتلهم، هؤلاء الذين هم ضحايا بؤس آبائهم أو خجل أمهاتهم الشديد، وإما عن بَتْر هؤلاء التُّعَساء الذين ضُحِّىَ بقسم من كيانهم وبجميع عَقِبهم من أَجْلِ أغانٍ باطلة، أو من أَجْلِ حَسد بعض الناس، بَتْرًا يَطْعَن الطبيعةَ طعنًا مزدوجًا فى هذه الحال الأخيرة، وذلك بما يعامَل به أولئك الذين يألمون منه، وبما أُعِدُّوا له من عادة!

ولكن أليس أكثرَ شيوعًا وخَطرًا ألفَ مرةٍ أن تُلحِق الحقوقُ الأبويَّةُ بالإنسانية أذًى؟ وما أكثرَ القرائحَ المطمورة والمُيولَ المقهورة عن قَسْرِ الآباء الغافل! وما أكثرَ الرجالَ الذين يمتازون فى حالٍ مناسبة ويموتون تعساءَ مفضوحين فى حالٍ أخرى لم يرغبوا فيها قَطُّ! وما أكثر ما فُصِمَ أو كُدِّر من زواجاتٍ سعيدة، ولكن مع تفاوتٍ! وما أكثر الزوجاتِ الطاهراتِ اللائى فُضِحْن بذلك النظام من الأحوال المناقضِ لنظام الطبيعة دائمًا! وما أكثر القِرَاناتِ الأخرى الغريبةَ التى نشأت عن المصلحة وأُنكرتْ بالحبّ والعقل! وما أكثر الأزواجَ الصالحين الفُضَلاء الذين عُوقِبُوا مبادلةً لسوء تَنَوُّعهم! وما أكثر ضحايا شُحِّ الآباء من الشبان والتعساء الذين غاصوا فى الرذيلة أو الذين قَضَوْا أيامَهم السُّودَ فى الدموع، والذين أَنُّوا فى صِلاتٍ لا انفصام لها مع أن الفؤاد يَرْفِضُها والذهبَ وحدَه هو الذى كَوّنها! ما أسعد أولئك اللاتى نزعتهن

الشجاعةُ والفضيلة أحيانًا من الحياة قبل أن يَحمِلَهن عنفٌ شديدٌ على قضائها فى الجريمة أو القنوط! فاغفِرَا لى يا والدىَّ اللذين أرْثِى لهما إلى الأبد، لِما أزيد من آلامكما بشكواى، ولكن هل تَصْلُح هذه الآلام أن تكون عبرةً أبدية هائلةً لمن يَجْرُؤ، حتى باسم الطبيعة، أن يَنْقُض أقدسَ حقوقها؟

وإذا كنت لم أتكلم عن غير هذه المشاكل السيئة التكوين التى هى من عمل ضابطتنا، فهل يُفَكَّر فى كون التى يهيمن عليها الحُبُّ والعاطفة سالمةً من المحاذير؟ وما يَقَع إذا ما حاولتُ إبداءَ النوع البشرىِّ مهاجمًا فى منبعه وفى أقدس جميع الروابط حيث لا يُجْرَأُ على سماع الطبيعة إلَّا بعد مراجعة النصيب، وحيث يَخْلِط الارتباكُ المدنِىُّ بين الفضائل والمعايب فيصبح الزهدُ احترازًا جنائيًّا ويُصبح رفضُ هبة الإنسان حياته لشبيهه عملاً إنسانيًّا؟ ولكن لنَكْتَفِ بالإشارة إلى المرض الذى يجب على الآخرين أن يعالجوه، وذلك من هَتْكٍ للحجاب الذى يُغَطِّى جميع هذه القبائح.

وليُضَفْ إلى جميع هذا ذلك المقدارُ من الصنائع غير الصحية التى تُقَصِّر الأيام أو تُقَوِّض الأبدان، وذلك كأعمال المناجم وإعداد المعادن والفِلِزِّ[1]، ولاسيما الرَّصاص والنحاس والزئبق والكُوبَلْتُ والزِّرنيخ والرَّهَج[2]، وتلك الصنائعُ الأخرى الخَطِرة التى تُودِى كلَّ يوم بحياة عددٍ من المُسَقِّفين والنَّجَّارين والبَنَّائين والمُعَدِّنين، ولتُجْمَع جميعُ هذه الأمور كما أقول ليُرَى فى قيام المجتمعات وكمالها أسبابُ ما يلاحظه أكثرُ من فيلسوفٍ من نقصان النوع.

ولا يَلْبَث الترف، الذى يتعذر تلافيه لدى الآدميين الطامعين فى رَغَد عيشهم واحترام الآخرين لهم، أن يُتِم الشَّرَّ الذى بدأته المجتمعات، والذى يُفْقِر البقيةَ كلَّها ويُفْقِر الدولةَ عاجلاً أو آجلاً بحجة ما لا يَصْنَعُه من إطعام الفقراء.

والترفُ علاجٌ أسوأ كثيرًا من المرض الذى يَزْعُم شفاءه، أو إنه فى ذاته أسوأ من جميع

(١) اسم يطلق على جواهر الأرض كلها.
(٢) سم الفأر.

الأمـراض فى كلِّ دولـةٍ صغيرة أو كبيرة، وذلك لأنه يـؤدى إلى ظلم المواطن والزارع وهلاكهما تغذيةً لجموعٍ من الخَدَم والبائسين الذين يُوجِدُهم، وهو يشابه رياحَ الجَنوب المحرقة التى تَسْتَرُ الـكلأَ والخُضْرَةَ بالحـشرات النَّهَّامة والتـى تَنْزِع الغِذاءَ مـن الحيوانات النافعـة وتُحْمِلُ القَحْطَ والموتَ فى جميع الأماكن التى تَهُبُّ فيها.

وينشـأ عن المجتمع، وما يؤدى إليه من تَرَفٍ، الفنونُ العقلية والميكانِيَّة والتجارة والآداب ومـا إلى ذلـك من الزوائد التـى تُوجب ازدهارَ الصِّناعـة وتُغْنِى الدولَ وتُهْلِكها، وسـببُ هذا الخـرابِ بسـيطٌ إلى الغاية، وذلك أن من السـهل أن يُـرَى وجوبُ كونِ الزراعـة بطبيعتها أقلَّ كَسْـبًا مـن جميع الصنائع، فبما أن حاصَلها ألزمُ ما يكون استعمالاً لـدى جميع الناس فإن ثمنها يجب أن يكون مناسبًا لمقدرة أشدِّ الناس فقرًا، ومن ذات المبدأ يمكن استخراجُ القاعدة القائلة إن الصنائـع تكـون رابحةً بنسـبة نفعها المعكـوس وإن ألزم الأشـياء يُصْبح أكثرَهـا إهمالاً فى نهايـة الأمر، ومـن ثَمّ يُرَى ما يجب أن يُفَكَّـر فيه من الفوائد الحقيقيـة فى الصِّناعة ومن النتائج الصحيحة لتقدمها.

وتلك هى الأسـبابُ المحسوسـة للبؤس حيث اليُسْرُ يُدَهوِر أكثرَ الأمم إثارةً للعجب فى نهاية الأمـر، وكلما اتسـع مَـدَى الصِّناعة والفنـون وازدهر، هجـر الزارعُ المُـزْدَرَى، المُثْقَـلُ بالضرائب الضرورية لبقاء الترف والمحكومُ عليه بقضاء حياته بين العمل والجوع، حقولَه ليَبْحَث فى المدن عن الخبز الذى يجب أن يَحْمِله إليها، وكلما وَقَفت رؤوسُ الأموال أبصارَ الشـعب الحمْقَ عَجَبًا وجب أن يُـؤَنَّ من رؤية الأريـافِ مهجورةً والأَرَضِين بائـرةً والطُّرُق الكبيرة زاخرةً بالمواطنين التُّعَسـاء الذين أصبحوا سـائلين أو سـارقين مُعَدِّين لخَتْم بؤسـهم، ذات يوم، فوق الدِّمَن أو على المشـانق، وهكـذا فـإن الدولة التى تغتنى مـن ناحيةٍ تَضْعَـف وتُقْفِر من ناحية أخـرى، وإن أقوى المَلَكيات تنتهـى، بعـد كثيرٍ من الأعمال التى تكون بهـا مُوسِرَةً مُقْفِرةً، بأن تصبح فريسـةَ الأمم الفقيرة التى تُغْرَى بالاستيلاء عليها، والتى تغتنى وتَضْعفُ بدَوْرها حتى تستولىَ عليها وتُخَرِّبَها دولٌ أخرى.

ولْيُتَفَضَّـلْ بـأن يُوضح لنـا ذاتَ مرةٍ من اسـتطاع أن يُنْتج هذه الجحافل مـن البرابرة الذين

غَمَروا أوربة وآسية وإفريقية قرونًا كثيرة، فهل كانوا مَدِينين بهذا العدد العجيب من الأهلين لتقدم صنائعهم أو حكمة قوانينهم أو كمال ضابطتهم؟ وليَتَفَضَّلْ علماؤنا بأن يُبيِّنُوا لنا من غير تفصِيلٍ ما السببُ فى كون هؤلاء الآدميين الجُفَاةِ القُساة العاطلين من المعارف والزاجر والتربية لا يتذابحون فى كلِّ ساعةٍ تنازعًا حَوْل قُوتِهم وصيدِهم، وليُوضِحُوا لنا كيف أنه كان لدى هؤلاء البائسين من الإقدام ما يواجهون به وحدَهم أناسًا بالغى المهارة كما كنا، أناسًا ذوى نظام عسكريٍّ رائع ودساتيرَ كثيرةِ الإتقان وقوانينَ شديدةِ الإحكام، ثم لِمَ لا يرُى ظهورُ مثل هذه الجموع التى أنتجها الشمال فيما مضى، وذلك منذ كَمَلَ المجتمع فى بلاده وعانى كثيرًا فى تعليم الناس واجباتِهم المتقابلةَ وفنَّ العيش الرَّغيد الهادئ معًا، وأخشى أن يتصدى للجواب عن ذلك فى آخر الأمر رجلٌ بقوله إن جميع هذه الأمور العظيمة، أى الفنونَ والعلومَ والقوانين، قد اختُرِعت من قِبَل الناس كوباءٍ نافع لمنع زيادة النوع زيادةً مُفْرِطة، وذلك خشيةَ أن يصبح العالَمُ المُعَدُّ لنا من الصِّغَر ما لا يستوعب معه سكانَه.

ثم ماذا؟ أيجب أن يُقْضَى على المجتمعات، وأن يُبْطَل مالى ومالك، وأن يُرْجَع إلى العيش مع الدِّبَبَة فى الغابات؟ إن هذه نتيجةٌ لمنهاج خصومى الذين أودُّ أن أسبقهم قبل أن أَدَعَ لهم خِزْيَ استخراجها، وأنتم، أيها الذين لم يَسْمَعُوا صوتَ السماء قَطُّ، والذين لم يَعْرِفوا لنوعهم من الأغراض غيرَ قضاء هذه الحياة القصيرة فى سَلَام، والذين يستطيعون أن يتركوا وسط المدن مُكْتَسَباتِهم ونفوسَهم المضطربة وأفئدتَهم الفاسدة ورغائبَهم الجامحة، عُودُوا، فعليكم يتوقف طُهْرُكم القديمُ الأول، واعتزلوا فى الغاب لتغيب عنكم ذكرى جرائم معاصريكم ولا تَخْشَوْا انحطاط نوعكم بعدولكم عن معارفه وصولاً إلى العدول عن نقائصه، وأما الرجالُ الذين هم مثلى فأسفرتْ أهواؤهم عن ضَيَاع البساطة الأصلية إلى الأبد فعادوا لا يستطيعون أن يَغْتَذُوا بالأعشاب والبَلُّوط ولا أن يستغنوا عن القوانين والرؤساء، وأما أولئك الذين شُرِّفوا فى أبيهم الأول بدروسٍ خارقةٍ للعادة، وأما أولئك الذين يَرَوْن، فى تصميمِ الأعمال البشرية خُلُقيةً ما كانت لتكتسبها قبل زمنٍ طويل، سببَ مبدأٍ خَلِيٍّ بذاته متعذرٍ إيضاحُه فى مِنْهاجٍ آخر، وأما أولئك القانعون بأن الصوت الإلهى دعا جميعَ الجنس البشرىِّ إلى العرفان وسعادة الإدراك

السماوىّ، وأما جميعُ أولئك، فإنهم يحاولون، بممارستهم الفضائلَ التى يَحْمِلون أنفسَهم على تطبيقها بتعلمهم معرفتَها، أن يستحقوا الثوابَ الأبدىَّ الذى ينتظرونه عليها، فهم يحترمون روابطَ المجتمعاتِ التى يُعَدُّون من أعضائها، وهم يُحِبُّون أمثالَهم ويَخْدِمُونهم بجميع قُوَّتهم، وهم يطيعون القوانين وواضعيها والوزراءَ إطاعةً وثيقة، وهم، على الخصوص، يُجِلُّون الأمراءَ الصالحين الحكماءَ الذين يَعْرِفون كيف يَحُولُون دون وقوع طائفةٍ من سوء الاستعمال والشرور التى تكون مُعَدَّةً لإرهاقنا، أو كيف يَشْفُون منها أو يُلَطِّفونها، وهم يثيرون غَيْرَةَ هؤلاء الرؤساء الأكفياء بإطلاعهم غيرَ خائفين ولا مُصَانعين على عظمة عملهم وشدة واجبهم، بَيْدَ أنهم ليسوا أقلَّ ازدراءً لنظامٍ لا يُمْكِن أن يَبْقَى إلا بمساعدة أناس محترمين كثيرين يُرغب فيهم، غالبًا، أكثرَ من أن يُظْفَر بهم، لنظامٍ تَصْدُر عنه كلَّ يومٍ مصائبُ أكثر من الفوائد على الرغم من جميع الجهود.

* * *

(١٠)

الصفحة ٤٥ : نجِدُ بين الناس الذين نعرفهم بأنفسنا، أو بواسطة المؤرخين، أو بواسطة السُّيّاح من هم سُودٌ، ومن هم حُمْرٌ، وبعضُ هؤلاء الآدميين ذوو شَعْرٍ طويل، وليس لدى الآخرين غيرُ شَعْرٍ مُتَجَعِّد، وبعض هؤلاء الآدميين شُعْرٌ تقريبًا، وليس لدى الآخرين حتى لِحًى، وقد كان يوجد، ولا يزال يوجد على ما يحتمل، أممٌ مؤلفةٌ من أناس ذوى قَوَامٍ جُسَام، وإذا عَدَوْتَ قصةَ الأقزام التى قد تكون مبالغًا فيها عَلِمْتَ أن اللاپون، ولاسيما أهلُ غَرونْلَنْدة، ذوو قاماتٍ تُعَدُّ دون ما للإنسـان المتوسـط، حتى إنه يُزْعَمُ وجودُ شعوبٍ بأسْرِها ذاتِ أذنابٍ كذوات القوائم الأربع، وإنا، من غير أن نَثِقَ ثقةً عمياءَ بِرِحْلات هِيرُودُتُس وكِتْزِياس، يمكننا أن نستنبط الرأىَ المحتملَ كثيرًا والقائلَ إنه إذ أمكن القيامُ بمشاهداتٍ صالحةٍ فى تلك الأزمنة القديمة حين كان شَتَّى الشعوب تَتَّبِعُ طُرُزًا للحياة أكثرَ اختلافًا فيما بينها مما تَصْنَع فى الزمن الحاضر فإنه كان يلاحَظ فى الوجه ودَيْدَن البَدَن من التنوع ما هو أدعى إلى وَقْفِ النظر كثيرًا، ولا يُمْكِن جميعَ هذه الوقائع، التى يَسْهُل أن تُقَدَّم عنها أدلةٌ لا مِرَاءَ فيها، أن تُدْهِش غيرَ أولئك الذين تَعَوَّدوا ألا يَرَوْا غيرَ الأمور التى تحيط بهم، والذين يَجْهَلون النتائجَ القوية لاختلاف الأقاليم والهواء والأغذية وطِراز العيش والعاداتِ على العموم، ولاسيما القدرةُ المُحَيِّرةُ لذات العِلَل عند تأثيرها الدائم فى سلاسلَ طويلةٍ من الأجيال، واليوم إذ تُجْمَع التجارةُ والرِّحلاتُ والفُتُوح بين مختلف الشعوب أكثرَ من قبل، واليومَ إذ تتدانى طُرُزُ عيشها بلا انقطاع عن كثرة الاتصال، فإنه يُرى نقْصُ بعض الفروق القومية، ومن ذلك أن كلَّ واحد يستطيع، مثلاً، أن يلاحظ كونَ فَرَنْسِيِّى الوقت الحاضر عادوا لا يكونون أولئك البِيضَ والشُّقْرَ الذين وصفهم مؤرخو اللاتين، وإن وَجَب أن يكون الزمانُ، المضافُ إلى اختلاط الفرنسيين والنُّورْمان البيضِ والشُّقْرِ، قد استطاع أن يعيد ما قَدَرَتْ على نَزْعه معاشرةُ الرومان من تأثير الإقليم ولَوْنِ السكان، وتَحْمِلُنى جميعُ هذه الملاحظات حَوْلَ ما يُمْكِن ألفَ علةٍ أن تُحْدِثه، وأحدثَتْه، من الاختلافات فى النوع البشرىِّ بالحقيقة على الشَّكِّ فى كون الحيوانات المشابهة للآدميين من البهائم كما ذهب إليه السُّيَّاح الذين لاحظوا من غير كثير تدقيقٍ، أو رأوا، عما لاحظوه من بعض الفروق فى التكوين الخارجىِّ،

أو عن كون هذه الحيوانات لا تتكلم مطلقًا، أن هذه الحيواناتِ ليست، فى الحقيقة، من وحوش الناس الذين تفَرَّق عِرْقهم فى الغابات قديمًا فلم تُتَحْ له فُرْصةٌ لإنماء أيةِ واحدةٍ من مَلَكاته الكامنة ولم يَنَلْ أيةَ درجةٍ من الكمال، ولم يَزَلْ فى الحال الأولى من الطبيعة، ولأُقَدِّمْ مثالًا على ما أقول.

قال مترجم «تاريخ الرِّحلات»: «يوجد فى مملكة الكُونْغُو عددٌ من تلك الحيوانات الكبرى التى تُدْعَى الأُرَنْغ أُوتَان فى الهند الشرقية وتُعَدُّ متوسطةً بين النوع البشرىّ والقرد الكلبىّ، ويَرْوِى باتِل أنه يُرَى فى غابات مايُونْبَا بمملكة لُوَانْغُو نوعان من الغيلان يُسَمَّى أكبرُهما بونْغُو ويُسَمَّى الآخرُ أَنْجُوكو، ويوجد شَبَهٌ تامٌّ بين الأول والإنسان، ولكنه أكثرُ منه ضخامةً وأعلى منه قامةً، وله وجهُ إنسانٍ وعينان غائصتان، وله يدان وخدان وأُذُنان بلا شَعْر، وذلك على خلاف حاجبيه ذَوَي الشعر الطويل كثيرًا، وهو مع كون بقية بدنه ذاتَ شعر كافٍ لم يكن شَعْرُه هذا كثيفًا جِدًّا، بل هو أسمر، ثم إن القسم الوحيد الذى يَمِيزُه من الناس هو ساقُه العاطلةُ من الرَّبْلَة، وهو يمشى مستقيمًا ممسكًا شعرَ الرقبة باليد، وفى الغاب عزلتُه، وهو ينام على الشجر حيث يتخذ نوعًا من السقف يَقِيه المطر، ويقوم طعامه على الفواكه أو الجَوْز البرىّ، وهو لا يأكل اللحم مطلقًا، ومن عادة الزنوج الذين يَجُوبُون الغابَ أن يُوقِدُوا نارًا فى الليل، وهم يلاحظون أن البُونْغُو يأخذ مكانهم حَوْل الناس فى الصباح، وهو لا ينصرف ما لم تَنْطَفِئ، وذلك لأنه مع كثير مهارةٍ ليس من الإدراك الكافى ما يديمها معه بأن يجلب حطبًا إليها.

«وهو يسير زُمَرًا أحيانًا فيَقْتل الزنوجَ الذين يَجُوبون الغاب، وهو يَنْقَضُّ حتى على الفِيَلة التى تأتى للرَّعْى فى الأماكن التى يسكنها، وهو يَبْلُغ من إزعاجها بضَرَبات الكَفِّ أو العصا ما يُكْرِهها معه على الفرار مع صوتٍ، وما كان البُونْغُو ليؤخذَ حيًّا مطلقًا، وذلك لأنه من القوة الكبيرة ما لا يستطيع معه عشرةُ رجال أن يَقِفُوه، غير أن الزنوج يأخذون عددًا من صِغاره بعد أن يقتلوا أُمَّها التى يَلْصَق الصغيرُ بجسمها بشدَّة، وإذا مات أحد هذه الحيوانات سَتَرَت الأخرى بَدَنَه بكُدْسٍ من الغصون أو الأوراق، وإلى هذا يُضِيفُ بُورْشاس أنه علم من الكلام الذى دار بينه وبين باتِّل كونَ البُونْغُو قد خَطَف زِنجيًّا صغيرًا فقضى هذا الزنجىُّ شهرًا كاملاً

فى مجتمع هذه الحيوانات، وذلك لأنها لا تؤذى الناس الذين تفاجئهم، ما لم ينظروا إليها كما كان الزِّنجىُّ الصغير قد لاحظه، ولم يَصِفْ باتِّلُ النوعَ الثانى من الغيلان.

«ويقول دابه مُؤَكِّدًا: إن مملكة الكُونْغُو زاخرةٌ بهذه الحيوانات التى يُطْلَقُ عليها فى الهند اسمُ الأُرَنْغ أُوتَان، أى سكانِ الغاب، والتى يسميها الإفريقيون كُوجَا مُورُّو، ومن قوله: إن هذا الحيوان هو من شِدَّة الشَّبَه بالإنسان ما أُلْقِىَ معه فى روع بعض السُّيَّاح إمكانُ ولادته من امرأة وقرد، أى وهمٌ يَدْحَضه حتى الزنوج، وقد نُقِلَ أحد هذه الحيوانات من الكُونْغُو إلى هولندة وقُدِّم إلى أمير أُورَنج، فردريك هنرى، وقد كان له طولُ ولدٍ فى الثالثة من سِنِيه، وسِمَنٌ متوسط، ولكن مع تربيعٍ وحُسْنِ تناسبٍ، وقد كان سريعًا نشيطًا جدًّا، ذا سيقانٍ مكتنزة قوية، وذا مُقَدَّم عارٍ جميعُه، وذا مؤخرٍ مستورٍ بشعرٍ أسودَ، وكان وجهه يشابه وجهَ الإنسان عند أول نظرة، ولكن مع أنفٍ أفطسَ أو أحجن، وكانت أذناه كأذنى النوع البشرىِّ، وكان ثَدْيُه ضخمًا، لأنه أنثى، وكانت سُرَّتُه غائرة، وكانت كَتِفاه حستى الاتصال، وكانت يداه مقسومتين إلى أصابعَ وَأَبَاهِمَ، وكانت رَبْلَتاه وعَقِباه سمينتين لَحِيمَتَيْن، وكان يَمْشِى فى الغالب على ساقيه مستقيمًا، وكان قادرًا على حَمْل أثقال وَزِينة، وكان إذا ما أراد الشرب أمسك غِطاءَ الإنسان بيدٍ وأمسكَ أسفلَه بيدٍ أخرى، ثم أخذ يُنَشِّفُ شفتيه بلطف، وكان يَضْطجع لينام فيضعُ رأسَه على وِسادةٍ ويتَغَطى بمهارة يُظَنُّ معها أنه إنسان، ويَرْوِى الزنوج قِصَصًا غريبة عن هذا الحيوان، فيقولون مُوكِّدين إنه يَجْرُؤ على مهاجمة رجال مسلحين فضلاً عن أنه يغتصب النساء والبنات، والخلاصةُ أن الظاهر يدلُّ على أن هذا هو غُول القدماء، ومن المحتمل أن مِيرُولًا لا يتكلم عن غير هذه الحيوانات عندما يَحْكِى عن استعانة الزنوج فى صَيْدهم، أحيانًا، برجالٍ ونساء متوحشين».

وكذلك قد حُدِّث عن تلك الأنواع الحيوانية المشابهة للإنسان فى الجزء الثالث من «تاريخ الرِّحلات» ذلك باسم بيغو ومَنْدرِيل، ولكننا إذا ما رَجَعْنا البصرَ إلى كتب الرحلة السابقة وجدنا فى وصف أولئك الغيلان المزعومين مطابقاتٍ مع النوع البشرىِّ تَقِفُ النظر، وفروقًا أقلَّ من التى يُمْكِن تقديرها بين إنسان وإنسان، ولا يُرَى فى تلك العبارات مطلقًا ما يَسْتند إليه المؤلفون من الأسباب فى رفضهم إطلاقَ اسمِ وحوش الناس على تلك الحيوانات، ولكنه

يَسْهُل أن يُظَنَّ قيامُ ذلك على غباوتها وعلى عدم كلامها، أى على أسبابٍ ضعيفة لدى مَنْ يَعْرِفون أن الكلام نفسَه غيرُ طبيعيٍّ فى الإنسان وإن كان عُضْوُ الكلام طبيعيًّا عنده، ولدى مَنْ يَعْلمون مقدارَ ما يُمْكِن الإنسانَ المدنىَّ أن يُرْفع بكمال الكلام إلى ما فوق حاله الأصلىّ، ويُمْكِن أن تجعلنا الأسطرُ القليلة، التى تحتويها هذه الأوصافُ، نَحْكُمُ فى درجة سوء ما لُوحِظَتْ به هذه الحيوانات وفى مقدار المُبْتَسَرات الذى نُظِرَ به إليها، ومن ذلك أن وُصِفَتْ بالغيلان مثلاً، ومع ذلك فإنه يُعْتَرَف بولادِها، وفى مكانٍ يقول باتِّل إن البُونْغُو يقتل الزنوج الذين يَجُوبون الغابات، وفى مكانٍ آخرَ يُضِيف بُورْشاسُ إلى ذلك قولَه إنه لا يُصِيبهم بأىِّ سوء، حتى عند المفاجأة، وذلك ما لم يُعْنَوْا بالنظر إليه، ويَتَجَمَّع البُونْغُو حَوْل النيران التى يُوقدها الزنوج عندما ينصرف هؤلاء، وينصرف البُونْغُو بدَوْره عند انطفاء النار، وذلك هو الواقع، والآن إليك تفسيرَ الباحث، «وذلك لأنه مع كثيرٍ مهارةٍ ليس من الإدراك الكافى ما يُدِيمها معه بأنه يَجْلُب حطبًا إليها»، وأودُّ لو أعلم كيف أمكن باتِّل، أو جامعه بُورْشاسَ، أن يَعْرِف أن انصراف البُونْغُو كان نتيجةً لغباوته أكثرَ من أن يكون نتيجةً لإرادته، وليست النارُ فى إقليمٍ كاللُّوانْغُو شيئًا ضروريًّا للحيوانات، وإذا كان الزنوج يُوقدونها فذلك لتخويف الضوارى أكثرَ مما للتدفئة، ولذلك فإن من الأمور البسيطة جِدًّا أن يَسْأم البُونْغُو، بعد طَرَبٍ حَوْل اللَّهَب أو بعد أن يَدْفَأ، من البقاء فى عَيْن المكان دائمًا، وأن يَنْصَرِف سعيًا وراءَ القُوت الذى يتطلب من الوقت أكثر مما يتطلب أكلُ اللحم، ثم إن من المعلوم أن الحيوانات، ومنها الإنسان، كَسْلَى بطبيعتها، فتأبى كلَّ ما ليس من الضرورات المطلقة، ثم إن من الغريب جِدًّا، كما يظهر، ألَّا يَعْرِف البُونْغُو دفعَ حَطَبٍ إلى النار، وهو الذى يُمْتَدَح حِذْقُه وقوته، وهو الذى يَعْلَم دفن مَوْتاه وصُنْعَ سُقُوفٍ من غُصُونٍ لها، وأذكُر أننى رأيتُ قردًا يقوم بذات الحركة التى يُنْكَر صدورُها عن البُونْغُو، وبما أن أفكارى لم تُوَجَّه من هذه الناحية فى ذلك الحين فإننى أتيتُ عينَ الخطأ الذى ألومُ عليه سُيَّاحَنا وأهملتُ البحثَ فى هل كان مَقْصِد القرد إبقاء النار فى الحقيقة أو تقليدَ عَمَل الإنسان كما أعتقد، ومهما يكن من أمرٍ فإن الذى أُحسن بيانُه هو كونُ القرد ليس من جنس الإنسان، لا لأنه محرومٌ خاصِّيَّةَ

الـكلام فقط، بـل لعَطَل نوعه من خاصِّيَّة التكامل التى هى صفـة النوع البشرىِّ الفارقة أيضًا، أى القيامُ بتجرِبةٍ لم تتمَّ حَوْلَ البُونغُو والأُورَنْغ أُوتَان بدقةٍ تكفى لاستخراج عين النتيجة، وقد يذهـب أصفـقُ الباحثين إلى أن الأُورَنْغ أوتان وغيرَه كانا من النوع البشرىِّ مُدْلين بدليلٍ أيضًا، ولكـن يجب أن تُعَدَّ هـذه التجرِبةُ متعذرةً، فضلاً عن عدم كفاية جيـلٍ واحد للقيام بها، وذلك لِمَـا يجب من إثباتِ ما ليس سـوى افتراضٍ أنه حقيقىٌّ، وذلك قبل أن يحاوَل بسـلامةٍ طَوِيَّةٍ أمرُ التجرِبة التى يجب أن يُؤَكِّدها الواقع.

وعن شَـطَطٍ تَصْدُر الأحكامُ العاجلةُ التى ليسـت ثمرةَ العقل الـمُنَوَّرِ، وعن سذاجةٍ يَجْعَل سُـيَّاحُنا من البهائم، مسماةً بأسـماء البُونغُو والمَنْدريل والأُورَنْغ أُوتان، ما كان القدماءُ يَجْعَلُونها من الآلهة مسماةً بأسماء ساتُورُس[١] وفُونُوس[٢] وسِلْفِين[٣]، ومن المحتمل أن يُرَى، بعد مباحثَ أكثـرَ دقـةً، كونُ هؤلاء من الآدميين، لا من البهائم، ولا من الآلهة، ويَظْهَر لى، إلى أن يَقَعَ ذلك، أن هنالـك من الأسـباب ما يُرْجَع به الأمـرُ، فوقَ ذلك، إلى الراهب الأديب والشـاهد العِيانىّ مِيرولَّا الـذى لم يَدَعْ، مع كامل بسـاطته، أن يكون من رجـال الذهن غيرُ التاجـر باتِّل ودرابُّه وبُورْشَاس وغيرهم من الجامعين.

وأىُّ حكمٍ يأتيه مثلُ هؤلاء الباحثين حَوْل الولد الذى وُجِدَ سنة ١٦٩٤ وتكلمتُ عنه آنفًا، والـذى لم يَظْهَـرْ عليه أىُّ دليلٍ على العقل فكان يمشـى على رجليه ويديه ويُخْرِج من الأصوات ما لا يشـابه أصواتَ الإنسـان؟ قال مُدَاوِمًا ذلك الفيلسـوفُ الذى أمَدَّنى بذلك الأمر الواقع: «مـضى زمنٌ طويل قبل أن يسـتطيع النطقَ ببعض الألفـاظ، وهو قد فَعل هذا على نَمَطٍ همجىّ، وهـو لم يَكَـدْ يَقْدِرُ على الكلام حتى سُـئِلَ عـن حاله الأولى، ولكنـه لم يَذْكُرْ عنها شـيئًا أكثرَ مما نذكُر عما حَدَث لنا فى المهد»، ولو كان هذا الولدُ سَـيِّئ الحظِّ فوَقَع فى أيدى سُـيَّاحنا لم يُشَـكَّ فى أن هـؤلاء كانوا، بعـد ملاحظةِ صمتِه وغباوته، يذهبون إلى رَدِّه إلى الغاب أو حَبْسـه فى حَوْش

(١) شخص نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز كما جاء فى الأساطير.

(٢) من الآلهة الريفية كما جاء فى الأساطير.

(٣) إله الغاب والحقول كما جاء فى الأساطير.

الوحوش، ثم كانوا يتكلمون عنه تَكَلُّمَ العارفِ فى كتبٍ للسياحة رائعة، وذلك كما يتكلمون عن حيوانٍ ذى فُضُولٍ مشابهٍ للإنسان بعضَ الشبه.

وأعتقد أننا، منذ ثلاثة قرون أو أربعة قرون، أى منذ مدةٍ يَغْمُر الأوربيون فيها أقسامَ العالم الأخرى ويَنْشُرون بلا انقطاعٍ مجموعاتٍ جديدةً فى الرِّحلات، لا نَعْرِف أناسًا غيرَ الأوروبيين، وكذلك يَظْهَر من المُبْتَسَرات المضحكة التى لم تنطفئ قَطُّ، حتى بين رجال الأدب، أن كلَّ واحدٍ لا يَصْنَع، تحت اسم دراسة الإنسان الفَخْم، غيرَ دراسة أهل بلده، ويُعَدُّ من العبث ذهابُ الأفراد وإيابُهم، ويظهر أن الفلسفة لا تَسِيح مطلقًا، وكذلك لا تَصْلُح فلسفةُ شعبٍ لشعب آخرَ إلَّا قليلاً، وسببُ هذا واضحٌ بالنسبة إلى البقاع القاصية على الأقلّ، وذلك أنه لا يوجد غيرُ أربعةِ أنواعٍ، فقط، للآدميين الذين يقومون برحلات طويلة، وهم: المَلَّاحون والتجار والجنود والمبشِّرون، والواقعُ أنه لا ينبغى أن يُنْتَظَر كونُ الفُرَقاء الثلاثة الأولى من الباحثين الصالحين، وأما الفريقُ الرابعُ المُتَفَرِّغُ للإلهام الرفيع الذى يَدْعُوهم، عندما لا يَكون محلاًّ لمزاعم الحال كجميع الأخرى، فإنه لا ينبغى أن يُعْتَقَدَ أنه لا يقوم مختارًا بمباحثَ تُعَدُّ من الفُضُول المحض كما يَظْهَر، وتُحَوِّله عما أُعِدَّ له من أعمالٍ أكثرَ أهميةً، ثم إنه لا يَلْزَم غيرَ الغَيْرَة للتبشير بالإنجيل تبشيرًا مُجْدِيًا، والربُّ يُنْعِم بالبقية، ولكن دراسة الناس تستلزم مواهبَ لا يتكفَّل الرَّبُّ بإعطاء أحدٍ إياها، وهى ليست من نصيب القِدِّيسين فى كلّ حين، ولا يُفْتَح كتابُ رِحلاتٍ من غير أن يُطَّلَع فيه على وصفٍ للأخلاق والطبائع، بَيْدَ أن من دواعى الحيرة أن يُرَى فيه كونُ هؤلاء الناس الذين كَثُر وصفُهم للأمور لم يقولوا غيرَ ما كان يَعْرِفه كلُّ واحد سابقًا، ولم يُبْصِروا فى الطرف الآخر من العالم غيرَ ما يَبْدُو لهم ملاحظتُه من غير أن يَخْرُجوا من شارعهم، فهذه الخطوطُ الحقيقية التى تَمِيزُ بعضَ الأمم من بعض، والتى تُوَجِّه العيون التى صُنِعَتْ لتَرَى، قد غابت عن عيونهم، ومن ثَمَّ جاء المثلُ الخُلُقىُّ الجميل الذى كَثُر تكراره فى السيمياء، وهو «إن الناس أكفاءٌ فى كلّ مكان»، فبما أن الناس ذوو أهواءٍ واحدة وعيوبٍ واحدة فى كلّ مكان فإن من غير المفيد بما فيه الكفاية أن يحاوَل وصفُ مختلف الشعوب، وهذا يَعْدِل تقريبًا إقامةَ الدليل على كون بطرسَ لا يمتاز من يعقوبَ لأن لكلّ واحدٍ منهما أنفًا وفَمًا وعينيْن.

ألا يُـرَى، مطلقًـا، بَعْثُ تلك الأزمنةِ السـعيدة التى لم تتفلسـف الشـعوب فيهـا قَطُّ، والتى كان يساور أفلاطونَ وثاليسَ وفيثاغورس فيها ولعٌ شديد بالمعرفة فيقومون بأعظم السياحات للثَّقافة فقط، ويَضْرِبون فى الأرض لإلقاء نِير المُبْتَسرات القومية عنهم، وليتعلموا معرفةَ الناس بمطابقاتهم واختلافاتهم، ولينالوا هذه المعارفَ العامة غيرَ الخاصة بزمن أو بلدٍ حَضْرًا، فُعدَّت علمًا شائعًا بين الحكماء؟

أجَـلْ، يُعْجَب بسـخاءِ بعض محبى الاطـلاع الذين قامـوا، أو حَمَلُوا على القيام، عن سَـعَةٍ، برِحـلاتٍ فى الـشرق، وذلك مع علماءَ ومصورين لرَسْـمِ قياسـاتٍ أوفَكِّ كتاباتٍ أو نَسْـخِها، غـير أننى لا أكاد أتصور، فى قَرْنٍ يُبَاهَى فيه بالمعارف الرائعة، عدمَ وجود رجلَيْن متحديْن غَنِىٍّ أحدُهمـا بالمـال والآخرُ بالنبوغ، مُحِبَّـيْن للمجد، راغبيْن فى الخلود، فيُنْفـق أحدُهما عشرين ألفَ دينـارٍ من ماله وينفقُ الآخرُ عشرَ سـنين مـن عمره، للقيام برحلةٍ ذائعـةِ الصيت حَوْل الأرض ليُدْرسَ الناسُ والطبائعُ فيها مرةً، لا الحجارةُ والنباتُ دائمًا، ولِيَرَيا معرفةَ سـكانِ المنزل بعد أن قُضِيَتْ عدةُ قرونٍ فى قياسه وتأمُّله.

وكان رجال الأكاديمية الذين جابوا أجزاءَ أوربة الشـماليةَ وأجزاءَ أمريكة الجنوبية يَهْدِفون إلى زيارتها كمهندسين أكثرَ منهم فلاسفةً، وبما أنهم، مع ذلك، كانوا جامعين للصفتين معًا فإنه لا يُمْكِن أن يُعَدَّ مجهولاً تمامًا ما كان قد شاهده ووصفه أمثال لا كوندامين ومُوبِرْتِوى، ولم يَدَع الصائغُ شـاردان، الذى سـاح كأفلاطون، شـيئًا يقال عن فارس، ويظهر أن الصين قد دُرِسَتْ جيـدًا من قِبَل اليسـوعيين، وأبدى كِنْيِفر فكرةً سـائغةً عن الشـىء القليل الـذى رآه فى اليابان، ولا نَعْرِف، بجانب هذه الرحلات، شـعوبَ الهند الشرقية التى يَقْصِدها أوربيون أحرصُ على مـلء جيوبهم مما على ملء رؤوسـهم، ولا يزال جميعُ إفريقية وأهليهـا الكثيرين المُثِيرِى العجب بأخلاقهـم ولونهم يتطلب دِراسـةً، وتـرى جميعَ الأرض زاخرًا بأممٍ لا نَعْرِف غيرَ أسـمائها، ثم ترانـا نتصـدى للحكـم فى الجنس البـشريّ! ولنَفْترض أن رجلاً مثـل مُونتسـيكو أو بُوفُون أو دِيدِرو أو دُوكْلُو أو دَالْنِبر أو كُونْدِيَّاك أو أناسًـا من هذه الجِبِلَّة قد سـاحوا لتثقيف أبناء وطنهم فوَصَفـوا، بعـد تدقيقٍ كـما يَعْرِفون أن يَفْعَلوا، تركيـة ومصرَ والمغربَ وسـلطَنةَ مَرَّاكش وغِينِيَة

وبـلادَ الكَفْرة وداخـلَ إفريقية وسـواحَلها الشرقية والمَلَبـار ومغولية وضِفـافَ الغَنْج وممالكَ سـيام وپيغُو وجاوة والصين وبلادَ النَتر، ولاسيما اليابان، ووصفوا فى النصف الثانى من الكُرَة الأرضية بلادَ المكسيك والبِيرُو والشِّيلى والأراضىَ الملاجِلَّانية، وذلك من غير نسيان البَنْتاغون الحقيقيين أو الزائفين، والتُّوكُومان والبرَاغْوَاى، إذا أمكن، والبرازيل، ثم الكرايب، وفلوريدة، وجميعَ البقاع الوحشـية، أى قاموا بسـياحةٍ أهمَّ من الجميع، بسـياحةٍ يجب أن تتمَّ بأعظم عناية، ولنفترض أن أولئك الجبابرة وضعوا، على مَهْلٍ، وبعد الرجوع من تلك الأسـفار التى تستحقُّ الذكـر، تاريخًـا طبيعيًّا وأدبيًّا وسياسـيًّا عما يكونون قد شـاهدوه، فإننا نرى بأنفسـنا ظهورَ عالمٍ جديـدٍ مـن تحت أقلامهـم فنتعلَّم معرفـةَ عالمنا على هذا الوجـه، أى إننى أقـول إن مثل هؤلاء الباحثين إذا ما قالوا عن حيوانٍ إنه إنسـانٌ وعن آخرَ إنه بهيمٌ وَجَبَ تصديقُهم فى ذلك، ولكن من البساطة العظيمة أن يُرْكَن فوق ذلك إلى سائحين غِلاظٍ يحاوَل أن يُلقَى حَوْلَهم، أحيانًا، عينُ السؤال الذى يذهبون إلى حَلِّه بحيواناتٍ أخرى.

* * *

(١١)

الصفحة ٤٥ : يَظْهَرُ لى هذا من الوُضوح بمكان، فلا أقْدِر أن أتصور المصدر الذى يستطيع فلاسفتنا أن يستخرجوا منه جميع ما يَعْزُونه إلى الإنسان الطبيعىّ من الأهواء، وإذا عَدَوْتَ الضرورة البدنية الوحيدة التى تقتضيها الطبيعةُ نفسُها وجدتَ جميعَ احتياجاتنا الأخرى ليست كما هى بالعادة، أو برغائبنا، التى لم تكن قَبْلَها من الاحتياجات قَطُّ، فلا يُرغب فيما لا يُعْرَف مطلقًا، ومن ثَمَّ يُرَى أن الإنسان الوحشىَّ، إذْ لم يرغب فى غير الأشياء التى يَعرِفها، وإذْ لم يعرِف غيرَ الأشياء التى تقَعُ حيازتُها ضِمْنَ مقدرته، أو يَسْهُل عليه أن ينالها، لا يكون ما هو أهدأُ من روحه ولا ما هو أقصرُ من نفسه.

* * *

(١٢)

الصفحة ٤٨ : أجد فى «الحكومة المدنية» لـ «لُوك» اعتراضًا يبْدُو لى أنه ظاهر الحقِّ فلا ينبغى لى كَتْمهُ، قال هذا الفيلسوف: «بما أن الوِلادة لم تكن وحدَها غايةَ العِشْرَة بين الذكر والأنثى، بل تَهْدِف هذه العشرة إلى دوام النوع، فإن من الواجب أن تدوم هذه العِشْرَة حتى بعد الوِلادة، وذلك، على الأقلّ، للمدة التى يقتضيها غذاء المواليد وبقاؤهم، أى إلى حين قدرتهم على قضاء حاجاتهم بأنفسهم، ونرى أن المخلوقاتِ التى هى دون الإنسان تراعِى بدقةٍ واستمرارِ هذه القاعدةَ التى اقتضتها حكمةُ الخالق البالغة حَوْل ما صَنَع، ولا تدوم العِشْرة بين الذكر والأنثى فى هذه الحيوانات التى تعيش من العشب لمدةٍ أطولَ من عمل العاطفة، وذلك لأن ثُدِىَّ الأم إذ كانت كافيةً لتغذية الصغار حتى الحينِ الذى تستطيع أن تَرْعَى الكلأَ فيه فإن الذكر يكتفى بالإلقاح، ولا يَتَعرَّض بعد ذلك للأنثى ولا للصغار التى لا يستطيع أن يساعد على تغذيتها، ولكن العِشْرة بين الحيوانات المفترسة تدوم مدةً أطولَ من تلك، وذلك لأن الأمَ إذ كانت لا تستطيع أن تَقُوم بطعامها الخاصّ وأن تُغَذِّىَ فى الوقت نفسه صغارَها بما تَفْترس، أى أن تَسْلُك طريقًا للاغتذاء أكثرَ عُسْرًا وأعظمَ خَطَرًا مما يتطلبه الاغتذاء بالكلأ، فإن مساعدة الذكر ضروريةٌ جِدًّا لحفظ أُسْرَتهما المشتركة إذا جاز لى استعمال هذا التعبير، أى إنها لا تَقْدِر على البقاء بغير عناية الذكر والأنثى حتى تصبحَ قادرةً على البحث عن فريسة، ويلاحَظُ الشىء عينُه فى جميع الدواجن التى توجد فى أماكنَ يستغنى الذكر فيها عن العناية بتغذية الصِّغار لِمَا تشتمل عليه من فَيْضٍ دائمٍ فى الغذاء، ومما يُرَى أن الصغار، بَيْنَا تكون محتاجةً إلى القُوت فى وَكْرِها، يأتى الذكر والأنثى إليها به حتى تصيرَ قادرةً على الطَّيَران وعلى نَيْل ما تغتذى به.

«وعندى أن المهمَّ يقوم على هذا، وذلك ما لم يكن هذا هو السببَ الوحيدَ فى أن الذكر والأنثى فى الجنس البشرىّ مُلْزَمان بِعِشْرَةٍ أطولَ مما تقوم به المخلوقات الأخرى، ويتجلَّى هذا السبب فى قدرة المرأة على الحَمْلِ، وفى كونها تُصْبح حُبْلَى وتَضَعُ وَلدًا قبل زمنٍ طويل من الوقت الذى يُمْكِن الولدَ السابق أن يستغنى فيه عن مساعدة أبويه فيستطيعَ أن يَقْضِىَ حاجاتِه بنفسه،

وهكذا فإن الأب إذ كان مُلْزَمًا بالعناية بمن أوجب وِلادتَهم لزمنٍ طويل فإنه ملزمٌ أيضًا بإدامة العيش فى عِشْرَةٍ زوجية مع ذات المرأة التى وُلِدُوا له منها، وبأن يبقى ضمن هذه العِشْرة مدةً أطولَ من عِشْرة المخلوقات الأخرى التى تستطيع صغارُها أن تقوم بمعاش نفسها قبل حلول الزمن الذى تَقَع فيه وِلادةٌ جديدة، فتُقْطَعُ الصلةُ بين الذكر والأنثى من تلقاء نفسها فى أثناء ذلك، ويصبح كلٌّ من الجنسين فى حِلٍّ من الآخر حتى الفصلِ الذى تقضى عادتُه باقتران الحيوانات فيُلْزِمها بأن تختار لنفسها زوجاتٍ جديدةً، وهنا لا يُعْجَبُ كافيًا بحكمة الخالق التى أنعمت على الإنسان بصفاتٍ خاصة يُدَبِّر فيها المستقبلَ كما يُدَبِّر الحاضر فقضت بأن تدوم عِشْرَة الإنسان مدةً أطولَ كثيرًا مما تدوم فيه عِشْرَةُ الذكر والأنثى بين المخلوقات الأخرى، وذلك لكى تكون حيلةُ الرجل والمرأة أكثرَ تَفَتُّقًا ومصالحهما أكثرَ اتحادًا، وذلك وصولاً إلى نَيْلِ زادٍ لأولادهما وتَرْك مَالٍ لهما، فلا شىءَ يكون أكثرَ ضَرًّا بالأولاد من قِرَانٍ مبهمٍ غيرِ ثابتٍ أو من حَلٍّ سَهْلٍ سريعٍ للعِشْرَة الزوجية».

ويَدْفَعنى حُبِّى للحقيقة، الذى جَعَلنى أَعْرِض هذا الاعتراض بإخلاصٍ، إلى إضافة بعض الملاحظات إليه لإيضاحه على الأقل، إن لم يكن لحَلِّه.

١ - أُلاحظ قبل كلِّ شىء أنه ليس للأدلة الأدبية قوةٌ كبيرة فى موضوع الطبيعة، وهى أنفعُ لبيان سبب الوقائع القائمة مما لِتَبَيُّن وجودِ هذه الوقائع الحقيقىِّ، والواقعُ أن هذا هو جنس الدليل الذى اتخذه مستر لوك فى العبارة التى نقلتها، وذلك أنه مهما يكن دوامُ قِران الرجل والمرأة نافعًا للجنس البشرىِّ فلا يدلُّ هذا على كونه قد تَمَّ هكذا بفعل الطبيعة، وإلَّا لوجب أن يقال إن الطبيعة أقامت المجتمعَ المدنىَّ والفنونَ والتجارة وكلَّ ما يُزْعَم أنه مفيد للناس.

٢ - أَجْهل المكان الذى وَجَد فيه مستر لُوك أن عِشْرة الذكر والأنثى بين الحيوانات المفترسة أكثرُ دوامًا مما بين التى تعيش من العشب، وكونَ أحدهما يساعد الآخر على تغذية الصِّغار، وذلك لأنه لا يُرَى أن الكلب والهِرّ والدُّبَّ والذِّئب أحسنُ معرفةً لأُنثاها من معرفة الحِصان والكَبْش والثَّوْر والوَعْل وغيره من ذوات القوائم الأربع لأنثاه، وعلى العكس يلوح أن مساعدة الذكر إذا كانت ضروريةً للأنثى حِفْظًا لصِغارها كان هذا، على الخصوص، فى الأنواع التى لا

تعيش إلَّا من العشب، وذلك لأن الأمَّ تحتاج إلى وقت طويل جِدًّا للرَّعْى، ولأنها مُكْرَهة على إهمال نِتاجها فى جميع هذه الفاصلة، وذلك بدلاً من أن تُلْتَهَم فريسةُ الدُّبَّة أو الذِّئبة فى دقيقة واحدة، فيكون عندها من الوقت ما تُرْضِع فيه صِغارَها، ويؤيِّد هذا الاستدلالُ بما يُشاهد من عدد الثُّدِىِّ والصِّغار النسبىِّ الذى يَميزُ الجوارحَ من آكلة النبات فتكلمتُ عنه فى التعليق الثامن، وإذا كانت هذه المشاهدة صحيحةً عامة، ولم يكن للمرأة غيرُ ثديين، ولم تَضَعْ غيرَ ولدٍ دفعةً واحدة، كان هذا سببًا قويًّا مضافًا إلى ما تقدم للشكِّ فى أن النوع البشرىّ من الجوارح عن طبيعةٍ، فيجب أن يُرْجع إلى استدلال لوك لاستخراج النتيجة التى انتهى إليها، ولا نَجِدُ ما هو أمتنُ من ذات التمييز الذى يُطَبَّق على الطيور، فمن ذا الذى يُمْكِنه أن يُقْنِع نفسه بأن قِران الذكر والأنثى بين العِقْبان والغِرْبان أكثرُ دوامًا مما بين القَمَارىّ؟ ولدينا من الطيور الأهلية نوعان: البطُّ والحمام اللذان يُزوِّداننا بأمثلةٍ مناقضةٍ لمنهاج المؤلف رأسًا، فالحمامُ الذى لا يعيش إلّا من الحَبِّ يَظَل منضمًّا إلى أُنثاه فيُغَذِّيان صغارَهما بالاشتراك، ولا يَعْرِف البَطُّ، الذى يُعْلَمُ نَهَمُه، أُنثاه ولا صِغارَه وهو لا يساعد على غذائها مطلقًا، ولا يُرَى بين الدَّجاج، الذى هو نوعٌ ليس أقلَّ ضَرَاءَ مطلقًا، أن الديك يبالى بالرَّخَم، وإذا كان الذَّكَر فى الأنواع الأخرى يشاطر الأنثى أمرَ العناية بتغذية الصِّغَار فذلك لأن الطيور التى لا تستطيع الطيران فى البُداءة ولا تستطيع أمُّها أن تُرْضعها أقلُّ استغناءً عن مساعدة الأب من ذوات القوائم الأربع التى يكفيها ثَدْىُ أُمِّها بعضَ الزمن على الأقلّ.

٣- يُوجَد شكٌّ حول الأمرِ الرئيس الذى يَصْلُح أساسًا لجميع استدلال مستر لُوك، وذلك لأنه إذا أريد أن يُعْرَف أن المرأة فى الحال الطبيعية الصِّرْفة هى، كما يَزْعُم، أن تكون حُبْلَى ثانيةً، وأن تَضَعَ ولدًا قبل أن يستطيع الولد السابق أن يقوم بحاجات نفسه، وَجَب وقوعُ تجارِبَ لم يَقُمْ بها مستر لُوكُ ولم يَنْتَهِ إليها أحدٌ لا رَيْب، وإن سُكْنى الزوج والمرأة فى منزلٍ واحد فرصةٌ تُدْنِى من حدوث حَبَلٍ جديد، فيَصْعُب أن يُعْتَقد أن اللقاء العارض، أو اندفاعَ المزاج، يُسْفِر عن نتائجَ كثيرةِ الوقوع فى الحال الطبيعية الصِّرْفة كما تُسْفِر عنه العشرةُ الزوجية، ومن المحتمل أن يساعد هذا البطوء على جعل الأولاد أكثرَ قوةً، وأن يُعَوَّض منه، مع ذلك، بخاصِّيَّة الحَمْل

التى تكون أكثرَ دوامًا فى عمر النساء اللاتى لم يُسِنْنَ استعمالَها فى شبابهن، وأما من حيث الأولادُ فيوجد من الأسباب ما يَحْمِل على الاعتقاد بأن قُوَاهم وأعضاءهم تَنْمو بيننا فى وقت متأخر عن زمن نُمُوِّها فى الحال الابتدائية التى أتكلم عنها، وما هو واقعٌ من ضَعْفٍ أصلىّ ينتقل إليهم من بِنْيَة الأبوين، وما يُؤْتَى من عنايةٍ فى سَتْر جميع الأعضاء ومضايقتها، وما يُنَشَّأُون فيه من تَرَفٍ، وما يَرْضَعُونه من لَبَنٍ غيرِ لبن أمهم على ما يحتمل، أمورٌ تباينُ تقدُّمَ الطبيعة فيهم وتعوقه، وما يكون من تطبيق يُلْزَمون به على ألف شىء يُوجَّه إليه انتباهُهم باستمرارٍ، على حين لا تُحْبَى قواهم البدنية بأىّ تمرينٍ كان، يُمْكِن، أيضًا، أن يُسْفِر عن أُلهيّةٍ عظيمة فى نُشُوئهم، وذلك بأن يُتْرَك تمرينُ أبدانهم لحركاتٍ مستمرة يَلُوح أن الطبيعة تطالبهم بها فيكونون فى حالٍ يَمْشُون ويَسِيرُون ويقضون حاجاتهم معها بأنفسهم قبل الأوان، بدلاً من إرهاق نفوسهم وإتعابها.

٤- ثم إن مستر لُوك يُثْبِت، فضلاً عن ذلك، إمكانَ وجودِ عاملٍ فى الإنسان يَظَلُّ به مرتبطًا فى المرأة إذا كان ذا ولد، ولكنه لا يُثْبِتُ، مطلقًا، وجوبَ ارتباطه فيها قبل الوَضْع وفى أثناءِ أشهر الحَمْل التسعة، وإذا كانت مثلُ هذه المرأة لا تبالى بالرجل فى أثناء هذه الأشهر التسعة، وإذا ما أصبحت مجهولةً لديه أيضًا، فَلِمَ يساعدُها بعد الوضع؟ وَلِمَ يُعِينُها على تنشئة ولدٍ لا يَعْرِف أنه له ولم يَنْوِ ولادتَه ولم يُبْصِرْها، ومن الواضح أن يَفْتَرض مستر لُوكُ ما هو مدارُ البحث، وذلك لأن الأمر لا يدور حَوْل معرفة السبب فى بقاء الإنسان مرتبطًا فى المرأة بعد الوَضْع، بل حَوْل السببِ فى ارتباطه فيها بعد الحَمْل، فإذا ما قُضِى الوَطَر عاد الإنسان لا يحتاج إلى مثل هذه المرأة وعادت المرأة لا تحتاج إلى مثل هذا الرجل، ولا يساور هذا الرجلَ أقلُّ هَمٍّ، ولا أقلُّ فكرٍ عن نتائج عمله، فأحدُهما ينصرف من ناحيةٍ وينصرف الآخر من ناحية أخرى، ولا يوجد من الظاهر ما يدلُّ على أنهما من الذاكرة ما يتعارفان معه، وذلك لأن هذا النوعَ من الذاكرة، التى يُفَضَّلُ بها فَرْدٌ فردًا آخر لعملٍ نَسْلِىٍّ، يتطلب، كما أُثبته فى المَتْن، تَقَدُّمًا أو فسادًا فى الإدراك البشرىّ أكثرَ مما يُمْكِن أن يُفْتَرَض فى الحال الحيوانية التى هى مدار البحثِ هنا، ويُمْكِنُ امرأةً أخرى أن تقوم، إذَنْ، بقضاء أوطارٍ جديدةٍ للرجل بسهولةٍ كما عَرَف سابقًا، وكذلك يُمْكَن رجلاً آخرَ أن يِقْضىَ وَطَرَ المرأة، وذلك عن افتراضِ كونها مُعْتَصَرَةً بذات الشهوة فى حال الحَبَل، أى

عن أمرٍ يُمكِن أن يُشَـكَّ فيه كما ينبغى، وإذا عادت المرأةُ فى حال الطبيعة لا تَشْـعُرُ بهَوى الرجل بعـد الحَبَل عَظُـمَ العائقُ لِعشْرَتها مع الرجل كثيرًا، وذلك لِمَا تَعُـود غيرَ محتاجةٍ إلى الرجل الذى لَقَّحهـا، ولا إلى أىِّ رجـلٍ آخر، ولا يُوجَد فى الرجـل، إذَنْ، أىُّ داعٍ إلى البحث عن ذات المرأة، كما أنه لا يُوجَد فى المرأة أىُّ داعٍ للبحث عن ذات الرجل، وتَسْقُط برهنةُ لُوكَ متداعيةً، ولم يَصُنْ هذا الفيلسـوفَ مَنْطِقُه من الخطأ الذى اقترفه هُوبْزُ وآخرون، وقد كان عليهم أن يُوضِحوا أمرًا عـن الحـال الطبيعية، أى عن حالٍ كان الناس يعيشـون فيها منعزلين، فلا يكون لدى الإنسـان من العوامل ما يعيش معه بجانب إنسانٍ آخرَ، كما أنه لم يكن لدى الناس من العوامل ما يعيش معـه بعضُهـم بجانب بعض على ما يحتمـل، أى أن يأتوا ما هو شَرٌّ، وهـم لم يُفَكِّروا فى الانتقال إلى مـا قبـل عصور المجتمع، أى إلى ما قبل الأزمنة التى يكون للناس فيها، دائمًا، مُوجِبٌ يعيش به بعضُهم بجانب بعض، والتى يكون للرجل فيها من الأسـباب، غالبًا، ما يعيش معه بجانب ذلك الرجل أو تلك المرأة.

* * *

(١٣)

الصفحة ٤٩ : أحترزُ من الخوْض فيما علىَّ أن آتيَه من التأملات الفلسفية حَوْل فوائد نظام اللغات ومساوئه، أى أنه لا يَقَعُ علىَّ أن أُهاجم الأغاليط العامية، ويَكْثرُ احترام الشعب المُثَقَّف لمُبْتَسراته فلا يُطيق صابرًا بدائعى المزعومة، ولْنَدَعْ، إذَنْ، يَتَكَّلم أولئك الذين لم يُجْعَلْ من الجناية جُرْأتُهم على التزام جانب العقل، أحيانًا، تِجَاه رأى الجُمهور، «فلو نفينا من العالَم وباءَ كلِّ هذه اللغات واختلاطَها، ولو تَمَسَّك الناس بفنٍّ واحد وأمكنهم أن يُفَسِّروا كلَّ شىء بالإشارات والحركات ما نَقَصَ شىءٌ من سعادة الجنس البشرىِّ، والآن أَبْصَرْنا أن الحيوانات التى يَدْعُوها العوامُّ عَجْمَاواتٍ أفضلُ منا حالاً من هذه الناحية، فهى تُعَبِّر عن إحساساتها وأفكارِها من غير ترجمانٍ بما هو أسرعُ وأسعد، وهذا ما يَعْجِزُ عنه الناس إذا ما استعملوا لغةً غريبةً على الخصوص».

* * *

(١٤)

الصفحة ٥٢: بَيَّن أفلاطونُ مقدارَ لزوم مبادئ الكمية ذات الأجزاء المتفرقة ونِسَبها فى أحقر الصنائع، فحُقَّ له أن يَسْخَر من مؤلفى زمنه الذين كانوا يَزْعمون أن بَلاَمِيدَ اخترع الأعدادَ عند حصار تْرْوَادَة، كما لو كان أغامِمْنُون يجهل مقدارَ ما لديه من سِيقَان[1]، والواقعُ أنه يُشْعَرُ بتعذُّر تعيين ما كان قد انتهى إليه المجتمع والصنائع أيام حِصار تْرْوَادَة من غير أن تكون لدى الناس عادةُ الأعدادِ والحساب، غير أن ضرورة معرفة الأعداد قبل نَيْلِ معارفَ أخرى لا تَجْعَل تصورَ اختراعها أكثرَ سهولةً، ولَمَّا عُرِفت أسماءُ الأعداد مرةً سَهُل إيضاحُ معناها وإثارةُ ما تَنِمُّ عليه هذه الأسماء من الأفكار، بَيْدَ أن اختراعها اقتضى، قبل تَمَثُّل هذه الأفكار نفسِها، تَعَوُّدَ التأملاتِ الفلسفية والنظرَ إلى الموجودات بجوهرها فقط مستقلةً عن كلِّ تصورٍ آخر، أى اقتضى، تجريدًا بالغَ المشقة، بالغَ ما بعد الطبيعية، قليلَ الطبيعية إلى الغاية، فلا تستطيع هذه الأفكار بغيره أن تُنْقَل من نوعٍ أو جنسٍ إلى آخرَ، ولا أن تصبح الأعدادُ عامةً، ويُمْكن الوحشَ أن يتأمَّل ساقَه اليمنى وساقَه اليسرى على انفراد أو أن ينظر إليهما معًا تحت فكرة الزوجين التى لا تتجزأ، وذلك من غير أن يفكِّر فى حيازته لاثنتين، وذلك لوجود فرقٍ بين الفكرة التمثلية التى تصور لنا موضوعًا والفكرة العددية التى تُعَيِّنُه، وأقلُّ من ذلك قدرتُهُ على الحساب حتى الخمسة، وهو مع تطبيقه إحدى يديه على الأخرى يمكنه أن يلاحظ كونَ الأصابع تتطابق تمامًا، وهو بعيدٌ من التفكير فى مساواتها العدَدية، وهو لا يَعْرِف عددَ أصابعه كعدم معرفته عددَ شَعْره، وهو إذا ما سَمِع شيئًا عن العدد فقيل له إن أصابع رجليه تَعْدِل أصابعَ يديه عَدَدًا اعترته حيرةٌ، على ما يحتمل، عندما يقابل بينها فيرى صحةَ هذا.

* * *

(١) الجمهورية، باب٧.

(١٥)

الصفحة ٥٥: لا يَجُوز أن يُخْلَط بين الأنانية وحبِّ البقاء، أى بين العاطفتين اللتين تختلفان طبيعةً ونتيجةً، فحبُّ البقاء فى ذاته شعورٌ طبيعىٌّ يَدْفَع كلَّ حيوان إلى السهر على بقائه الخاصّ، ويُسْفِر عن الإنسانية والفضيلة إذا ما وَجَّهَه الإنسان بالعقل وعُدِّل بالرأفة، وليست الأنانية غيرَ شعورٍ نسبىّ مصنوع ناشئ فى المجتمع، فيَحْمِل كلَّ فردٍ على الاكتراث لنفسه أكثرَ مما لغيرها، ويُوحِى للناس بجميع الشُّرُور، التى يصنعونها مقابلةً، ويُعَدُّ مصدرَ الشرف الحقيقىَّ.

وأقول بعد ذلك إن الأنانية فى حالنا الابتدائية، فى الحال الطبيعية الحقيقية، غيرُ موجودة، وذلك لأن كلَّ إنسانٍ، على الخصوص، إذْ كان يَعُدُّ نفسَه الناظرَ الوحيد الذى يشاهدها، الكائنَ الوحيد فى العالَم الذى يُعْنَى بها، القاضىَ الوحيد فى مزيته الخاصة، فإن من غير الممكن أن يَرْسَخ فى نفسه أىُّ شعورٍ ناشئٍ عن مقاييساتٍ لا يستطيع القيامَ بها، أى إن هذا الإنسان لا يستطيع لذات السبب أن يكون ذا حقدٍ أو رغبة فى الانتقام، أى متصفًا بهذه الأهواء التى لا يُمْكِن أن تنشأ عن رأيٍ فى إهانةٍ تُتَلَقَّى، وبما أن الازدراء أو نيةَ الإضرار، لا الشَّرَّ، هو الذى يُوجِبُ الإهانة فإن الناس الذين لا يَعْرِفون أن يُكْرِم بعضُهم بعضًا، ولا أن يقيسوا بين بعضهم وبعضٍ، يأتون بضروبٍ من العنف مبادلةً عندما تَلُوح لهم فائدةٌ، وذلك من غير أن يَحْنَق بعضُهم على بعضٍ مقابلةً، والخلاصة هى أن كلَّ إنسانٍ، إذْ لا يرى أمثالَه إلا كما يرى حيواناتِ نوعٍ آخرَ، يستطيع أن يختطف الفريسةَ من الأضعف ويتنزل عن فريسته للأقوى عادًّا هذه الأسلابَ من الحوادث الطبيعية، وذلك من غير أدنى حركةٍ فى الغيظ والعُتُوّ، ومن دون هَوًى آخرَ غيرِ الألم أو السرور حَوْلَ حُسْنِ النجاح أو سوئه.

* * *

(١٦)

الصفحة ٧٣: مما يَجْدُر ذكره إلى الغاية أن يُقْلِق الأوروبيون بالهم منذ سنين كثيرةٍ جَلْبًا لوحوش مختلف بقاع العالَم إلى طِراز حياتهم، وألَّا يستطيعوا كَسْب واحدٍ منهم حتى الآن، ولو لنَفْع النصرانية، وذلك لأن مُبَشِّرينا وإن جعلوا أناسًا منهم نصارى أحيانًا لم يُحَوِّلوا هؤلاء إلى أناسٍ متمدنين قَطُّ، ولا شيءَ يستطيع أن يتغلب على ما يساورهم من مقتٍ متأصلٍ لانتحال طبائعنا وطِراز حياتنا، وإذا كان هؤلاء الوحوش البائسون من الشقاء بمقدار ما يُزْعَم فبأيِّ فسادٍ فى الرأى عريقٍ يَرْفِضُون باستمرارٍ أن يتمدنوا مُقْتَدين بنا، أو أن يتعلموا العيشَ سُعَداءَ بيننا، وذلك على حينِ يُقْرَأُ فى ألف مكانٍ أن فرنسيين وأوربيين آخرين لجأوا إلى هذه الأمم طَوْعًا وقَضَوْا حياتَهم كاملةً بينها من غير أن يُطيقوا تركَ طِرازِ عيشٍ بالغِ الغرابة كهذا، وذلك على حينِ يُرَى، أيضًا، مُبَشِّرون عقلاءُ يأسفون مع تَحَنُّنٍ على الأيام الهادئة البريئة التى قَضَوْها عند هذه الشعوب المُزْدَراةِ كثيرًا؟ إذا ما أُجيب عن هذا بأنها ليست من الذكاء الكافى ما تستطيع أن تَحْكم به حكمًا صحيحًا فى حالها وحالنا رَدَدْتُ بقولى إن تقدير السعادة هو من عمل الشعور أكثرَ من أن يكون من عمل العقل، ومع ذلك فإن من الممكن أن يُرَدَّ هذا الجواب علينا بشدةٍ أقوى من تلك، وذلك لأن أفكارنا التى يتصرف فيها الذهن، حيث يجب أن يكون لتَمَثُّل الذوق الذى يَجِدُه الوحوش فى طِراز عيشهم، أبعدُ من أفكار الوحوش فى تمثُّلهم طِراز عيشنا، والواقعُ أنه يَسْهُل عليهم أن يَرَوْا بعد بعض الملاحظات أن جميع أعمالنا تتجه نحو غايتين فقط، وهما أطايبُ النِّعَم لذاتها والمكانةُ بين الآخرين، ولكن ما الوسيلة التى نتصور بها نوعَ ما يَجِدُه الهمجيُّ من لذةٍ فى قضاء حياته فى وَسط الغاب، أو فى صيد البحر، أو فى النَّفْخ فى مِزْمارٍ ردىءٍ من غير أن يَعْرِف استخراجَ لحنٍ منه ومن غير أن يبالىَ بتعلمه؟

لقد جُلِبَ وحوشٌ إلى باريسَ ولندنَ ومُدُنٍ أخرى عِدَّةَ مرات، وقد تزاحمَ الناس ليَعْرِضوا عليهم نفائسَنا وثَرَواتِنا وأكثرَ صنائعنا نفعًا وأدعاها إلى النظر، فلم يُثِرْ جميعُ هذا غيرَ إعجابٍ سخيف فيهم مع عدم إثارة أدنى درجةٍ من الشهوة، وأذكُرُ فيما أذكُرُ قصةَ رئيسِ أناسٍ من

أمريكة الشمالية أُتِيَ به إلى بَلاط إنكلترَة منذ ثلاثين عامًا، فعُرِضَ أمام عينيه ألفُ شيءٍ لتُقَدَّمَ إليه هديةٌ منها يُمْكِن أن تَرُوقه، فلم يُوجَدْ فيها ما يَظْهَر أنه يبالى به، وقد بَدَتْ أسلحتنا ثقيلةً عسيرةً عليه، وقد جَرَحت أحذيتُنا رجليه، وقد ضايقته ثيابنا، فرَفَض جميعَ هذا، وأخيرًا رُئِيَ أنه تناول غِطاءً من صوف فَظَهَر أنه سُرَّ باشتمّال كتفيه به، ويُسْأَل: «تلائمكم فائدة هذا الجهاز على الأقل»، ويجيب: «أجَلْ، يَلُوح لى هذا نافعًا نَفْع جلد الحيوان»، ومع ذلك فإنه لم يكن ليقولَ ذلك لو لَبِسَ هذا وذاك عند المطر.

ومن المحتمل أن يقال لى إن العادة هى التى تَرْبِط كلَّ واحد بِطراز عيشه، وهى التى تَحُول دون شعور الهَمَج بما هو حَسَنٌ فى طِراز عيشنا، فعلى هذا الحال يجب أن يُرَى أن من الخوارق القوية على الأقلِّ أن العادة تنطوى على قوةٍ أشدَّ فى إمساك الهَمَج ضِمْنَ ذوق بؤسهم مما فى إمساك الأوربيين ضِمْنَ تمتعهم بسعادتهم، ولكننى لكى أُقَدِّم جوابًا عن هذا الاعتراض الأخير لا يُرَدُّ عليه بكلمة، ولكننى من غير أن أستشهد بشبان الهَمَج الذين عُنِيَ بتمدينهم على غير جَدْوَى، وذلك من غير أن يُحَدَّث عن أهل غرُونِلَنْدة وإيسلَنْدة الذين سُعِيَ فى تنشئتهم وتغذيتهم فى دنيماركة والذين هَلَكوا غَمًّا وقُنُوطًا، وذلك عن ضَنىً أو فى البحر الذى حاولوا أن يَعُودوا به إلى بلدهم سَبْحًا، أكتفى بذِكرِ مثالٍ واحدٍ حُقِّق جَيِّدًا فأُقدِّمه إلى المُعْجَبين بالسياسة الأوربية ليَدْرُسوه.

«لم تَقْدِر جميع جهود المبشرين الهولنديين فى رأس الرجاء الصالح على تحويل أحدٍ من الهُوتِنْتُو عن دينه، ومما حَدَث أنّ حاكم الكاب ڤان دِرْستِل أخذ واحدًا منهم منذ طفولته ورَبَّاه وَفْق تعاليم النصرانية وأساليب العادات الأوروبية، وقد أُلبس لباسًا زاهيًا، وقد عُلِّم عِدَّةَ لغات، وما نال من تَقَدُّمٍ ناسب جَيِّدًا ما بُذِل من عناية لتربيته، وعَلَّق الحاكم أملاً كبيرًا على ذكائه فأرسله إلى الهند مع وكيلٍ عامٍ انتفع به مستخدَمًا فى أمور الشركة، ثم عاد إلى الكاب بعد موت الوكيل، وتَمْضى أيامٌ قليلة على رجوعه فيَرَى فى زيارةٍ قام بها لأناسٍ من أقربائه الهُوتِنْتُو أن يَخْلَع ثيابه الأوروبية ليلْبَس جلدَ شاةٍ، ويَعُود إلى الأقوى بهذا اللباس الجديد حاملاً صُرَّةً مشتملةً على ثيابه القديمة، مُقَدِّمًا إياها إلى الحاكم قائلاً: «تفَضَّل يا سيدى بأن تَعْلَم أننى عَدَلت

عـن هـذا الجهاز إلى الأبد، وأننـى رَجَعت عن النصرانية لَمَدَى حياتـى، وأننى عَزَمْت أن أعيش وأمـوت عـلى دين آبائى، وكلُّ مـا أطلبه من لطفك أن تترك لى العِقْد والخنجر اللذين ألبسـهما، فسـأحتفظ بهما حُبًّا لك»، وهو، من غير انتظارٍ لجواب فانْ دِرْسـتِل، لم يَلْبَث أن توارى فارًّا، ولم يُرَ ثانيةً فى الكاب»، (تاريخ الرحلات، جزء ٥، صفحة ١٧٥).

* * *

(١٧)

الصفحة ٧٨: يُمْكِن أن يُعْتَرَض علىَّ بأن الناس فى مثل هذا الاضطراب يتفرقون عند عدم وجود حَدٍّ لتَفَرُّقهم، وذلك بدلاً من أن يتذابحوا بعناد، ولكن هذه الحدود كانت فى البُداءة حدودَ العالَم على الأقل، وإذا ما فكَّر فى فَرْط الأهلين الذى ينشأ عن حال الطبيعة رُئِى أن الأرض فى هذه الحال لم تتأخَّر أن تُسْتَر بالآدميين المضطرين إلى البقاء متجمعين على هذا الوجه، ثم إنهم يتفرقون إذا ما استفحل الشرُّ، وقد وقَع هذا التحولُ بين عشية وضحاها، غير أنهم كانوا يُولدون تحت النِّير، وكان من عادتهم أن يَحْملوه إذا ما شَعَرُوا بِثقَله، وكانوا ينتظرون فرصةَ إلقائه عنهم، ثم بما أنهم تَعَوَّدوا ألفَ رَفَاهيةٍ كانت تحملُهم على البقاء مجتمعين فإن التفرق لم يكن سهلاً كما فى الأزمنة الأولى، حيث كان كلُّ واحد يَحْزُم من غير أن ينتظر موافقةَ أحد، وذلك لعدم احتياجه إلى غير نفسه.

* * *

(١٨)

الصفحة ٨٠: رَوَى المريشال دوفيلَّار أن إفراط أحد متعهدى الميرَة فى الاختلاس آذى الجيش وأثار تذمره فعَزَّره بعنف وهَدَّده بالإعدام شنقًا، فقال له المختلس بجرأة: «لا أُبالى بهذا الوعيد، وَيسْهُل علىَّ أن أقول لكم إنه لا يُصَارُ إلى شَنْق رجل يتصرف فى مائة ألف دينار»، ويُعَقِّب المريشال على ذلك قائلاً بسذاجة: «لا أعلم كيف وقع هذا، ولكنه لم يُشْنَقْ قَطُّ كما هو الواقع، مع أنه يستحقُّ الإعدام على ذلك مائة مرة».

* * *

(١٩)

الصفحة ٨٩: يعارِض العدلُ الأمرُ بتوزيع الجزاء والعقاب على أصحابها هذه المساواةَ الوثيقةَ فى الحال الطبيعية عندما يُعْمل به فى المجتمع المدنىّ، وبما أن جميعَ أعضاء الدولة مدينون لها بِخِدَمٍ تُنَاسب مواهبَهم وقُوَاهم فإنه يجب أن يُمَازَ بين المواطنين وأن يُفَاضَل بينهم على حسب خدَمهم، وعلى هذا المعنى يجب أن تُحْمل عبارة إيزُوقْرَاط[1] التى يمتدح فيها أهلَ أثينة الأولين العارفين أن يميزُوا جيدًا ما هو أنفع بين نَوْعَى المساواة اللذين يقوم أحدُهما على إشراك جميع المواطنين على السَّوَاء فى ذات المنافع، ويقوم الآخر على توزيعها وَفْقَ مزية كلٍّ منهم، ويُبْعِد هذا الخطيبُ تلك المساواةَ الجائرة التى لا تَجْعَل أىَّ فَرْقٍ بين الأشرار والأبرار فيقول مضيفًا إن هؤلاء السياسيين الماهرين يتمسكون تمسكًا قاطعًا بما يكافئ ويعاقب كلَّ واحدٍ وَفْقَ مزيته، بَيْدَ أنه لم يُوجَدْ، أوَّلا، مجتمعٌ لم يُفَرَّق فيه بين الأشرار والأبرار مهما كانت درجة الفساد، وأما من ناحية الأخلاق، حيث لا يستطيع القانونُ أن يُعَيِّن من التدابير الصحيحة ما يَصْلُح اتخاذُه قاعدةً للقاضى، فإن من الحكمة البالغة ألا يُتْرَك نصيبُ المواطنين ومقامُهم لِخِيار هذا القاضى الذى يَحْظُر القانونُ عليه أن يَحْكُم فى الناس غيرَ تاركٍ له سوى القضاء فى الأفعال، ولا نَجِدُ غيرَ أخلاق الرومان الصافية ما يستطيع أن يُطيق الرُّقباء، ومحاكمُ مثل هذه لا تَلْبَث أن تُقْلَب بيننا رأسًا على عَقِب، وعلى التقدير العامّ أن يَضَع فرقًا بين الأشرار والأبرار، وليس الحاكمُ قاضيًا إلا فى الحقوق الوثيقة، وأما الشعبُ فهو القاضى الحقيقىُّ فى الأخلاق، هو القاضى العادلُ، حتى الخبيرُ، من هذه الناحية، هو القاضى الذى يُخَادَع أحيانًا، ولكن من غير أن يُفْسَدَ مطلقًا، ويجب أن تُنَظَّم مراتبُ المواطنين، إذَنْ، وَفْقَ الخِدَم الحقيقية التى يقَدِّمونها إلى الدولة، والتى تَتَقَبَّل تقديرًا أكثرَ إحكامًا، لا وَفْقَ مزيتهم الشخصية التى تَدع للحكام وسيلةً لتطبيق القانون تطبيقًا مراديًّا.

---

(١) Arcopagit. 8، طبعة كوارى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم.....	٥
رسالة فى سؤال اقترحته أكاديمية ديجون.....	١٣
إلى جمهورية جنيف	١٥
المقدمة	٢٥
كلمة حول أصل التفاوت	٣١
القسم الأول	٣٥
القسم الثاني.....	٦٥
تعليقات	٩٥